الجزء الثانى

الرسول والرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾

[الفتح : ٢٨ ، ٢٩]

أولو العزم من الرسل

٢ـ الرسول والرسالة

جميع الحقوق محفوظة

رقم الإيداع : ٩٧/١٠٥٧٣

الترقيم الدولى :

I. S. B. N.: 977 - 5526 - 65 - 5

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

دار النشر للجامعات - مصر

١٦ ش عدلى - الدور الثالث - القاهرة

ص .ب ١٣٠ محمد فريد - ت: ٣٩٣١٤٣٤ - فاكس: ٣٩١٢٢٠٩

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

أ. د. حسن محمد باجودة

الحمد لله ربّ العالمين ، والصّلاة والسّلام على أشرف المرسلين ، سيّدنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد : فقد طلب منّي الأخ الكريم الأستاذ الدّكتور طه عمران وادى مشكوراً أنْ أكتبَ مقدّمة لسفره النّفيس هذا ، فأدركتُ أنّى كجالب التّمر إلى هَجَر، خاصّةً وقد منَّ المولى عزَّ وجلَّ على أخينا الكريم بالتّوفيق فى مجالى التّأليف والإبداع معًا ، ولله الحمد والمنّة. ونزولاً على رغبة الأستاذ الدكتور طه وادى لا أملك إلا أن أجلبَ التّمرَ إلى هجر .

ولعلّك أخى القارىء بشأن أولى العزم الخمسة من الرُّسل الكرام ، عليهم صلواتُ ربّ العالمين وسلامه ، الّذين اتّجهتْ نيةُ الأستاذ الدّكتور طه وهمّته إلى كتابة سيرهم ، دونَ تقصير مخلّ أو تطويل مُملّ ، قد وقفت مثلى على باكورة هذه السّلسلة المباركة الطيّبة المفيدة الماتعة بعنوان : « **أولو العزم من الرسل** » ـ الجزء الأول ، وكان ميدانه أربعة من أولى العزم من الرّسل مرتبين زمنياً ، وهم نوح أوّلُ المرسلين ، وإبراهيم أبو الأنبياء ، وموسى كبيرُ أنبياء بنى إسرائيل ، وعيسى آخر أنبياء بنى إسرائيل ، عليهم جميعاً صلواتُ ربُّ العالمين وسلامه .

ولما كان الدكتور طه أحد كتاب القصة المبدعين ، وكانت القصّةُ المحورَ الذى تدور حوله الدراسة ، فقد كان القرآن الكريمُ المصدر الأول لهذه الدراسة الأولى ، كما كان كذلك المصدرَ الأولَ للجزء الثانى من الدراسة المتعلقة بخاتم النبيين وأشرف المرسلين ، سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ وعلى سائر النبيين والمرسلين ، وهى الدراسة التى نكتبُ بين يديْها هذه السطور .

وبشأن أولى العزم الأربعة من الرسل تسنى للدكتور طه أن يجمع فى نسق ، وفقَ منهج دقيق ، الآيات الكريمات المتعلقة مباشرة بكل من هؤلاء الرسل الكرام.

الصورة المثلى لحياة كل رسول كريم وكفاحه وصبره . ومن أهم الأسباب التى جعلتْ هذا المنهج يمكن تطبيقه أن عدد الآيات الكريمات المتعلقات بكل رسول كريم يمكن حصره إلى حدٍ ما ، ومع أن حظ موسى عليه السلام من الآيات الكريمات هو الموفور ، على الرغم من اقتصار المختار من الآياتِ الكريمات على ما له علاقة مباشرة بموسى عليه السلام .

وإذا كنَّا نكتبُ مقدمة للجزء الثانى الذى يختصُّ بمحمد بن عبد الله ﷺ ، فإنّ منهجَ الدّارسة لمّا كان واحداً فإنّ ما يكتب عن هذا الجزء الثانى ينسحبُ على الجزء الأول المتعلق بالأربعة من الرسل الكرام المتقدمين زمنًا ،كما ينسحبُ كذلكُ على الجزء الثالث الذى ينوى الأستاذ الفاضل عمله بإذن الله تعالى ، والذى يتعلقُ بقصص الأنبياء والصالحين .

وإذا كان ـ بشأن الجزء الأول ـ أمكن جمعُ الآيات الكريمات المتعلقة بكل رسول كريم فى حيِّز واحد ، فإنّ الأمر فى حقّ محمد بن عبد الله ﷺ مختلف ، لأنّ الكثير من آيات الذكر الحكيم ذو علاقة على نحو من الأنحاء بالمصطفى ﷺ. وقد جعل الدكتور طه آيات الذكر الحكيم المحورَ الذى تدور حوله هذه السيرة . وكان التوفيقُ ـ بفضل الله تعالى ـ حليفَه فى هذه الدراسة، كما كان حليفه فى الدراسة السابقة. وعلى الرغم من التزام المؤلف بمنهجه الشمولى مع الإيجاز غير المخلّ ، فقد كان حجمُ الدراسة كبيراً بالقياس إلى الدراسة السابقة . وكيف لا يكون الأمر كذلك والقرآن الكريم هو المصدر الأول لسيرة المصطفى ﷺ الكاملة، كى تتحقق الأسوةُ الحسنة التى أشارتْ إليها الآية الكريمة الحادية والعشرون من سورة الأحزاب. قال تعالى : ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً** ﴾ .

والحقيقة أن منهجَ الأستاذ الدكتور وادى فى هذه الدراسة يمتازُ بمجموعة من النعوت هى ثمرة شهية ، وحصيلة مباركة لمكونات شخصية المؤلف . إن المؤلف فنان يكتب القصة، والفنّانُ بطبعه جياشُ العاطفة ، فكيف إذا كان هذا الفنّانُ يكتبُ عن أحب الخلق إلى الله تعالى وإلى المؤمنين ، محمد بن عبد الله

ﷺ ، وكيف إذا كان القرآن ، كلمة الله تعالى الأخيرة إلى البشرية ، **المصدرَ الأول لهذه الدراسة والمحور الأولَ لها . فإذا أضيفَ إلى كل ذلك أن المؤلف الفاضل أستاذ فى اللغة العربية، ومتخصص في أدب هذه اللغة، كان من حقك أن تتوقَّعَ بل أن تجدَ فى هذه الدراسة الوجهيْن للدينار الواحد ، أعنى الدراسةَ الدّينية والأدبية**. والحقيقة أن هذا النعت هو العمود الفقرى الذى يصبغ هذه الدراسة ويميزها ، وأن هذه الدراسة وأمثالها من الدراسات الجادة تعطى الدليل الأكيد على أن الأدب الإسلامى يستطيع بإذن الله تعالى أن يضرب بسهم وافر فى الكثير من المجالات ، وأن يسهم بالعديد من اللَّبِنات فى بناءِ صرح الحضارة الإسلامية المجيدة .

إن نعوت هذه الدراسة كثيرة ، وأترك للقارىء الكريم ارتيادها والاستماع بالوقوف عليها كما فعلت. وأوجز هذه النعوت فى عبارة واحدة هى : **أن الأستاذ الدكتور طه عمران وادى قد صبغ هذه الدراسة بإيمانه العميق ، وحبه الصادق، وبراعته القصصية ، ومهارته اللغوية ، وكفاءته فى مجال البحث .**

وليس من الضرورى أن نتفق مع الأستاذ الدكتور طه فى كل الجزئيات الدقيقة، فقد تختلف معه كما اختلفت أنا معه فى بعض هذه الجزئيات ، ولكنك لا تملك كما لم أملك ، إلا أن نتفق معه فى كل ما ذهب إليه وراء ذلك .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين .

مكة المكرمة

الإثنين ١٤١٨/١/٢٧ هـ
الموافق ١٩٩٧/٦/٢ م

أ. د. حسن محمد باجودة
كلية اللغة العربية ــ جامعة أم القرى

مقدمة

عظمة الرسول وبلاغة الرسالة

١ ـ محمدٌ ... يارسولَ الله

الحمدُ لله الذى ليسَ كمثله شيءٌ وهو السميعُ البصيرِ ، خلقَ السمواتِ والأرضَ وما بينهما وهو على كل شيء قدير، يبدأ الخلقَ ثم يعيده ، ويدبر الكونَ ـ بقدرته ـ كما يريده ، وهو الرزاق ذو القوة المتين ، رب العالمين ، مالكُ يوم الدين.
﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدنا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عليْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّين ﴾ [الفاتحة : ٥ ـ ٧] .

من مظاهرِ عظمته ، وتجليات قدرته ، يصطفى من عباده رُسلاً مكرمين ، يدعون الناسَ إلى الإيمان بأحكم الحاكمين ، وعبادة رب الأولين والآخرين . يقول وهو أصدقُ القائلين : **﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون ۝٥٦ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُون ۝٥٧ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾** [الذاريات : ٥٦ ـ ٥٨].

وقد شرَّف اللهُ ربُّ العالمين ، أمةَ الإسلام والمسلمين ، بأنْ اختصهم برسالة خاتمِ الأنبياء والمرسلين ، محمد بن عبد الله ، حبيب الله ، وأعظمِ رُسله ، وأفضلِ خلقه.

وقد اختصه ـ سبحانه ـ من بين رسله بما لم يختص به أحدا قبله، مع أنه رسوله وعبده .. فقال .. ولم يزلْ قائلاً عليماً ، وآمراً حكيماً ، تشريفًا لقدر نبيِّه وتعْظيماً وتكريماً :

﴿ إِنَّ اللَّهَ وملائكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٦] .

اللهم ... وفاءً بعهدك ... واستجابةً لأمرك .. وإيمانًا بحق نبيك ، نصلى ونسلم على رسول الله ... خيرِ خلقِ الله ... سيدِّ المرسلين ... خاتم النبيِّن ... إمام المتّقين قائد الغرِّ المحجَّلين .

أشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبدُه ورسولُه ، بلغَ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصحَ الأمةَ ، ودعا إلى سبيله ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ﴿ **رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ** ﴾ [آل عمران : ٥٣] الموحِّدين ، الذاكِرين ، الحامدِين لله ربِّ العالمين .

❁❁❁

٢ ـ جار بيت الله

من فضلِ الله وتوفيقه أني وُلدتُ في أسرة يحفظ معظمُ رجالها القرآن الكريم . فقد كان أبي الشيخ عمران ـ رحمه الله ـ من طُلاَّب الأزهر الشريف، ومع أنه ـ لظروف أسريّة ـ لم يكمل التعليم ، فإنه ظلّ حافظًا للقرآن ... حريصا على أن يحفظه معظمَ أبنائه . كما كانتْ مجالسه عامرة بالحديث عن أمور الدين ومسائل الشريعة وأحداث السيرة النبوية الشريفة .

ومع أني سرتُ في طريقين متباعديْن أجهداني ـ ولا يزالان ـ هما : طريق البحث والدراسة النقدية ، ومجال الإبداع والكتابة الأدبية ، فقد وفقني الله ـ سبحانه ـ فألفت كتابا بعنوان « **ألو العزم من الرسل** » وقد صدر الجزء الأول منه سنة ١٤١٦ ـ ١٩٩٦ . ومع أنه كان أول عملٍ لي في هذا المجال ، فقد نال استحساناً كبيراً من الذين قرأوه من المتخصصين والمثقفين على حد سواء .

لكن المفاجأةَ السّارة ـ التي لم تدر بخلدي قطُّ ـ أنني في نهاية العام الذي صدر فيه الكتاب ـ طلبت للعمل في جامعة أمّ القرى بمكة المكرمة. ترى هل كانت هذه الرحلةُ أولى بركات ذلك الكتاب ؟!

من يدري يا جار بيت الله ... !!

منذ أقمتُ في المدينة المقدّسة ... وأنا أفكرُ في أن يكون الجزء الثاني من الكتاب هو أولَ عملٍ وأجلّ هدفٍ ـ أقومُ به في مكة المكرمة. قلتُ في نفسي وأنا أطوفُ طواف القدوم حول الكعبة المشرفة : لعل الله ـ جلّتْ حكمته ـ لم يأتِ بي إلى

هنا إلا من أجل أنْ أكتبَ هذه الدراسة الخاصة بالرسول - ﷺ. وما أجمل وما أجلَّ أنْ تكتبَ عن النبيِّ، وأنت تقيمُ حيثُ وُلد وعاش، ونزلَ عليه الوحيُ وأمره ربُّه بأن يُنذر عشريته الأقربين بعدَ أن جاءه الأمرُ الإلهُى المبين :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ③ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ④ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ⑤ وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ⑥ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ [المدثر : ٧ - ١] .

وقد شاءتْ إرادةُ المولى - عزَّ وجل - أن تُكتبَ معظمُ فصولِ هذه الدراسة في شهريْن من الأشهر الحرم الأربعة (ذى القعدة وذى الحجة ١٤١٧) . وقد أديت خلال هذه الفترة مناسك الحجِّ - لأولِ مرة . كما كنتُ فى معظم أيام تأليف الكتاب صائمًا ، حتى لا أُشْغل بشيءٍ من مطالب الجسد والحياة ، وأنا أفكِّر فى أمور نورانية مقدسة . ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

❁❁❁

٣ - صعوبة الكتابة فى السيرة

أكمل الرسولُ دعوته - وأتم رسالته ، ووحد أُمته ، وأرسى دعائم دولته - ثم انتقل إلى الرفيقِ الأعلي ، الذى يختصُّ برحمته من يشاء ، ويؤتى كلَّ ذى فضل فضله : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ㉗ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [الفجر : ٢٧] .

بعد أن تأسست الدولةُ الإسلامية فى المدينة المنورة ، وجمعَ المسلمون القرآنَ الكريم بين دفّتيْ مُصحفٍ واحد ، ثم بدءوا يدوّنون السنةَ الشريفة باعتبارها الأصل الثانى من أصول التشريع. بعد ذلك بقليلٍ أخذ علماءُ الإسلام يهتمون بسيرة الرسول (ﷺ) ، لأن سيرته العطرة تفسِّر كثيرًا من قضايا الدين ومسائل الشريعة. هذا بالإضافة إلى أنَّ حياته المحتشدة بجلائل الأقوال وعظائم الأعمال ، تعدُّ نبراسًا لأبناء أمته ، وقدوةً لأنصار سنته :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ

وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

« ولولا أن حياةَ الرسول (ﷺ) كانت عظيمةً كاملة ، ونفسُه كانت أحبَّ النفوس إليهم ، وأعظمها فى أعين أصحابه وأحبابه ، لما فدوْه بأنفسهم . ومن أجل ذلك كانتْ حياةُ النبى (ﷺ) أسوةً لأصحابه ، ومحبته ذريعةً لمحبة الله ، فقال عزَّ وجل ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

إن الولعَ الشديدَ بالرسول (ﷺ) والمحبةَ الصادقة له ـ قد حمل الصحابةَ والتابعين وتابعي التابعين ، ثم المحدِّثين ومؤلِّفى السِّير والمؤرخين ـ على أن يُعنوا عنايةً كبرى بجمعِ كل ما يتعلَّقْ بالرسول (ﷺ) من قولٍ وعمل ، وأمرٍ ونهى ، وسلوك وخُلق ، وأنْ يبلِّغوا ذلك للذين يأتون بعدهم ، فأحسنوا كلَّ الإحسان ، ووفَّوا هذه المهمة حقها ، ليعمل بهذه الهداية كل مسلم ما استطاع . ولولا أن حياةَ محمد (ﷺ) كانْت كاملةً وعظيمةً فى عيون أصحابه ، لما اعتبروا اتباعه شرفا لهم وكمالا ، ولما عدوا الاقتداء به ملاك السعادة وأصلَ الهناء وقوامَ الخير .

فالإسلام قرر أن حياة محمد (ﷺ) هى المثُل الكامل لجميع المسلمين ، وينبغى بيانُ جميع نواحيها وشُعبها ووجوهها للناس كافة . وقد حقق المسلمون ذلك وحرصوا على تعُّرف ذلك وبيانه ، فلم تخفَ منه خافيةً ، ولم تُفقدْ حلقة واحدة من سلسلة الحياة النبوية المباركة . فجميعُ أحواله وشئونه مسطورةٌ فى كتب التاريخ. ومن ذلك يستدل على أنها كانت حياةً كاملةً طاهرة بريئة من كل نقص . ولا تكون حياة بشرٍ أسوةً للناس إلا إذا كانت واضحة ناصعة معلومة من كل وجوهها ونواحيها ، جامعةً لجميع المحامد ، شاملةً لأكرم الأخلاق وأحسن التعاليم» [1] .

❁ ❁ ❁

(١) السيد سليمان الندوى : الرسالة المحمدية ، ترجمة محمد ناظم الندوى ـ ط دار الفتح ـ دمشق ـ ١٤١٠ هـ ، ص ١٢٦ .

٤ ـ منهج دينـي ... أدبـي

أما عن المنهج الذى التزمت به ـ بتوفيق الله ـ تعالى ـ وفضلٍ منه ـ فهو المنهج الذى اعتمدت عليه فى الجزء الأول ، وهو المنهج القرآنى . فقد أخذت من الذكر الحكيم كلَّ ما يتّصل بقصص أولى العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام سواء من حيث الأحداث ، أو المواقف ، أو المغازى ـ الخاصة بكل منهم . ومن ثم فإن **الاعتمادَ على آيات القرآن الكريم كان سببَ التميُّز وسرَّ التفرد** ، كما أن النهج القرآنى قد عصمَ ما كتبناه عن بعض الحكايات والنوادر المبثوثة فى كثيرٍ من كتب قصص القرآن ـ بل فى بعض كتب التفسير نفسها ؛ من هنا كانت الدراسة التى نقدمها أقربَ إلى روح النصِّ القرآنى ، لأنه كان المصدرَ الأول والمرشدَ الأفضل .

وهذا المنهج الدينىّ لم يخل من قدرٍ من التأثر بمناهج دراسة الأدب . فالإنسانُ كلٌّ متكامل . وربّما ساعدنا هذا المنهج الدينى الأدبى على أن نقول مالم يقله غيرنا . ﴿ **قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** ﴾ [البقرة : ٣٢] .

وهذا المنهجُ ـ كان بفضل الله ـ سهلَ التناول فى الجزء الأول : لأن نوحًا ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ قد ورد ذكره فى (١٢٩) آية ، وإبراهيم ـ عليه السلام ـ فى (٢٠٠) آية ، وموسى ـ عليه السلام ـ (٤٦٢) آية ، وعيسى ـ عليه السلام ـ فى (٨٧) آية.[1] بالإضافة إلى أن الكتب الخاصة بقصص الأنبياء محدودة .. ومقدورٌ على قراءة معظمها ... أو أهمِّها ـ إلى حد ما .

بيد أن الأمر السهل اليسير ـ فى الجزء الأول ـ صار صعبا عسيرا فى الجزء الثانى ، **فالبحثُ فى سيرة الرسول (ﷺ) من خلالِ الفرقان بحثٌ يمتُّ بسبب إلى القرآن الكريم كله** ، لأنه هو الذى أنزل عليه وحيه ، وهو أولُ من قرأه ورتّله ترتيلاً.

﴿ **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ** ﴾ [الشورى: ٥٢ ، ٥٣] .

---

(١) راجع الجزء الأول : ص ١٧٢ .

ومع أن الذكرَ الحكيم هو أوفى وأصدقُ مصدرٍ لدراسة حياة النبىّ الأمى والرسول العربى محمد بن عبد الله ، عليه من ربه أفضلُ الصلاة وأزكى السلام عدد خلقه ورِضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته ، فإن ذلك لا ينفى أنّ هناك عشراتٍ من كتب السيرة النبوية ، وتفسير القرآنِ الكريم ، لابدَّ من الرجوعِ إليها ، والاستئناسِ بما جاء فيها . خاصة وأنّى كنتُ كلما انتهيتُ من قراءة كتاب ، بحثتُ عن آخر . ومن ثمّ أخذتُ أتلو القرآن الكريم .. وأقرأ بعض آمهات كتب التفسير والسيرة ... وأستعينُ بالمشورة الصادقة والمناقشة الهادفة مع بعض الزملاء والأصدقاء .

ورغم تنامى أُطر المعرفة ، واتساع مجالات القراءة ، ورحابة بعض جلسات المناقشة ـ رغم ذلك كله ـ مرّ علىّ حين من الدهر، أحسستُ فيه أنى لن أقدر على السباحة فى هذا البحر الزاخر ، واكتشاف أنوار ذلك البدر الزاهر .

أخيراً عزمت بعد أن نويت ، وعلى الله ـ سبحانه ـ توكلت ، وبه ـ جلّ شأنُه ـ استعنت ، مقراً ـ بتواضعي ـ فيما كتبت ، وآملاً أن أكونَ مُوفقا فيما قدّمت .. ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ....﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

❁ ❁ ❁

٥ ـ خطـة البحث

خرجتْ هذه الدراسة الدينية / الأدبية ـ بحمد الله وتوفيقه ـ فى مقدمةٍ وخمسة مباحثٍ وخاتمة .

المقدمة : توضح ظروف تأليف الكتاب وعلاقته بالجزء الأول ، ومنهج البحث والهدف من الدراسة ، وهو هدف إنسانى نبيل ، يحرص على هداية الناس أجمعين إلى الصراط المستقيم الذى دعا إليه محمد (ﷺ) ، لكى يخرج الناس من ظلمات الجهل إلى نور اليقين .

المبحثُ الأول
من المولْد ... إلى الوَحْى

يدرس إطارَ الواقع الدينى واللغوى الذى بعث فيه المصطفى (ﷺ) ، ويوضح أن

يدرس إطارَ الواقع الدينى واللغوى الذى بُعث فيه المصطفي (ﷺ) ، ويوضح أن ثمة إرهاصاتٍ عدة قد بشرت بنبّوة محمد ورسالته ، فهو دعوة إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام ، وبشارة عيسى ابن مريم ، عليه وعلى أمه الطاهرة السلام . كما أن كل الكتب السماوية قد بشرت بالرسول (ﷺ) ورسالته .

كما يوضح هذ المبحث كيف أدب الله – سبحانه وتعالى – رسوله فأحسنَ تأديبه ، وطهرّ روحَه وقلبه بما ابتلاه به من فقد الأبِ والأم والجد وضيق ذات اليد ، لكنه رغم كل ما اختبر به .. صبر وشكر .. وفكر وقدر ، حتى صار (محمدا) عند الله ... وعند خلق الله ، كما كان الصادقَ الأمينَ عند الله وعند الناس أجمعين .

المبحث الثانى

الأعلام ... والصفات

هذا مبحثٌ – لم يُوله كثيرٌ ممن كتبوا عن سيرة الرسول (ﷺ) العناية الجديرة به ، ذلك أن هناك مجموعةً من أسماء الأعلام والصفات ذكرتْ – فى آياتِ الذكر الحكيم – للرسولِ (ﷺ) ، ووصفه بها رب العزة سبحانه وتعالى ، وهى تعبر عما تتصفُ به الذاتُ المحمدية من صفات كريمة وشمائل حميدة ، لم توجد فى غيره من أولى العزم من الرسل .

المبحث الثالث

من البُعثة إلى الهجْرة

مبحثٌ يوضح مدى الجهاد والعناء اللَذين تحملهما الرسولُ (ﷺ) والذين آمنوا معه خلال العهد المكى طوالَ ثلاث عَشرة سنة . وكيف استطاع الرسول (ﷺ) أن ينشر رسالة الإسلام – رغم الكفر والضلال والعذاب والجهاد ، الذى لقيه الرسول – ومن معه – فى أمّ القُرى وما حولها ؛ ومن ثم كان الخلاص والمخرج فى الهجرة إلى يثرب – مدينة الرسول ... أو المدينة المنورة – كما أطلق عليها بعد ذلك .

المبحث الرابع

من المدينة ... إلى العالم

يكشفُ هذا المبحث عن بعض مجالاتِ أخرى من مجالات عبقرية محمد

مثل عبقرية الرسول العظيم (ﷺ) باعتباره قائدا حربيا .. ومؤسسا لدولة خير أمة ، أخرجت للناس ، وكيف استطاع أن ينشر رسالته خارج بلاده ، حتى يدخل الناس فى الدين كافةً ، لأن الإسلامَ دين ربّ العالمين موجه إلى الخلق أجمعين .

المبحثُ الخامسُ

القرآنُ ... الرسالةُ المعجزة

يوضح هذا المبحث عدةَ حقائقَ منها : الدين أهم مُشكّلٍ للضمير الإنسانى ـ الأسماء التى تطلقُ على كتابِ الله من آيات القرآن الكريم : باعتباره المنهجَ الذى يشكلِ منظور هذه الدراسة ـ ترتيبُ سور القرآن فى العهدين : المكى والمدنى ـ طريقةُ جمع القرآن وتدوينه وقراءته ـ أهمُّ مظاهر إعجاز القرآن الكريم .

خاتمة بعنوان : الإسلامُ .. دين السلام

تتكون من عدة قضايا مُهمة ، تتصلُ بالإسلام والمسلمين فى الحاضر والمستقبل. محمد (ﷺ) خاتم الأنبياء والمرسلين ، والإسلام هو الرسالةُ الجامعة التى ارتضاها الله لكل البشر ، والمسلمون هم المنوط بهم شرفُ الحفاظ على الدعوة ، وحماية الإسلام من كل المتربصين به ، حتى يكونوا جديرين بوصف الله ـ سبحانه وتعالى ـ : ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

وتلك القضايا هى :

* الإسلامُ دين الفطرة .
* الإسلامُ دين السلام .
* العروةُ الوثقى .. ومسئولية المسلمين العرب إزاءَ المسلمين غير العرب .. والدورُ الذى ينبغى أن يقوموا به ابتغاءَ وجه الله سبحانه وتعالى ، حتى يحافظوا على وجودهم ، ويتمسكوا برسالة ربهم ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا** ﴾ [النساء : ٦٩] .

✿ ✿ ✿

٦ ـ هدف .. وأمل

هذه الدراسة ـ كما ذكرتُ سالفًا ـ دراسةٌ دينية أدبية ، لذلك فالغايةُ منها ليستْ دينية فحسب ، فالمسلمون عامرةٌ قلوبُهم بحبِّ الرسول (ﷺ) ، ويحملون له أسمى آيات التكريم والإجلال . فمنْ أطاع الرسول فقد أطاعَ الله ، ومن أحبَّ الرسول فقدأ حبَّ الله . الصورةُ إذن كاملةٌ فى قلوب المسلمين ، والسيرة عاطرةٌ تهدى أفئدةَ المؤمنين ، **لكن أتباعَ محمد (ﷺ) فى حاجة مُطّردة إلى دراسات متعددة ، تجددُ لهم سردَ المغازى الجليلة والدلالات النبيلة ، التى تشرح بعض ما يتصلُ بسيرة الرسول ومعالم رسالته بأسلوب يتلاءمُ وروحَ العصر الذى تُكتبُ فيه .**

كما أن الهدفَ من هذه الدراسة ـ أيضا ـ هدفٌ إنسانى ، يأملُ أنْ يهدى ضمائرَ العُصاة ، ويرشدَ قلوبَ الحيارى إلى الصراط المستقيم الذى يلتمسُونه وما وجدوه ، وإلى الضوء الذى يبحثون عنه ، وهم قريبون منه .

الهدى والنور .. رسالةُ محمد (ﷺ) وسيرته . لكن معظم الضالين يستنكفون أن يتّبعوا السبيل الذى سار فيه محمد (ﷺ) وعبّده ، لكل من جاء بعده . ولم يعلموا مدى حب الله ورسوله للبشر ، وأن الله ـ تعالى ـ قبِل رأفة بعباده ورحمة بخلقه :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

لقد نسى كثيرٌ من الذين كفروا أن الله أقربُ إليهم من حبْلِ الوريد ، وأن من أسمائه وصفاته الحسْنى « المجيب » ، الذى يجيب دعوة الداعين وسؤال السائلين. يقولُ سبحانه مبشرًا عباده : **﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾** [غافر : ٦٠] .

إن كثيرًا من الذين يُلحدون فى آيات الله ، ويصدون عن دعوة محمد (ﷺ) ، ويقف الإسلام فى حلوقهم غُصّةً . لا لشىء ـ إلا لأنّ محمدًا (ﷺ) رسول قرشىٌّ ، والقرآنُ نُزّل بلسان عربىّ ، نسىَ هؤلاءُ العتاةُ العصاةُ أن كلَّ شىء بأمر الله ، وأنه أعلم بمن يكون جديرًا بحمْلِ رسالته ، وبأى لسان يرسلها إلى خلقه .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن

شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ (٤٣) خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٤٤) اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤١ ـ ٤٦] .

إن هذا الكتابَ يحملُ رسالة حبّ ومودة ، تتعانقُ فى ظلها الرسالاتُ الدينية، وتتكاتفُ في إطارها القوى البشرية ، وتبتعدُ عن التعصُّب والحميَّة .

﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ﴾ [الأنعام : ١٢٥] .

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ [آل عمران : ١٩] .. فاللهمَّ لطفَك الذى وعدتَ به عبادَك ، ونصرَكَ الذى ضمنْتَ لدعوة رسولك . ياربىّ اهد الناسَ أجمعين، لعبادتك وطاعتك ، حتى تدخلَ من تشاء في رحمتك . يا أيها الناس : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٢ ـ ١٣٣] .

إن الرغبة الصادقة فى نشر الإسلام هى ـ فى جوهرها ـ أملٌ مرتقبٌ فى أن يعم السلام ، ويسودَ الوئام ، بين كل الأنام .

اللهم .. إنى أسألك من خير ما سألك منه رسولنا محمد (ﷺ) ، وأعوذُ بك من شرّ ما استعاذك منه . اللهم أظلنى تحت ظلّ عرشك ، واسْقنى ـ يوم تبعث عبادك ـ من حوض نبيك. وآخر دعوانا أنْ الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين .. وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود :٨٨] .

المستعين بالله أبو محمَّد

طه بن عمران وادى

أستاذ الأدب العربى

بجامعتى القاهرة وأم القرى

مكة المكرمة ـ الجمعة :

٢٥ من ذى الحجة ١٤١٧

٢ من مايو ١٩٩٧

المَبْحَثُ الأَوَّلُ

مِنَ المَوْلِدِ إِلى الوَحْي

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ ﴾

[الضحى : ٦ ـ ٨]

من المولد .. إلى الوحي

في إطار الواقع الديني واللغوى

بعد مرور ما يقرب من ستة قرون على مولد السيد المسيح ـ عيسى ابن مريم .. عليهما السلام ـ كانت هناك مجموعة من القبائل العربية ، تعيش في وادى الحجاز وصحراء نجد عيشةً صعبة متنافرة فى إطار بيئة طبيعية قاسية ، بعيدة عن التأثيرات الحضارية الموجودة فى بعض البلاد المجاورة مثل : اليمن والعراق والشام ومصر ، ورافضةً لبعض ما بقى من تعاليم الديانتين اليهودية والنصرانية ، التى جاءت إليها على أيدى جماعات قليلة وافدة ... لم يكن لها وزن اجتماعى ، وبالتالى لم يكن لها تأثير روحىٌ أو معنوىٌ .

وكانت كلُّ قبيلة من هذه القبائل تكاد تعدُّ دويلةً مصغرةً ، تبحثُ عن الماء والكلأ والأمن أنّى وجدت إلى ذلك سبيلا ، لذا كانت حياتها تعتمد على التنقل والترحال . ولم تكن ثمة حياة اجتماعية قائمة على الاستقرار والبقاء إلا فى بعض القرى مثل : مكة والطائف ويثرب. كما لم تكد تقاليد الحياة وأساليب الفكر والثقافة تختلف أو تتباين ـ بدرجة ما ـ لدى القبائل المتنقلة أو القرى المستقرة .

وليست غايتنا ـ فى هذه الدراسة ـ الحديثَ عن طبيعة الحياة فى هذا العصر

---

(١) راجع فى هذا على سبيل المثال :
ـ عبد الملك بن هشام : سيرة سيدنا محمد رسول الله .
ـ محمد بن جرير الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ـ مج ١ ، ج ٢ .
ـ فيليب حتى : تاريخ العرب قبل الإسلام .
ـ أحمد أمين : فجر الإسلام .
ـ شوقى ضيف : العصر الجاهلى .
ـ محمد حسين هيكل : حياة محمد .
ـ محمد عزة دروزة : سيرة الرسول (جزءان) .
ـ السيد سليمان الندوى : الرسالة المحمدية (ترجمة محمد الندوى) .
ـ محمد الخضرى : نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين .
ـ جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام .

- Sayed Ameer Aly : The Spirit Of Islam .
- Sir William Muir : Life Of Mohammed .

الجاهلى .. وإنما نودُّ أن نشير إلى حقيقتَيْن مهمَّتَيْن كان لهما تأثيرٌ بالغ بالنسبة للحديث عن الرسول والرسالة ، والتمهيد للكلام عن الإسلام والقرآن : الأولى خاصة بعبادة العرب قبل الإسلام ، والثانية تتصل بمكانة اللغة العربية فى العصر الجاهلى .

✿✿✿

١ ـ ديانة العرب فى العصر الجاهلى

ثمةَ خلافاتٌ واسعة فى سرِّ تسمية الفترة التاريخية قبل الإسلام بالعصر الجاهلى رغم ندرة وجود هذه الكلمة فى الشعر الجاهلى . يقول أستاذنا د. شوقى ضيف : «ينبغى أن نعْرفَ أن كلمةَ الجاهلية التى أطلقت على هذا العصر ، ليست مشتقة من الجهل الذى هو ضدُّ العلم ونقيضُه ، إنما هى مشتقةٌ من الجهل بمعنى السَّفه والغضب والنَّزق ، فهى تقابل كلمة الإسلام التى تدل على الخضوع والطاعة لله ـ عزَّ وجل ، وما يطوى فيها من سلوك خلقى كريم . ودارتْ الكلمةُ فى الذكر الحكيم والحديث النبوى والشعر الجاهلى بهذا المعنى من الحمِّية والطيْش والغضب، ففى سورة البقرة ﴿ **قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ** ﴾ [البقرة : ٦٧] وفى سورة الأعراف :﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴾ [الأعراف : ١٩٩] وفى سورة الفرقان : ﴿ **وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا**﴾ [الفرقان :٦٣]. وفى الحديث النبوى أن الرسول (ﷺ) قال لأبى ذر ، وقد عيَّر رجلاً بأمه : « إنك امرؤ فيك جاهلية ». وفى معلقة عمرو بن كلثوم التغلبى :

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا ... فنجهلَ فوقَ جَهْلِ الجاهلينا

وواضحٌ من هذه النصوص جميعا أن الكلمة استخدِمتْ من قديم للدلالة على السفه والطيْش والحُمق. وقد أخذتْ تُطلقُ على العصر القريب من الإسلام ، أو بعبارة أدقَّ على العصر السابق له مباشرةً ، وكل ما كان فيه من وثنية وأخلاق

قوامُها الحمية والأخذُ بالثأر واقتراف ما حرمه الديِّن الحنيف من مُوبقاتٍ. » (١)

الذى لا ريبَ فيه أن تسميه هذا العصر بالجاهلى ـ فى تقديرنا ـ قد استقرت لدى كثير من المؤرخين والكتّاب بسبب من صلتها الوثيقة بديانة العرب الوثنية قبل الإسلام ، وانصرافهم عن عبادة الخالق إلى عبادة الأصنام ، التى ورد الحديثُ عنها كثيرا فى القرآن الكريم ـ مصدرنا الأول فى هذه الدراسة ـ ومن أمثلة ذلك :

١ ـ ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم : ٨١ ، ٨٢] .

٢ ـ ﴿ أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر : ٣] .

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ ﴾ [النجم : ١٩ ـ ٢٣] .

الطبرى .. وابن كثير : يذكران فى معرض تفسير هذه الآيات الكريمة ما يلى :

اللات : صخرة بيضاء منقوشة ، وعليها بيت بالطائف له أستار وسدنة وحوله فناء .

كما يرى الطبرى أنها اسم مؤنث مشتق من اسم الله [أي الله مذكر ، واللات مؤنث] كما اشتقتْ العزّى ... من العزيز . ومعنى هذا أنهم كانوا يزعمون أن اللات والعزى ومناة [فى قراءة أخرى : منات] بنات الله .

وثمة معلوماتٌ كثيرة طريفةٌ حول هذه الأصنام الثلاثة فى تفسير الطبرى (ج ١١ ، ص ٥١٩) وابن كثير (ج٤ ، ص ٢٧١) فيلرجع إليها من أراد الاستزادة.

❁ ❁ ❁

عن هذه الوثنية الجاهلية يذكرُ أحدُ الباحثين المعاصرين فى سيرة الرسول(ﷺ) :

« كانتْ للعرب فى عبادة الأوثان أفانين شتّى ، يصعُب على باحثٍ اليومَ أن

(١) د. شوقى ضيف : العصر الجاهلى ، دار المعارف ـ القاهرة، ص ٣٩ .

يُحيط بها . على أن ما وردَ من ذِكْرها فى القرآن ، وما تناقلتْها الرواياتُ عنها ... ينبىء عما كان لها قبل الإسلامَ من جليل المكانة ، وما كانتْ عليه من مختلف الصُّور ، ويدل على أنها كانَت تتفاوتُ فى درجات التقديس .

وقد كان لكل قبيلة صنمٌ تدينُ له بالعبادة . وكانت هذه المعبوداتُ الجاهلية تختلفُ ما بين الصَّنم والوثَن والنُّصُب :

فالصَّنمَ : ما كان على شكل الإنسانَ من معدنٍ أو خشب .

والوثَن : ما كان على شكله من حجرٍ .

أما النُّصُبُ : فصخرةٌ ليسْ لها صورةٌ معينة ، تجرى عليها قبيلةٌ من القبائل أوضاعَ العبادة ، لما تزعمه من أصلها السماوى ، وأنها كانتْ حجرًا بركانيا أو ما يشبهه .

على أن ما كُتبِ عن الأصنام لا يُشيرُ بالدقة إلى شىء من صور هذه الأصنام إلا ما قيل عنِ (هُبَل) من أنه كان من العقيق على صورة إنسان ، وأن ذراعه كسرت فأبدله القرشيون ذراعًا منِ ذهب [١] ، وهُبل كان كبير آلهة العرب ، وساكن الكعبة بمكة ، فكان الناس يحجون إليه من كل فجّ عميق .

ولم يكن العربُ ليكتفوا بهذه الأصنام الكبرى ، يقدمون إليها صلواتهم وقرابينهم ، بل كان أكثرهم [أظن المقصود .. أكثرهم ثراءً وغنى] يتخّذ له صنَمًا أوْ نصبًا فى بيته ، يطوفُ به حين خروجه وساعة أوْبته ، ويأخذه معه عند سفره ـ إذا أذن له هذا الصنمُ بالسفر. وهذه الأصنام جميعا ـ سواء منها ما كان بالكعبة أو حولْها ، أو كان فى مختلف جهات بلاد العرب وبين مختلف قبائلها ـ كانت تعتبر الوسيط بين عبادها وبين الإله الأكبر. وكان العرب لذلك يعتبرون عبادتهم إياها زلفى ، يتقربون بها إلى الله ، وإن كانوا قد نسوا عبادة الله، لعبادتهم هذه الأصنام . » [٢] .

ومن المعروف أن هناك أصناما كبرى عامة كانتْ موجودة حول الكعبة المشرّفة

(١) من الصعب تصديق أن هبل كان من العقيق ، وذراعه من الذهب ، للأسباب التالية :
أ ـ لم يكن العرب ـ آنذاك ـ من الثراء بحيث يصنعون أصنامهم من الأحجار الكريمة والمعادن النفيسة .
ب ـ لو صح هذا ... فأين ذهبت هذه الكنوز حين حطم الرسول والمسلمون الأصنام بعد فتح مكة . ؟!
(٢) د. محمد حسين هيكل : حياة محمد .
ط دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٧٥ ، ص ٩٩ ـ ١٠٠ .

.. أو فى بعض القرى المستقرة مثل الطائف ويثرب أو عند بعض القبائل الكبرى مثل كندة وعبس وذبيان. ومن أشهر هذه الأصنام : هبل ـ اللات ـ العُزّى ـ (الطائف)ـ مناة [1] .

وكان هناك بعض الأصنام المحلية الأقل شهرة .. الخاصة بكل قبيلة ـ من ذلك صنم (داور) الذى يشير إليه أمرؤ القيس بن حجر الكندى فى معلقته قائلا :

فعن لنا سربٌ كأن نعاجَه عذاري (داور) في ملاءٍ مذيل

[امرأو القيس ـ فى هذا البيت من معلقته ـ يشبه جماعة (سرب) النعاج التى تراءت له ولأصحابه في أثناء الصّيد بفتيات عذارى لبسن ملابس طويلة (مذيلة)، كأنما يطفن بصنم «داور»] .

من تلك الأصنام الأقل شهرة : رضا ـ تيم ـ ذو الخلصة ـ ذو الشرى ـ داورـ إساف ـ نائلة ـ ود ـ سواع ـ يغوث ـ يعوق ـ نسر . وقد ورد ذكر بعضها في الآية الكريمة : ﴿ **وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا** ﴾ [نوح : ٢٣] .

❁ ❁ ❁

وكانت عبادة الأصنام منتشرة بين القبائل العربية بدرجة واسعة، ففى أخبارهم أن « العزى » كانت شجرة لغطفان وهى شجرة بوادى نخلة شرقى مكة. وكانت عبادة اللات أو الشمس شائعةً بين العرب الجنوبيين وفى الحجاز ، ومعبدها فى الطائف ، ويقال إنه كان صخرةً مربّعة بيضاءَ بَنتْ عليها ثقيفُ بيتًا .. و«مناة» : صخرة منصوبة على ساحل البحر بين المدينة ومكة، وربما كان فى اسمها ما يدل علي أنها ترمز إلى إله الموت ، فهى إلهة القضاء والقدر ، وكانتْ مُعَظّمةً عند هُذيل وخزاعة والعرب جميعا خاصة الأوس والخزرج . و«وَدّ» (القمر): صنم بدومة الجندل، وهو يؤلِّف مع اللات والعزّى (الزهرة) ـ ثالوث الأب والأم والابن : (ود = القمر + اللات = الشمس + العزّى = نجمة الزهرة) .

أما «سواع» : فكان صنم هُذيل وكِنانة ، وهو حجر كانوا يعبدونه هم وعشائر

(١) يراجع فى هذا :
ـ ابن الكلبى : الأصنام ـ ط دار الكتب المصرية
ـ أحمد أمين فجر الإسلام ـ ط النهضة المصرية

كثيرة من مُضر - وربما كان في اسمه ما يدل على أنه إله الشرّ والهلاك. و«يغوث» : صنم مَذْحِج وعشائر من مراد وهوازن، و«يعوق» : صنم همدان وخولان وما والهما من القبائل، و«نسر» معبود حمير وقد انتشرت عبادته في الشمال. ويقال إن: «ودا» كان على صورة رجل ، و«سواع» على صورة امرأة ، و«يغوث» على صورة أسد، و«يعوق» على صورة فرس ، و«نسر» على صورة طير.

من الأصنام المشهورة أيضا : إساف ونائلة .. ورضا وتيم وشمس لتميم ، وذو الخلصة : وهو صنم خثْعَم وبَجيلةَ وأزْد السراة، وكان موضعه بتبالة وله بيت يحجون إليه، وذو الشّرى : كان له معبدٌ ضخم في سلع (بطْرا) (١) .

وكانوا يتخذون عند هياكلِ الأصنام والأوثان أنصاباً من حجارة تراق عليها دماء الذبائح (٢) . وقد نهى القرآنُ عن ذلك كله فيما بعد : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [المائدة : ٩٠] .

تلك أهم الأصنام التى وعتها ذاكرة المؤرخين ... ونظن ظنا أنه كانت لدى بعض تلك القبائل العربية أصنام أُخرى ، يؤكد ذلك أنه كان فى الكعبة حين فتحها رسول الله (ﷺ) فى السنة العاشرة للهجرة **ثلاثمائة وستون صنما** ، لأن وجود صنّم ما لدى قبيلة ، لا ينفي وجود نسخة أخرى منهّ حولَ الكعبة ، التى كانت تمثّل المركزَ الرئيسى لكل المعبودات الوثنية .

وقد أفضْنا - عامدين - فى الحديث عن وثنية القبائلِ العربية - قبيل الإسلام - لأمرين :

الأول : توضيح مدى الضلالِ والكفر والإثم والجهل وغير ذلك من المفاسد التى كان عليها القوم فى هذه الفترة ، وكيف انحرفوا عن عبادة الخالق العظيم إلى عبادة هذه الأصنام، التى لا تبصر ولا تسمع ، ولا تضر ولا تنفع .

الثانى : بيان القدرة الروحية الهائلة التى مكنت الرسول (ﷺ) من أن يقضى على هذه العبادات الوثنية كلها وهو فرد وحيد ، لم يكن يملك إلا قوة الإيمان

(١) انظر : د. شوقى ضيف : العصر الجاهلى، ص ٨٩ وما بعدها .
(٢) الصنم : تمثال من حجر أو معدن - الوثن : قطعة من الصخر أو الحجر - النصب : حجارة يذبحون عندها القرابين - الأزلام : القداح .

بالله رب العالمين، وكفى بالله هاديا ونصيرا .

ولم تكن عبادة الأصنام هى الرذيلة الوحيدة فى حياة عرب العصر الجاهلى ... وإنما هناك مثالب كثيرة ـ ليس هنا مجال حصرها [1] . وحول هذه المساوىء يشير أحمد شوقى ـ رحمه الله ـ فى « نهج البردة » :

أتيتَ والناسُ فوضى ، لا تمرُّ بهم   إلا على صنم قد هامَ في صنم
والأرضُ مملوءةٌ جوْرا مُسخَّرة   لكل طاغيةٍ في الخلق مُحتكم
والخلقُ يفتكُ أقواهم بأضعفهم   كالليثِ بالبهْم ، أوْ كالحوتِ بالبلمَ [2]

يعنينا من الحديث عن وثنية عرب شبه الجزيرة أمران :

الأول : أن هذه البلاد قد نسيتْ ملةَ إبراهيم وإسماعيل وزاغت قلوبُهم عن طريق الحق والهدى ، وأصبحوا فى حاجة إلى من يعيدُهم إلى الحنيفية السمحة، ويردهم إلى عبادة الله الخالق بعد أن بعدوا عن الحق، واتخذوا الأصنام زلفى ـ كما يدّعون ـ ونسوْا وأن الدين ينبغى أن يكون كله لله وحده . ﴿ **ألا للَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ . .** ﴾ [الزمر : ٣] .

الثانى : أن وجودَ الأصنام الكبرى ـ وما يتصل بها من أوثان وأنصاب حول الكعبة المشرفة ـ كان بمثابة تهيئة وتمهيد ، لكى يستعيد المسجد الحرام دوره الكبير ، الذى ثبته الإسلام فيما بعد ، وتصبح مكة المكرمة العاصمة المقدسة للدين الجديد، الذى جاء به محمد ﷺ .

دينٌ يُشيَّدُ آيةً في آيةٍ   لبناته السوراتُ والأضواءُ
الحقُّ فيه هو الأساسُ وكيفَ لا   واللهُ جَلَّ جلالُه البنَّاءُ [3]

❁ ❁ ❁

(١) تروى الأخبار أن بعض بيوت الأصنام كانت تلحق بها بيوت بغاء . كما يقال إن بيوت البغايا كانت تعلق عليها رايات حمراء .
(٢) الشوقيات ـ ج ١ ، ص ١٨١ ـ البهم : البهائم ، الأنعام ـ البلم : السمك الصغير .
(٣) أحمد شوقى : الشوقيات ـ ج ١ ص ٢٦ .

٢ ـ اللغة العربية

حين نقرأ الشعر الجاهلي ـ وهو يمثل أهم نصّ لغوى مُكتمل ، وصلنا قبل نزول القرآن الكريم ـ نجد ظاهرة لغوية جديرةً بالذكر والتسجيل ، هى أن هذا الشعر مكتوب بلغةٍ واحدة ، تستوى فى ذلك أشعارُ القبائل كلها ـ رغم اختلاف مواطنهم الجغرافية، هذه اللغة المسيطرة .. هى **لغةُ قبيلة قُريْش** التى تعودُ بعض فروعها إلى **قصّى** بن كلاب ، وهو الجد الخامس للرسول (ﷺ) .. حوالى سنة ٤٠٠ ميلادية . وكانتْ هذه القبيلة وأعوانُها ـ من القبائل التى سكنت مكة ـ تقومُ برعاية البيت العتيق وخدمة الحجاج .. وحماية التّجار والوافدين فى مواسم الحج والتجارة .

يصعبُ ـ فى هذه المقدمة المختصرة ـ تحديدُ الأسباب التى أدت إلى سيطرة لغة قريشٍ على كل القبائل العربية، فهل كان ذلك لأسباب دينية مثلِ وجود الكعبة والبيت العتيق؟ .. أم لأسبابٍ اقتصادية حيث كانتْ مكةُ مركزَ التجارة بين الشمال والجنوب فى الصيف والشتاء ـ كما تشير إلى ذلك سورة قريش [١] ..

أم لأسباب لغوية محْضة ، حيث إن لغةَ قريش تعد أنقَى اللهجات العربية وأكثرها قدرةً على التعبير ؟!

تلك قاعدةٌ عامة : **الأكملُ والأجملُ هو الأكثرُ سيطرةً وسيادة!** معنى هذا أن لهجة قريش أفصحُ اللهجات العربية . وقد افتخر النبى بانتمائه إليها قائلا : «أنا أفصحُ العرب بيْد أنّى من قُريش» ، وفى حديث آخر يقول لأصحابه : « أنا أعْرُبكم ، أنا قرشىٌّ ، واسترضِعتُ فى بنى سعد بن بكر » .

توحيد اللغة العربية .. وسيطرةُ لهجة قريش كان إرهاصا بتوحيد لُغة القبائل العربية، لأن وحدة اللُغة تعنى وحدة الفكر وتقارب الأعراف والتقاليد ، فاللغة تعد أقوى عوامل الترابط ، وأنصع مظاهر التوحد ، لأن النطق تعبير عن فكر ومنطق ، وإلى هذا يشير الشاعر :

(١) من المعروف أن لقريش سورة توجد باسمها فى القرآن الكريم ، وهى سورة مكية ، تقع فى أربع آيات : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ① إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ② فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ③ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ④ ﴾ .

إن الكلامَ لفي الفؤاد وإنما   جُعلَ اللسانُ على الفؤادِ دليلاً [1]

توحيدُ اللغة ـ إذْن ـ كان تمهيداً لنزول القرآن الكريم بلسانٍ عربيٍّ مبين ، يفهمه كل العرب الذين أنزل إليهم خاصة ، وإلى الناس كافة ، ذلك ما يشير إليه القرآن الكريم فى أكثر من موضع يقول عز وجل :

١ ـ ﴿ **حمٓ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ [الزخرف : ١ ـ ٣] .

٢ ـ ﴿ **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا** ﴾ [الشورى:٧][2] .

٣ ـ ﴿ **فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا** ﴾ [مريم : ٩٧][3] .

٤ ـ ﴿ **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ** ﴾ [الشعراء : ١٩٣ ـ ١٩٥] .

هذه الآيات الكريمة وغيرُها تؤكدُ أن توحيد اللهجات العربية فى لهجة واحدة هى لهجة قريش ، كان لحكمة قدرها الله ـ سبحانه ـ حتى تكون لغة الذكر الحكيم .

وهذا الأمرُ كان تمهيداً لتوحيد العربِ حولِ لغةٍ واحدة ، اختارها الخالقُ وشرّفَها ، لتكون لغة كتابه ... اللغة التى بها يُعبدُ ويحمدُ .. !! وفى هذا يقول ربُّ العزة مؤكدا صلة الرسالات السماوية بلغات أقوامها :

﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ** ﴾ [إبراهيم : ٤] .

إنَّ توحيدَ لغة العرب كان لحكمة لا يعلمها إلا أحكمُ الحاكمين ، ولعل منها أنْ تكونَ لغة الذكر الحكيم .. الذى هو ﴿ **تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ﴾ [فصلت : ٢-٣] .

ننتهى من الحديث عن توحيد اللهجات العربية فى لهجة واحدة .. هى لهجة قريش إلى ذكر رأى أستاذنا د. شوقى ضيف الذى نتفق معه إذْ يقول :

« إن هناك أسباب دينية واقتصادية أعدت لهجةَ مكة لتسود اللهجات القبلية فى

(١) الفؤاد : العقل ـ دليل : شاهد وبرهان .
(٢) أم القرى : مكة المكرمة . كناية عن القدم كما نقول : مصر أم الدنيا ، أى أقدم بلاد الدنيا .
(٣) لدا : شديدى الخصومة بالباطل .

الجاهلية ، وقد تداخلتْ فيها أسبابٌ سياسية ، فإن القبائل العربية كانتْ ترى تحت أعينها هجومَ الدول المجاورة من الفرس والروم والأحباش على أطرافها ، كما كانت ترى هجوم الديانتيْن النصرانية واليهودية على دينها الوثنى ، فتجمعت قلوبها حول مكة ، وهوت أفئدتها إليها ، وبذلك كله تهيأ للهجة القرشية أن يعلو سلطانها فى الجاهلية اللهجات القبلية المختلفة ، وأن تصبح هى اللغة الأدبية التى يصوغون فيها أدعيتهم الدينية وأفكارهم وأحاسيسهم . فنحن لا نعدو الواقع إذا قلنا إنّ لهجة قريش هى الفصحى ، التى عمرت وسادت فى الجاهلية ـ لا فى الحجاز ونجد فحسب ، بل فى القبائل العربية كلها ... » (١) .

❁ ❁ ❁

(١) د . شوقى ضيف : العصر الجاهلى ، ص ١٣٣

دعوة إبراهيم ... وبشارة عيسى

يقول الرسول العظيم (ﷺ) : « أنا دعوةُ أبي إبراهيم ، وبشارةُ أخي عيسى ... » معنى ذلك أن خير الخلق كلهم ، قد بعثه الله بالحق نذيرا وبشيرا استجابةً لدعوة إبراهيم الخليل حين قال : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ ، ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ ، ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴾ [إبراهيم : ٣٥ ـ ٣٧ ـ ٤٠] .

وقد ورد دعاء إبراهيم صراحة في سورة البقرة : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٩] .

كما أن التوراة قد بشرتْ به أيضًا .. وبشَّرَ به السيدُ المسيح ، لكن الآيات الخاصة بذلك قد مُحيتْ من التوراة والإنجيل . لكن القرآن الكريم أشار إليها من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف : ٦] .

وقد نص القرآن الكريم على أن التوراة والإنجيل قد بشرا ببعثة الرسول ﷺ :
﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ ..... ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

ليستْ صحفُ إبراهيم .. والتوراة والإنجيل هي التي بشَّرتْ وحدها برسالة محمد.. وإنما كل الكتب السماوية السابقة ، لأنها جميعا مُنزلة من مصدر إلهي واحد .. من لدن حكيم عليم ، لا يُبدَّلُ القولُ لديْه ، وما هو بظلاّمٍ للعبيد . وقد وردت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ ﴾ (١) [الشعراء : ١٩٦] .

وحين يسخر الكافرون بمحمد ﷺ ، ويدعون أنه شاعرٌ أو مجنون ، يرد عليهم

(١) الزبر : جمع زابور أي كتاب ـ زبر الأولين : كُتب الأنبياء السابقين .

رب العزة سبحانه : ﴿ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات : ٣٧].

معنى الآية الأخيرة أن الرسول (ﷺ) قد أرسله ربُّ العزة ـ سبحانه وتعالى ـ بالحق ، أى بالرسالة الخاتمة المهيْمنة على الرسالات السابقة كلها . فمجىء محمدٍ (ﷺ) تصديق للأنبياء المرسلين قبله الذين بشروا بقدومه (ﷺ) بعدهم .

فمَن هو ذلك الرسول الكريم خاتمُ الأنبياء والمرسلين وأفضل خلق الله ، الذى بعثه رب العزة استجابةً لدعوة إبراهيم الخليل ، وبشرت به التوراة والإنجيل .. وكل من سبقه من الأنبياء والمرسلين ؟!

فى مكة المكرمة ذلكم البلد الأمن .. على بعد خطواتٍ من البيت الحرام الذى جعله الله مثابة للناسِ وأمنا ، ولد المهدىُّ الهادى سنة ٥٧٠ ميلادية .. وهو العام ، الذى حاول فيه أهلُ الحبشة غزو مكة ، لذلك يسمى «عام الفيل» ، واسمه محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم [١] بن عبد مناف بن قصى بن كلاب ـ الذى ينتهى نسبه إلى قبيلة قريش . وقد اجتمعت لقصيٍ وأبنائه من بعده منذُ بداية القرن الخامس الميلادى الحجابةُ والسقايةُ والرفادةُ والندوةُ واللواءُ والقيادةُ .. «والحجابة هى سدانةُ البيت (الحرام) ، أى تولّى مفاتيحه ، والسقاية إسقاءُ الحجيج الماء العذبَ .. (أو نبيذ التمر) ، والرفادة إطعام الحجيج ، والندوة رياسة الاجتماع كل أيام العام .

واللواء رايةٌ يلوونها على رمح وينصبونها علامة للعسكر إذا توجهوا إلى عدو ، والقيادة إمارةُ الجيش إذا خرجوا إلى حرب .. » [٢] معنى ذلك أن قبيلةَ قريش كانت تقومُ بمعظم المناصب الدينية والسياسية . وهذا يدل على عراقةِ الأصل الذى

---

(١) راجع فى نسب الرسول (ﷺ) :
الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ١ ، ص ٥٠١ وما بعدها. وهاشم جد الرسول (ﷺ) كان اسمه (عمرو) .. «وإنما قيل له هاشم ، لأنه أول من هشم الثريد لقومه وأطعمه ، وفيه يقول الشاعر :

عمرو الذى هشم الثريد لقومه   ورجال مكة مستنون عجاف

وذكر أن قومه من قريش كانت أصابتهم لزبة وقحط ، فرحل إلى فلسطين فاشترى منها الدقيق ، فقدم به مكة ، فأمر به فخبز له ، ونحر جزورا ، ثم اتخذ لقومه مرقة ثريد بذلك الخبز .كما ذكر أن هاشما هو أول من سن الرحلتين لقريش رحلة الشتاء والصيف» .
انظر تاريخ الطبرى : ج ١ ، ص ٥٠٤ .
وإلى هذه الكنية ودلالتها يشير عبد الله بن رواحة فى مدح الرسول (ﷺ) :

يا هاشم الخير إن الله فضلكم   على البرية فضلا ماله غير

(٢) هيكل : حياة محمد ، ص ١٠٩ .

ينتمى إليه الرسول (ﷺ) . ولا نغالى إذا قلنا إنها كانت أكثر القبائل التى استقرت فى مكة عزةً ومنعة . ومن المعروف أن مجتمع مكة كان يتألف من : «**قريش البطاح**: الذين ينزلون حول الكعبة وهم : هاشم وأمية ومخزوم وتيم وعدى وجمح وسهم وأسد ونوفل وزهرة ، وكانوا أصحاب النفوذ ، **وقريش الظواهر** : الذين ينزلون وراءهم ومعهم أخلاط من صعاليك العرب والحلفاء والموالى والعبيد ... وكان أكثرهم من الحبشة» [١] .

وعن نسب الرسول (ﷺ) يذكر الطبرى :

« اسم رسول الله (ﷺ) محمد ، وهو ابن عبد الله بن عبد المطلب، وكان عبد الله أصغر ولد أبيه.[٢] وكان عبد الله والزبير وعبد مناف ـ وهو أبو طالب ـ بنو عبد المطلب لأم واحدة ، وأمهم جميعا فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم. وحدثت عن هشام بن محمد عن أبيه أنه قال : عبد الله بن عبد المطلب أبو رسول الله ، وأبو طالب ـ واسمه عبد مناف ـ والزبير ، وعبد الكعبة ، وعاتكة وبرة ، وأميمة ، ولد عبد المطلب إخوة ، أمهم جميعا فاطمة بنت عمرو بن عائذ ابن عمران بن مخزوم بن يقظة » [٣] .

❁ ❁ ❁

إرهـاصٌ بشروقِ النور

حدث فى عهدَ جدّ الرسول أمران عظيمان سوف يكونُ لهما شأنٌ أىُّ شأنٍ فى مسيرة الدين الحنيف ، الذى جاء به محمد (ﷺ) :

الأول : **أن عبد المطلب قد أعاد حفر بئر زمزم** [٤] ، التى طمس معالمها مضاض بن عمرو الجرهمى . وإعادة الحياة إلى بئر زمزم وجريان المياه فيها من

---

(١) شوقى ضيف : العصر الجاهلى ، ص ٥١ .

(٢) رزق عبد المطلب بولد أخير ـ بعد ذلك ـ هو حمزة .. الذى ولد فى السنة التى ولد فيها الرسول (ﷺ) وكان ابن خالته .. وأخاه فى الرضاعة .

(٣) تاريخ الطبرى : ج ١ ، ص ٤٩٧ .

(٤) يذكر ابن هشام فى ذلك الأمر : أن عبد المطلب كان نائما فى حجر الكعبة (وهو ما تركت قريش فى بنائها من أساس إبراهيم عليه السلام) . فجاءه هاتف وقال : احفر طيبة، فقال له: وما طيبة ؟
وفى الغد رجع إليه فقال : احفر المضنونة ، فقلت : وما المضنونة ؟
ثم عاد إليه مرة ثالثة وقال : احفر زمزم ، فقال : وما زمزم ؟
قال : لا تنزف أبدا ولا تذم ، (أى أن ماءها لا يقل عطاؤه ولا يذم طعمه) تسقى الحجيج الأعظم .
راجع : مختصر سيرة ابن هشام ، ص ٣١ .
ويفهم من هذا أن زمزم تسمى طيبة ، أى طيبة وعذبة الماء ـ وهى مضنونة : أى يُبخل ويضن بمائها على غير المؤمنين بالله .

جديد ، يعد ـ فى رأينا ـ إرهاصا لعودة الحياة إليها ، ورمزا يدل على أن النبع الدينى الذى تفجر تحت أقدام إسماعيل ، سوف يشرق من جديد على يدى أحد أحفاده . وهذا تحقيق لقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ـ [النحل : ١٢٣] .

الثانى : هزيمةُ جيش الحبشة بقيادة أبْرهةَ الأشرم

الذى كان يحتلُّ بلاد اليمنِ ، ذلك أن أبرهة كان يريد هدم الكعبة والقضاء على مكانة مكة، ووصلتَ جيوشه بالفعل إلى الطائف ، لكى يهدم بيت «اللات». لكن أهل الطائف أفهموه أن بيتهم ليس هو البيتُ العتيق المقصود، وبعثوا معه من يدلُّه على طريق مكة !!

حين قابل أبرهةُ عبدَ المطلب سيِّدَ مكة وبعض ذوى الرأى فيها ، أوضح لهم عن نيته الخبيثة فى أنه لم يأت لحرب ... وإنما لهدم البيت العتيق . فعرض عليه وفد مكة أن يقدموا له جزية عبارة عن ثُلث ثروة تهامة . لكن الخبيث الشرير أبى واستكبر. وهنا نصح عبد المطلب قومه أن يخرجوا إلى شعابِ جبال مكة اتقاءَ أبرهةَ وجنوده .

وقد حدثَ فى أثناء إقامة أبرهة وجيشه على مشارف مكة أن ضلت إبل لعبد المطلب وحسبها أبرهة عنده. وتعجب ذلك الدعيُّ المغرور ، إذْ كيف يبحث عبد المطلب عن الإبلِ، ويتركُ أمر البيت المبارك، فردَّ عليه بثقة المؤمن « أما الإبل فهى لى ... وأما البيتُ فله ربٌّ يحميه » .

نعم .. نعم كان للبيت ربٌّ يحميه ، فقد تفشَّى وباء الجدرى ـ وهو نوع من أسوأ أمراض الجرب ـ فى الجيش ، وبدأ يفتك بأبرهة وجنوده. كما أن الله سبحانه أرسل عليهم « طيْراً أبابيل » ، أى جماعات من الطير ترميهم بحجارة من سجين، أى من جهنم ، فجعلتهم كورق زرع أكلته الدواب وداسته بأقدامها .

إلى هذه الحادثة تشير « سورة الفيل » وهى سورة مكية :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ

(١) ملة : شريعة ـ حنيفا : ؤمنا وموحدا بالله .

مَّأْكُولٍ﴾ [سورة الفيل] .

ولا ريب أن من يتأمل هذين الأمرين بهدى وبصيرة وهما : إعادةُ الحياة إلى بئر زمزم .. وحماية البيت الحرامِ من كيد أبرهة وجيشه وأفياله ـ يدركُ أن الله جلّتْ قدرته قد جعل هذين الحدثين إرهاصًا لبعثةِ النبى الأمى القرشى (ﷺ) ، الذى سوف يعلِّمَ العالم والعلماء :

يا أيها الأمّيُّ حسبُكَ رتبةً في العلم أنْ دانتْ بكَ العلماءُ

الذكرُ آيةُ ربِّكَ الكبرى التي فيها لباغي المعجزاتِ غَناءُ(١)

✿✿✿

معجزة نجاة الأب وميلاد الابن

أحسَّ عبدُ المطلب بن هاشم فى مواقف كثيرة حاجته إلى كثرة الولد ، حتى يستطيع بهم أن يقف فى وجه من يتحرَّشون به، وأن يكونوا عونا له فى شئونه وشجونه.

وقد نذر إن رزقه الله بعشرةٍ من الأولاد الذكورِ أن يضحّى بأحدهم قُربانًا عند الكعبة . وقد من الله عليه بما أراد ، فكان أبناؤه : عشرةَ ذكور ، وستّ إناث :

هم : أبو طالب ، الزبير ، الحارث ، العباس ، عبد الله ، المقوم ، حجل ، حمزة، ضرار ، عبد العزّى (أبو لهب) . أما الإناث فهنّ :

صَفية ـ أم حكيم ـ عاتكة ـ أميمة ـ أرْوَى ـ برّة (٢) .

اقترعَ عبدُ المطلب على أولاده ، فخرج القدح على عبد الله [ترتيبه التاسع .. حمزة هو العاشر والأخير]. مثلما همَّ إبراهيمُ بذبح إسماعيل ، حاول عبدُ المطلب أن يذبحَ عبدَ الله . لكن قومه نصحوه بأن يبحث عن حلٍ عند عرافةٍ تقيم فى خيبر، وكان الحل فى الفداء بعشرة من الإبل . وظل الاقتراعُ ، وضربُ الأقداح عشرَ مَراتٍ إلى أن بلغ عدد الإبل مائة. لكن عبد المطلب ظل يخشى غضب الآلهة، وزعموا أنه كرر ضرب القداح ثلاث مرات أخرى، فكان القدح فى كل

(١) أحمد شوقى : الشوقيات ، ج ١ ، ص ٢٥ .
رتبة : منزلة ـ دانت : خفضت ـ الذكر : القرآن ـ آية : برهان ، دليل ـ باغى : طالب ـ غناء : كفاية .
(٢) عبد السلام هارون : تهذيب سيرة ابن هشام، ط مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ١٩٨٦ ـ ص ٣١ .

منها يدعو إلى ذبح الإبل . وقال له منْ حضر : قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب، فقام ونحر الإبل المائة ، وتركتْ لا يُصدُّ عنها إنسان ولا يمنع [1] . »

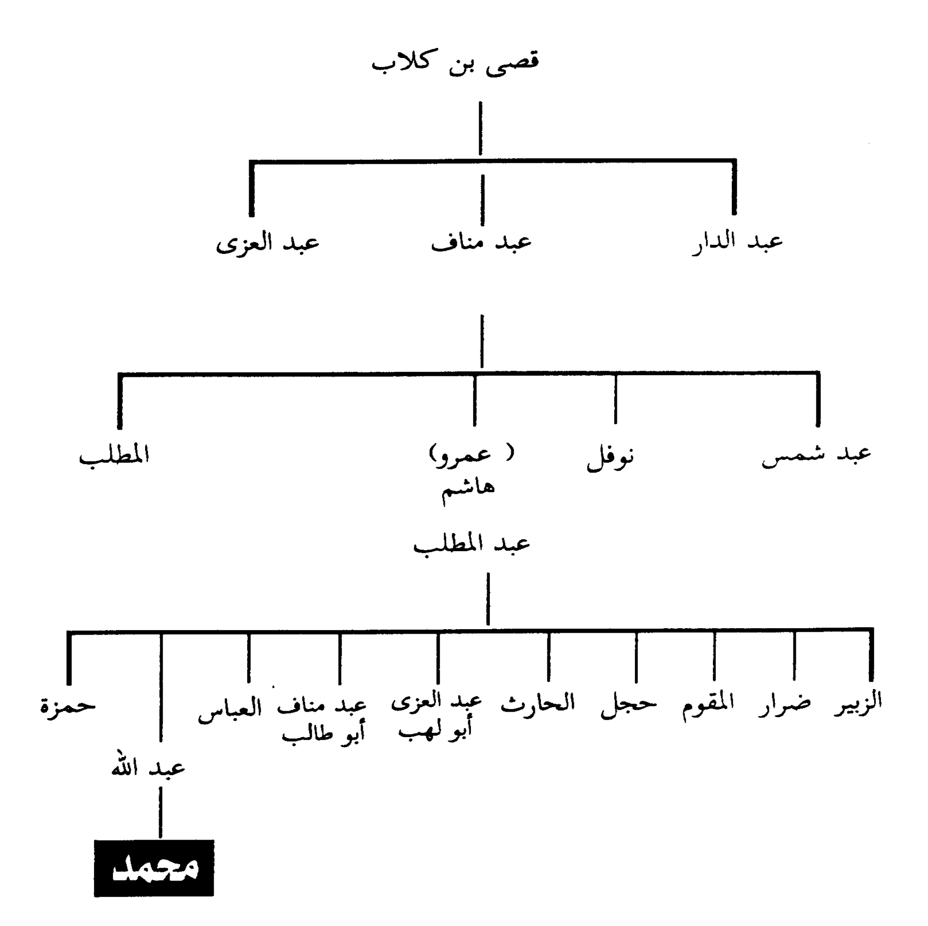
ما أشبه الليلة بالبارحة .. فقد أنفذ ربُّ العزة عبد الله من الذبح ـ كما أنقذ جدَّه إسماعيل ـ بعد أن رضى الأب بذبح فلذة كبده ، ورضخ الابن لدعوة والده. وأى أمر أصعب على الآباء من أذىً يصيب الأبناء ... مهما كانوا صغارا ، فما بالك إذا كان الأمر يتصل بالذبح والموت ؟ لكن الله سبحانه الذى فدى إسماعيل بذبح عظيم .. فدى عبد الله ـ أيضا ـ بنفس الوسيلة . وهذه النجاة من الذبح والموت تعد ـ فى تقديرنا ـ معجزة .. فقد نجى الله عبد الله ، ليكون أبا لأشرف خلق الله ، وآخر رسل الله. معجزةٌ متكررة .. وعبرة بالغة ، فبأىِّ آلاء ربكم تكذبون ؟! ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ** ...﴾[2] . لهذا قال الرسول ﷺ : « **أنا ابنُ الذبيحيْن** . » (إسماعيل ... وعبد الله) .

فرح الأبُ عبد المطلب بنجاة ولده ، وقد زرعتْ هذه الحادثةُ فى قلبه حبّاً لابنه، وجعلت له مكانة خاصة عنده تفوق مكانة إخوته جميعاً . وحين بلغ الفتى عبد الله مبلغَ الشباب أراد أن يزوّجه ، حتى تزداد الفرحة به وبمن يأتى من صلبه. لقد سعد عبد المطلب بزواج كثير من أبنائه ، وفرح بكثير من أحفاده ، بيد أن الحفيد الجديد كان يمثل بشارةً خاصة ... وفرحةً لم يحسها من قبل . ترى هل كان الجدّ يدركُ ـ بالحدس ـ أن حفيده القادم خير خلق الله .. وأنه سيكون رسولَ ربِّ العالمين ـ الذى سيغيّر تاريخ البشرية جمعاء ، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم .. ؟!

عندما بلغَ عبد الله الرابعة والعشرين أخذه أبوه ـ وكان قد تجاوز السبعين ، لكى يزوجه آمنةً بنت وهب بنِ عبد مناف بن زهرة . وفى اليوم الذى تزوج فيه عبد الله من آمنة .. تزوج أبوه عبدُ المطلب من ابنة عمها هالة ، التى ولدت له أصغر أبنائه ـ حمزة ، عمّ الرسول ، وابنُ خالته ، وأخوه فى الرضاع ، ونظيره فى السنّ .. وثالث الداخلين فى الإسلام من ذرية عبد المطلب بعد على بن أبى طالب وأخيه جعفر .

(١) راجع القصة كاملة فى : تهذيب سيرة ابن هشام ، ص ٣٣ ـ ٣٥ .
(٢) الكهف : ٥٧ .

شجـــرة النســب



اختبارٌ... وتطهير

بعد أن تزوج عبدُ الله من آمنة .. بدأتْ بشائرُ الحمْل تظهر ، ومن ثم بدأ يسعى في رحلة تجارية إلى الشام ، لكىْ يأكل هو وأسرته من كسب يده . وعند العودة توقف لزيارة أخواله قُرب يثرب . ويبدو أن الرحلة قد أرهقتْه فمرض ، لذلك عادتْ القافلةُ بدونه إلى مكة . وحين جاء الأخُ الأكبر لعبد الله ـ وهو الحارث ـ ليعود بأخيه المريض إلى مكة عرف أنه مات ، ودفن فى مضارب أخواله . ومن المصادفات العجيبة أن آمنة ماتتْ ـ بعد ست سنوات ـ فى المكان الذى مات فيه زوجها حين جاءتْ لزيارة أهلها . لقد افترق الزوجان فى الدنيا ، لكن الله جلت حكمته جمع بينهما فى الدار الباقية .. ودُفنا فى مقابر بنى عَدىّ بن النجّار فى الأبْواء على مسيرة ثمانى ليال من مكة . وحين مرَّ الرسولُ على الأبواء ، وهو فى طريق الهجرة إلى يثرب بعد ما يزيد عن أربعين سنة هاجت مشاعره، فقال : « هنا نزلتْ بى أمى، وفى هذه الدار قبرُ أبى عبد الله ، وأحسنتُ العومَ فى بئر بنى عَدىّ بن النجار» .

وقد تبنَّى الجُد حفيده بعد موت والده ، وأنزله منزلةً لم يكن يُوليها أحداً من أبنائه . يروى ابنُ إسحاق فى السيرة أنه « كان يُوضَع لعبد المطلب فراشٌ فى ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليهم ، لا يجلس عليه أحدٌ من بنيه إجلالا له . فكان رسول الله (ﷺ) يأتى وهو غلام جفر حتى يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه . فيقول عبد المطلب ـ إذا رأى ذلك منهم : دعُوا ابْنى ، فوالله إن له لشأنا . ثم يجلس على الفراش ويمسح ظهره بيده ، ويسره ما يراه ويصنع » [١] .

أمر آخر مهم بالنسبة لمولد المصطفى (ﷺ) : ذلك أن أباه كان من مكة .. وأمه من الأبواء ـ قرب يثرب . ترى .. هل كانت تلك الولادةُ لطفل أبوه من مكة .. وأمه من يثرب ، تحمل دلالة على أن حياته الدينية فيما بعد سوف تكون مقسومة ـ قسمة شبه متعادلة ـ بنى هاتين المدينتين المقدستين ؟! سبحانك ربى لا علم لنا إلا ما علمتنا .. إنك أنت العزيز العليم .

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ـ ج ١ ، ص ١٦٨ .

لم نشأ أن نتوقف عند كثير من الأحداث التى تروى عن مولد الرسول فى دار جده عبد المطلب ، وإيثاره أن يسميه (محمدا) ـ وهو اسم لم يكن شائعًا فى قبيلته ولا فى مكة كلها ـ أو عن السنوات الأربع الأولى التى قضاها فى قبيلة بنى سعد ، يرضع من ثدى حليمة بنت أبى ذؤيب ـ زوجة الحارث بن عبد العزّى .. ولا عن وله الأمّ آمنة به .. **وإنما نريد أن نتأمل ذلك الاختبار القاسى** ، الذى امتحن به الرسول .. ولما يزل فى المهد صبيًا ، إذ توفى والده وهو جنين فى بطن أمه .. وماتت الأمّ وهو معها بالأبواء وكان عمره ست سنوات تقريبا .. ثم كانت وفاة جده عبد المطلب بعد ذلك بحوالى سنتين ، فأصبح الصبىُّ يتيما ، لطيما ، وحيدا إلا من حاضنته أمّ أيمن . ولا يقلل من الإحساس المضاعف باليتم كونه انتقل إلى كفالة عمه أبى طالب ، الذى لم يكن أكبر أعمامه ، ولا أكثرهم ثراء ، ولا أقلهم ولدا [١] !!

وقضية اليتم تُعد من القضايا الأساسية فى حياة الرسول (ﷺ) . وقد ذكّره الله بفضله عليه ، وبره به ـ فى أول عهد له بنزول القرآن عليه ـ فى سورة «الضحى» بقوله ـ عزّ من قائل :

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ⑥ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ⑦ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ [الضحى : ٦ ـ ٨] .

كما عُنى القرآن الكريم بالدعوة إلى البرّ باليتيم .. عُنى به أيضا أكرمُ التيامى.. وقد ورد عنه أكثر من حديث شريف فى هذا الشأن [٢] . ويفسّر الطبرى هذه الآيات الثلاث بقوله : « يقول تعالى ذكره ، معددا على نبيه محمد (ﷺ) نعمه عنده ، ومذكره آلاءه قبله : ألم يجدك ـ يا محمد ـ ربك يتميا فآوى ، فجعل لك مأوىً تأوى إليه ، ومنزلا تنزله ، ووجدك على غير ما أنت عليه اليوم (من إيمان). وقيل : ووجدك فى قوم ضلال فهداك ، ووجدك فقيرا فأغناك » [٣] .

من هذا وغيره يمكن أن تتضح مدى الآلام النفسية التى عاناها الرسول الكريم

---

(١) كان أبو طالب شقيق عبد الله والد الرسول (ﷺ) من الأم والأب ، بينما كان أبو لهب شقيقه من الأب فحسب .

(٢) من ذلك قوله (ﷺ) : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة » .

(٣) ابن جرير الطبرى : تفسير الطبرى ـ ج ١٢ ، ص ٦٢٤

(ﷺ) فى طفولته وصباه .

لقد فتح عينيْه على الدنيا فلم يجدْ أبا ، يحْتفى به ويشدُّ أزرَه . ومع أن أمه كانتْ موجودةً فإنه ظل بعيداً عنها حوالى أربع سنوات فى بادية بنى سعد. وما كاد يعرفُ حنانَ الأم وطمأنينة قربها وبرها حتى ماتت . وحين وجدَ العوضَ فى جدّه ـ الرجل المشيبِ المهيب [1]، ما لبث هو الآخر أنْ ودَّعَ الدنيا . ولم يكن العمُّ أبو طالب ـ رغم نبله وبرّه به ، كأنه واحدٌ من أبنائه الكثيرين ـ يعيش فى بلهْنية من العيش ، لذلك كله يصعب أن نتخيَّل حجمَ المعاناة التى أحسَّها ذلك اليتيم اللطيم المحروم ـ وهو فى مرحلة الطفولة والصبا .

تُرى .. أليس هذا الاختبارُ القاسى ابتلاءً من الله لرسوله منذ شَرُفَتْ الأرض بمولده ؟ إن فقْدَ الأب والأم والجدّ .. كان صقلا وتهذيبا لتلك الشخصية العظيمة، حتى تكون قادرةً فيما بعد على تحمل المسئولية الجليلة المنوطة بها . كما أن الله سبحانه أراد أن يختصه برعايته ، ويطهره بهدايته ، لذلك كان الرسول (ﷺ) يفتخر ـ دوما ـ بهذا قائلا : « أدّبنى ربىّ فأحسنَ تأديبى » [2].

ومن ميزاتِ فقْدِ الأب والأم ـ من زاوية أخرى مضادة ـ أن اليتيمَ يُسيِّرُ حياته بإرادته الخاصةَ حسبما قدّر الله ، فكل امرىء مهيأٌ لما خلق له .

الذى لا ريب فيه أن الله سبحانه يبتلى من يختار ويصطفى ، حتى يطهر نفسه... ويزكىّ روحَه . وقد أدّب اللهَ هذا اليتيم المختار ، حتى صار عبداً ربانيا ، ورسولا نبيا، واستحق أن يُقرن اسمه الكريم باسم الخالق العظيم ، فصارتْ عبارة « لا إله إلا الله محمد رسوله الله » جملة واحدة ، وأصبحتْ أولَ أركان الدين الحنيف . وأصبحت طاعة الرسول من طاعة الله : ﴿ **قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ** ﴾ [النور : ٥٤] .

﴿ **مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ** ﴾ [النساء : ٨٠] .

كما أن الإيمان بالله سبحانه يقتضى بالضرورة الإيمان بالرسول : ﴿ **وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ ....** ﴾ [النور : ٤٧] .

ابتلى الرسولُ فصبر وشكر . ومن ثم جعله الله خير خلقه وأشرفَ رسله . كما

---

(١) كان عمر محمد (ﷺ) ثماني سنوات عندما توفى جده وهو فى حوالى الثمانين .
(٢) محمد بن سورة الترمذى : الشمائل المحمدية ، ص ٣ .

أن الله وملائكته يصلون عليه .. وليس بعد هذا تكريم لعبد يتيم ..!!

أكثر من هذا أن سنة الرسول (ﷺ) تعدُّ مكملةً للقرآن الكريم ، لذلك يقول (ﷺ) « **قد أُوتيتُ القرآن ومثله معه** » صدق رسول الله .. وحبيب الله ... !!

❁ ❁ ❁

الصادق الأمين

لا نريد أن نتوقف كثيراً عند معالم السيرة العطرة للرسول (ﷺ) قبلَ البعثة ، لأن الهدفَ من هذه الدراسة ليس هدفًا تاريخيا . وإنما الغايةُ الأسمى هي أن نسير على ضوء ما ورد ذكره ـ عن الرسول .. والرسالة ـ في القرآن الكريم ، لأن هذا النهجَ القرآني .. هو النهج الذى آثرنا أن نعتمدَ عليه في هذا البحث . إنَّ الاعتماد على الذكر الحكيم في دراسة أيِّ موضوع ديني ـ هو العاصمُ من الزلل .. وهو الذى يقدم الحقيقة في إطارها المقدس ومصدرها الجليل ، إذ إن القرآن كتاب عزيز ﴿ **لا يَأْتيه الْبَاطلُ منْ بَيْنِ يَدَيْه وَلا منْ خَلْفه تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾ [فصلت : ٤٢] .

كما أن ربنا ـ ربٌّ العزة ـ ذكر فيه كل ما يحتاج إليه البشرُ .. ﴿ **مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكتَاب من شَيْءٍ** ﴾ [الأنعام : ٣٨] . كما أن ما جاء فيه لا يخالف ـ ألبتة ـ ما جاء فيما قبله من الكتب السماوية ﴿ **مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ . . .** ﴾ [فصلت : ٤٣] والقرآن يؤكد هذه الحقيقة الناصعة وهو أنه جاء مصدقًا .. لغيره من الكتب السماوية ، التى أنزلها الله على من سبق من الرسل والأنبياء ـ فى أكثر من موضع : ﴿ وأنزلْنَا **إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْه** ﴾ [المائدة : ٤٨] .

نودّ ـ في هذه المناسبة ـ أنْ نشير إلى أن القرآن هو الحَكَمُ على غيره ، ويستحيل أن يُعدَّ أيُّ كتاب حكماً عليه .

فتلك الدياناتُ قد بَعُدتْ وتغيَّرتْ .. وهذه الكتبُ كلها قد حُرِّفتْ ونُسختْ . يقول المولى عزّ وجل : ﴿ **مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** (١٠٥) **مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ**

شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة : ١٠٥ ـ ١٠٦] .

فالآيتان تشيران إلى أن أهل الكتب السابقة والمشركين لم يكونوا يرغبون فى أن ينزل على المسلمين كتاب سماوى ، حتى يبقوا ـ وحدهم ـ أصحاب فضل . ونسوا أن الله يختص برحمته من يشاء ، فأرسل للمسلمين كتاباً جديداً مهيمنا على كتبهم .. أكثر من هذا أنه ينسخ ما جاءَ فى تلك الكتاب ، ويقدِّمُ من الآيات والشرائع مثل ما كان فيها .. بل أكثر من ذلك جاء بخير منها ، لأنه آخر الكتب المقدسة ، وسيظل صالحًا لكل مكان وزمانٍ ، فالإسلام دينُ البشر أجميعين منذ جاء به الصادقُ الأمين إلى أن يرث الله الأرضَ ومن عليها ، وهو خير الوارثين .

❁ ❁ ❁

أدلـة ساطعـة

ثمة مواقفُ ذاتُ دلالات ساطعة وبراهين قاطعة على أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ كان يُهيِّىءُ الأسبابَ العامة والخاصة ، ليكون المصطفى (ﷺ) أهلا لتحمل الرسالة وتبليغ الأمانة : وسوف نشير إلى أهم هذه المعالم من سيرته العطرة قبل البعثة:

أولاً : أن يكون الرسولِ قرشيٌّ الأصل مكيٌّ الوطن

أَوْ مَأنا فيما سبق إلى المكانة السامية لقبيلة قريش .. والمنزلة المقدسة التى كانتْ ـ ولا تزال ـ تحتلها مكة منذ العصر الجاهلى وما قبله . وقد ترتب على هذا أن أصبحتْ لهجة قريش هى لغة العربية أجمعين . كما أن مكة المكرمة كانتْ مسقط رأس محمد (ﷺ) ومولده [١] ، وكعبتها المشرفة هى التى تُشدُّ إليها الرحالُ من كل المناطق العربية ؛ نتيجة لهذا كانت مكة « أم القرى » أشرف قرى بلاد العرب وأقدمها . ولا ريبَ فى أن ظهور صوتٍ يدعو إلى التوحيد وعبادة الله من ثنايا شعابها ، سيكون له صدى بعيد عما لو كانتْ بعثته الشريفة قد أتتْ من مكان آخر. ثمة آية تشير إلى ذلك .. وهى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [الشورى : ٧] [٢] .

---

(١) ذكر لى بعض أهل مكة أن المكان القريب من المسجد الحرام الذى يطلق عليه مكتبة مكة بجوار المسجد الحرام هو بيت عبد المطلب الذى ولد فيه الرسول (ﷺ)

(٢) أم القرى : مكة المكرمة ـ يوم الجمع : يوم القيامة

يضاف إلى هذه المعجزات البينات أنه ولد (ﷺ) فى العام الذى أنقذ فيه الله ـ سبحانه ـ البيت الحرام من أبرهة الأشرم وجيشه وأفياله .

أليسَ فيما ذكرنا ـ وما سوف نذكر من كل تلك الأمور الجليلة ـ دليلُ صدقٍ وبرهانٌ حقٍ على أن الله سبحانه قد اختار ذلك الرجل القرشى الأميَّ ، ليكون أفضل خلقه وآخر رسله ؟

ثانياً : نجاتُه من الضلال رغم يُتمه وفقره

كان مقدراً أن يُذبح عبد الله والدُ الرسول (ﷺ) ، لكن الله فداه بمائة ناقة ، لينجبَ وحيده ـ ويموت وهو فى عزّ الشباب . كما أن نشأة الرسول فى بادية بنى سعد ، ووفاة الأم والجد (عبد المطلب) ، ثم انتقاله إلى كفالة عمه (أبى طالب) . كل هذه الأحداث كانت تطهيرا لشخصه الكريم ، يضاف إليها رعيه الغنم فى صباه وشبابه ـ وقد افتخر بهذا فى أكثر من حديث شريف : « ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم » . وفى حديث آخر يقول : « بعث موسى وهو راعى غنم ، وبعث داود وهو راعى غنم ، وبعثت وأنا أرعى غنم أهلى بأجياد . » [(١)] .

إن رعْىَ الغنم يعوّد صاحبه الصبرَ والتأمل ؛ ولا عجب أن يصبح راعى الغنم راعى خير أمةٍ فيما بعد ، ولا غرو أن ينصح أتباعه المسلمين قائلا : « كلكم راعٍ ، وكلكم مسئولٌ عن رعيته » .

ثم يأتى بعد ذلك دخوله إلى البيت العتيق .. فى أثناء إعادة بناء الكعبة واختلافِ القبائل فى منْ يعيد الحجر الأسود إلى مكانه . ثم يكون محمدُ هو أولُ قادم، ويُستشارُ فى هذه الأزمة المستحكمة التى كادتْ تشعلُ الحربَ ، ويرضون جميعا بحكمه وحكمته .. !! [(٢)]

تلك الأمورُ كلها هل كانتْ مجرّد صُدفٍ عابرة ، جاءتْ فى سيرة المصطفى (ﷺ) اعتباطا ؟! .

---

(١) أجياد : منطقة قريبة من المسجد الحرام .. ولا تزال تحمل نفس الاسم حتى اليوم . وقد ورد الحديثان فى : حياة محمد ، ص ١٣٥ .

(٢) حدثت هذه الحادثة الخاصة ببناء الكعبة .. وكان عمر الرسول (ﷺ) خمسا وثلاثين سنة ـ مختصر سيرة ابن هشام ، ص ٤٥ .

الذى لا ريب فيه أن الله ـ سبحانه ـ قد هَيَّأ لحبيبه وصفوة خلقه هذه المواقف وغيرها الكثير .. والكثير ، لكى يلفت أنظار قومه إلى شخصية ذَلكم الرجل الصادق الأمين ، الذى لم يشهد قط مواقف اللهو والعبث ، أو مناظرَ الطرب والغناء ، أوْ يقف أمامَ صنم أو وثنٍ أو نصبٍ . كما لم يأتمنوا أحدا على أماناتهم مثلما ائتمنوه، حتى عندما اختلفوا معه عندما بعث رسولا نبيًّا . فقد طلب من ابن عمه على بن عبد طالب أن يبقى فى مكة بعد هجرته مع أبى بكر ، حتى يرد الأمانات التى كانت فى حوزته إلى أصحابها .

من هذا كله يتضح أن الرسولَ عليه السلام « كان أحسن قومه خُلقًا وأعظمهم أمانةً ، وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التى تدنّس الرجال ، حتى كان أفضل قومه مروءةً ، وأكرمهم مخالطةً ، وخيرهم جوارا ، وأعظمهم حلما ، وأصدقهم حديثا ، فسموه الأمين ، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة الحَميدة والفعال السديدة من الحلم والصبر والشكر والتواضع والعفَة والجود والشجاعة والحياء ، حتى شهد له بذلك ألدُّ أعدائه النّضر بن الحارث من بنى عبد الدار يقول :

« قد كان محد فيكم غلاما حدثا ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثا، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيْب ، وجاءكم بما جاءكم قلتم ساحر . لا والله ما هو بساحر . » .

« ولما سأل هرقلُ ملكُ الروم أبا سفيان (قبل أن يُسلم) :

ـ هل كنتم تتهمونه بالكذبِ قبل أن يقولِ ما قال ؟

قال : لا .

فردَّ هرقل : ما كان ليدعَ الكذبَ على الناس، ويكذبَ على الله . »

وقد حفظه الله فى صغره من كل أعمال الجاهلية ... وبُغّضتْ إليه الأوثان ، وسماع الشعر ، وحضور مجالس السمر ، وشرب الخمر ... وذلك كله من الصفات التى يحلّى الله بها أنبياءه ، ليكونوا على تمام الاستعداد لتلقى وحيه»[(١)] .

حدثت هذه الأمور كلها بتوفيق من الله العليم الخبير ، الذى طهره واصطفاه مثل ما حدث مع غيره من الرسل : **﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ.... ﴾** [الأحقاف: ٩] [(٢)] .

(١) انظر : محمد الخضرى : نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين ، ص ٢١ .
(٢) بدعا : بديعا لم يسبق لى مثيل من الرسل ، وإنما أنا رسول كريم حدث لى ما حدث لهم من قبل .

خلاصة ما يمكن قوله هو أن الرسول (ﷺ) قبل البعثة كان رجلا حسن السمعة ، صادق القول ، أمين الرأى . وكان قومه يثقون فيه ثقة مطلقة ، ويأتمنونه على ما لا يأتمنون عليه أهلهم وذوى قرباهم ، لذلك كان يعرف باسم « الصادق الأمين » . وفى هذا المعنى يقول شوقى : (١)

يا جاهلين على الهادي ودعوته ... هل تجهلون مكانَ الصادق العَلَم

لقبتموه أمينَ القوم في صغر ... وما الأمين على قول بمتَّهم

فاق البدورَ، وفاق الأنبياءَ ، فكمْ ... بالخُلق والخَلق من حُسن ومن عظمَ

لقد أدَّبَ ربُّ العزة سبحانه وتعالى عبده وحبيبه ورسوله محمدا (ﷺ) فأحسن تأديبه، حتى يصبح جديرا بحمل رسالة الإسلام إلى الناس أجمعين ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ﴾ [الكهف : ١٦] ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . ومن أحق بالفضل عند الله من عبده ورسوله المصطفى المختار (ﷺ) .

❁ ❁ ❁

الزواج من السيدة خديجة

من الأمور الجليلة التى هَيَّأها اللهُ ـ جلَّتْ قدرتُه ـ للرسول (ﷺ) قبل بعثته الشريفة ... أن يعمل بالتجارة ، وأن يكون ذلك ـ كما شاء الله وقدَّر ـ فى تجارة السيدة خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزَّى بن قُصيّ بن كلاب [وهى أخت العوَّام والد الزبير ... وحفيده عبد الله زوج أسماء بنت أبى بكر الصديق] خاصة وقد تدربَ على التجارة فى بلاد الشام مع عمّه أبى طالب من قبل . كما أنه أراد بهذا أن يأكل من كسبِ يده ، ولا يعيشَ عالةً على عمه . والتجارة بالنسبة للرسول (ﷺ) مهنة عملَ بها أبوه عبد الله من قبل ، وعمل بها عمه أبو طالب الذى يكفله . وقد التقى فى بعض هذه الرحلات التجارية ببعض الرهبان الذين أخبروا عمه أبا طالب وميسرة بأنه سوف يكون نبى هذه الأمة » (٢) .

لا نريد أن نفيضَ فى الحديث عما حققه محمدٌ لخديجة من كسب مالى، ولا

(١) أحمد شوقى : الشوقيات ، ج ١ ، ص ١٨٠ .
(٢) راجع : تهذيب سيرة ابن هشام ، ص ٤٢ ، ٤٤ .

عن حديث ميْسرةَ لسيدته خديجة عن أمانة الرسول (ﷺ) وحُسن تصريفه للأمور ، وإنما نود أن نؤكد أمرا كانت له آثار بالغةٌ فى حياة الرسول ﷺ قبل البعثة وبعدها .. وهو زواجه من السيدة خديجة رضى الله عنها .

تذكر بعضُ كتب السيرة أن السيدة خديجة هى التى رغبتْ فى أن يتزوجها الرسول . « وتحدثت في ذلك إلى أختها فى قولٍ ، وإلى صديقتها نفيسة بنت منية على قول آخر . وذهبتْ نفيسة إلى محمد فقالت له : ما يمنعك أن تتزوج ؟

قال : ما بيدى ما أتزوّج به .

قالتْ : فإنْ كُفيتَ ذلك . ودُعيتَ إلى الجمالِ والمال والشرف والكفاءة ، ألا تجيب ؟

قال : فمن هى ؟

أجابْت بكلمة واحدة : خديجة .

قال محمد : كيف لى بذلك ؟

قالتْ : علىّ ذلك » [1] .

هنا ينبغى أن تكون لنا وقفةٌ عند هذا الحدث الجلل ، إذ لم تكن خديجة ـ رضى الله عنها ـ حين خطبها له عمه أبو طالب شابةً صغيرة ، وإنما سيدة مكتملة، سبق لها الزواج من رجلينْ قبله هما : أبو هالة واسمه النبّاش أوْ مالك ، وولدتْ له ولدْين هما : هند وهالة . وقد تربىّ هالة هذا فى بيت الرسول (ﷺ) . أما الزوج الثانى فهو : عتيق بن خالد المخزومى ، وولدتْ له عبد الله وبنتا . »[1] .

كانت خديجةُ ـ رضى الله عنها ـ فى تلك الآونة سيدة فضلى ذات حسب ونسب . ويبدو أنها رفضت أكثر من رجل قبل أن يخطبها الرسول . وتمّ الزواج المبارك بين سيدة فى الأربعين وشابٍ فى الخامسة والعشرين . **أليس فى هذا الزواج العاقل الراشد أبلغَ ردّ علىَ بعض المستشرقين والمهرطقين ، الذين يزعمون أنه (ﷺ) تزوّجَ أكثر من مرة لأسباب تعود إلى رغبة جسدية .. وميل للتمتع بالنساء ؟!**

إنْ هُم إلا يخْرصُون .. إذْ لو كان ذلك صحيحا لما قبل أن يتزوّجَ سيدة عجوزا ـ

(١) حياة محمد ، ص ١٣٨ .

إلى حد ما ـ فالمرأة فى هذا المجتمع كانتْ تتزوج وهى دون العاشرة أو ما بعدها بقليل . كما أنه لم يجمع بين السيدة خديجة وبين أية زوجة أخرى . وظلت ذكراها عامرةً فى قلبه ، لدرجة أن السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ كانت تغار منها وهى فى العالم الآخر .

يبدو ـ والله أعلم ـ أن الرسول (ﷺ) كان يريد زواجا عاقلا ، وتكوين بيت آمن، وأن يعيش مع امرأة حكيمة ، تعوّضه قدراً من حنان الأم ـ الذى فقده وهو صبى صغير. وقد رزقه الله منها بولدين لم يعش أى منهما طويلا لسبب لا يعلمه إلا الله ـ هما : القاسم .. وعبد الله ، لهذا يكنى الرسول ـ أحيانا ـ بأنه «أبو القاسم » ، كما رزق منها بأربع بنات هن : زينب ـ رقية ـ أم كلثوم ـ فاطمة (الزهراء) ، لذلك كانت خديجة ـ رضى الله عنها ـ بالنسبة لزوجها الودود الولود، التى صدقته حين كذبه الناس ، كما كانت أول من آمن بالرسالة من البشر أجمعين .

وقد تغيرت ـ بمشيئة الله وفضله ـ حياة الرسول (ﷺ) بعد هذا الزواج المبارك ، وحققت له خديجة ـ رضى الله عنها ـ الاستقرار المادى والعاطفى ، فبدأ ـ بعد ذلك ـ يميل إلى حياة العزلة والوحدة ، وأخذ ينقطع شهرا كل سنة ، لكى يتحنث ويتأمل فى أمر خالق الكون ، ويبحث عن دين آخر بعيد عما كان يمارسه قومه. وكان هذا يحدث فى شهر رمضان فى غار حراء ، وهو يتأمل فى شأن خالق الأرض والسماء .

قرت بخديجة عينا الرسول ﷺ، واستقرت حياته ، وأحس معها الأمان والحنان ، وكانت نعم الزوج الصالحة ، التى يتسع صدرها للزوج الأمين حين يصيبه خوف أو قلق أو حزن . وربما كانت صورتها الكريمة ماثلة فى ضميره ، وهو يعلم أمته قائلا فى حديث ما معناه :

« ما كسب امرؤٌ فى حياته شيئاً ـ بعد تقوى الله عز وجل ـ مثل الزوجة الصالحة : إذا نظر إليها سرته ، وإن أقسم عليها برته ، وإن غاب عنها حفظته فى نفسها وماله» .

ونظرا لأنه كان يدرك دور المرأة العظيم فى استقرار حياة الأسرة وحماية

الزوج من الانحراف أو الفشل كان يوصى النساء قائلاً :

« لو أمرت المرأة أن تسجد لأحد بعد الله ـ سبحانه ـ لأمرت الزوجة بأن تسجد لزوجها » .

وقد أمر المسلمين فى أكثر من حديث شريف بأن يستوصوا بالنساء خيرا . وقد ظل يؤكد هذا حتى خطبة حجة الوداع قبل أن يموت بأشهر قليلة ، ومما قاله فى حق المرأة :

« إنما النساء عندكم عوانٌ ، [١] لا يملكن لأنفسهن شيئا ، أخذ تموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله . فاتقوا الله فى النساء ، واستوصوا بهن خيرا، ألا هل بلغت ... اللهم اشهد ... » .

يؤكد ما سبق أن ذكرناه ـ فى أثناء الحديث عن هذا الزواج الميمون ـ ما يقوله أحد الباحثين المعاصرين :

« إن هذه الصلة كانت فاتحة عهد جديد ، بل حادثا حاسما فى حياة السيد الرسول (ﷺ) ،كان له أكبر الأثر فى الاتجاه النهائى الذى اتجه إليه ، وتهيأتْ به نفسه وقواه الروحية ، لتلقى الرسالة العظمى والنهوض بها ، إذ أغناه الله عن الضرب فى الأرض فى سبيل الرزق ، فاستطاع أن يتمتع فى جانب هذه السيدة بالحياة العائلية الهنيئة المطمئنة من جهة ، وأن يتفرغ من جهة أخرى بنفسه وقلبه وفكره وروحه للتدبر فى ملكوت الله وآلائه ، والقيام برياضاته واعتكافاته الروحية ، فارغ القلب من هموم المعيشة وضروراتها . » [٢]

✿ ✿ ✿

تعقيب ... ومغزى

يوضح ما ذكرنا ـ وما لم نذكره من أحداث السيرة العطرة ـ كيف أدب الله رسوله فأحسن تأديبه ، لأن هذه الأمور كلها تعد تهيئة ، وإعدادا وصقلا لتشكيل معالم تلك الشخصية العظيمة ، التى بعثت رحمة للعالمين بكتاب الإسلام ورسالة السلام .

---

(١) عوان : ج عانية وهى الأسيرة فالنساء مثل الأسرى عند الرجال ، لذلك يوصيهم الرسول (ﷺ) بهن لضعفهن وقلة حيلتهن .
(٢) محمد عزة دروزة: سيرة الرسول (ﷺ) . ط قطر ، ١٤٠٠ ـ ج ١ ، ص ٢٣ .

إن جانباً كبيراً من جوانب عظمة الرسول يكمن فى بشريته . وفيما هيأه الله له من أسباب ومواقف ، حتى يكون جديراً بوصف الله له : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] أكثر من هذا يصبح قمينا بأن يكون الرسول المختار ـ رسول رب العالمين إلى الناس أجمعين . ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الجمعة : ٤] .

كان الاختبار قاسياً .. لكن ربَّ العزة ـ يعلم كيف يعُد الرسول لرسالته ، وهو ـ سبحانه ـ يذكره بهذا فى قوله :

﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ [الشورى : ٥٢ ، ٥٣]

كما أن الرسول (ﷺ) يعترفُ برعاية الله وهدايته له ، كما نجد فى هذه الآيات الكريمة ـ على سبيل المثال :

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦١ ـ ١٦٣] .

✿ ✿ ✿

هكذا تنتهى المرحلة الأولى من حياة الرسول (ﷺ) ، تلك المرحلة التى تحول فيها محمد بن عبد الله الإنسان العادى ، ليكون الرسول النبى الذى اختاره الله ليكون خاتم رسله .

ننهى هذه المرحلة بالتأكيد على أن الرسول بشر وإنسان عادى ، لكن رب العزة اختاره واختبره ، فكان جديرا بكل ما خصه الله تعالى به من فضل ومقام كريم . وهو يقر بهذه البشرية فى شخصه وبتلك العبودية للخالق بقوله فى هذه الآية الكريمة : ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾ [الكهف : ١١٠] .

عند هذه المرحلة ينتهى المبحث الأول ... الذى تناولنا فيه ـ بإيجاز شديد ـ الفترة الأولى من حياة الرسول الكريم (ﷺ) من المولد حتى بعثته الشريفة . تلك كانت مرحلة الإعداد والاختبار والتنشئة والاختيار ، وبعدها ... بعد أن بلغ الأربعين من عمره (ﷺ) بعثه الله بالحق بشيرا ونذيرا . وهذا ما سوف نتاوله فى المباحث التالية بإذن الله الرحمن الرحيم .

المَبْحَثُ الثاني

الأعــلامُ..والصفــات

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢)
وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤)
وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ
(٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ [المدثر: ١ ـ ٧]

الأعـــلام ... والصفـات
التي وردت للرسـول (ﷺ) في القـرآن الكـريم

تمهيد :

الحديث عن شخصية عظيمة مقدسة ـ مثل شخصية الرسول (ﷺ) ـ معينٌ لا ينضبُ ، ويصعبُ على أيِّ عـالمٍ ـ مهـمـا آتاه اللهُ من العلم والحكمـة ، ومهـمـا أحاطتْ به ذاكرتُه من الرواية والدراية ـ أن يفى ذلك النبيَّ الجليل حقَّه من التأريخ والوصف . لكنْ ذلك لا يحول دون وصف يوم من دهر .. وتقديم نقطةٍ من بحر. وعلى الله قصدُ السبيل .

قبل أن نتحدث عن أسماء الأعلام والصفات ، التى وردتْ له (ﷺ) فى القرآن الكريم ، نتـوقف ـ فى عـجـالة ـ لنوضح **بعض ملامح صورته البشرية** ـ كـمـا وصفـها بعضَ شهود العيان . حدثنا عيسى بن يونس عن عمر بن عبد الله مولى عفرة ، قال حدثنى إبراهيم بن محمد ـ من ولَد على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ قال : **كان علىٌّ إذا وصفَ رسول الله (ﷺ) قال** :

« لم يكن رسول الله بالطويل الممغَّط ولا بالقصير المتردّد ، وكان ربْعةً من القوم. لم يكن بالجعْد القطَط ولا بالسَّبْطَ . كـان جـعْـدا رجـلا ، ولم يكنِ بالمطهم ولابالمكلْثم . وكان فى وجهه تدويرٌ أبيَضُ مشربٍ ، أدعجُ العينيْن ، أهدبُ الأشفار، جليلُ المشاش والكتد ، أجردُ ، ذو مسربةٍ ، شثْنُ الكفين والقدمْين ، إذا مشى تقلَّعَ كأنما ينحطُّ من صَبَبٍ ، وإذا التفتَ التفت معا ، بين كتفيْه خاتمُ النبُّوة[1] ، وهو خـاتمُ النبـيِّن ، أجـودُ الناس صـدراً ، وأصـدقُ الناس لـهـجـةً ، وأليـنهـم عـريكـةً ، وأكرمهم عِشرةً . من رآه بديهةً هابهُ ، ومن خالطهُ معرفة أحبَّه . يقول ناعتهُ : لم أرَ

(١) خاتم النبوة : شحمة بارزة فوق لحم الكتف ، عليها شعر كثيف .
ـ ينحط من صبب : ينزل من مكان مرتفع .. أى يمشى مسرعا .

قبله ولا بعده مثله (ﷺ)» (١) .

هذه شهادة أخرى تنسب للحسن بن على رضى الله عنهما .. « أخبرنى رجل من بنى تيم من ولد أبى هالة زوج خديجة [قبل الرسول] يكنى أبا عبد الله ، عن ابن لأبى هالة ، عن الحسن بن على قال : سألت خالى هند بن أبي هالة - وكان وصافا - عن حلية رسول الله (ﷺ) ، وأنا أشتهى أن يصف لى شيئا منها أتعلق به. فقال :

« كان رسول الله (ﷺ) فخمًا مفخما ، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر ، أطول من المربوع ، وأقصر من المشذّب ، عظيم الهامة ، رَجل الشعر ، إن انفرقت عقيقته فَرَق ، وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفّره . أزهر اللون ، واسع الجبين ، أزجّ الحواجب سوابغ من غير قرن ، بينهما عرق يدرّه الغضب ، أقنى العرنين ، له نور يعلوه ، يحسبه من لم يتأمله أشمّ ، كثّ اللحية ، سهل الخدين ، ضليعَ الفمّ ، مفلّجَ الأسنان ، دقيقَ المسْرَبة . كأن عنقه جيدُ دمية في صفاء الفضة، معتدلَ الخلْق ، بادنُ متماسكُ ، سَوَاءَ البطن والصدر ، عريضَ الصدر ،

(١) أبو عيسى الترمذى : الشمائل المحمدية والخصائص المصطفوية ، ت سيد الجليمى - ط المكتبة التجارية - مكة المكرمة ١٤١٣ - ١٨٩٣ ، ص ٣٣ - الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٢ ، ص ٢٢١

الطويل الممغط : الواضح الطول والهزال
القصير المتردد : القصير الممتلىء الداخل بعضه فى بعض
ربعة : متوسط القامة .. ليس طويلا أو قصيرا
الشعر الجعد : الشعر المتموج
الشعر الرجل : الشعر المسترسل
المطهم : الممتلىء - كثير اللحم
المكلثم : المدور الوجه
المشرق : يجمع وجهه بين البياض والحمرة
أدعج العينين : شديد سواد العين
أهدب الأشفار : طويل رموش العينين
الكتد : مجتمع الكتفين
المشاش : العظم - خاصة عظم المناكب .. الفواصل .
ذو مسربة : ذو شعر دقيق من الصدر إلى السرة
الشثن : ممتلىء الأصابع من الكفين والقدمين
تقلع : مشى بقوة وسرعة
التفت معا : التفت بكامل جسمه
ألينهم عريكة : قليل الخلاف - سلس التعامل
عشرة : معاشرة ، مصاحبة
بديهة : مفاجأة .. صدفة
ناعته : واصفه .

بعيدَ ما بيْن المنْكبيْن ، ضَخمَ الكراديس ، أنوَر المتجرِّد ، موصول ما بيْن اللبة والسُّرّة بشعرٍ يجرى كالخطّ ، عارى الثديين والبطن مما سوى ذلك ، أشعرَ الذراعيْن والمنكبيْن وأعالى الصدر ، طويلَ الزنديْن ، رَحبَ الراحة ، شثنَ الكفّيْن والقدميْن ، سائلَ الأطراف ـ أو قال : شائلَ الأطراف ـ خُمصانَ الأخمصين ، مسيحَ القدمين ، ينبو عنهما الماءُ ، إذا زالَ زالَ قلْعا ، يخطوُ تكفّيًا ، ويمشى هوْنا ، ذريعَ المشية إذا مشى كأنما ينحطُّ من صبَبٍ ، وإذا التفتَ التفتَ جميعا ، خافضَ الطرف ، نظره إلى الأرض أكثرَ من نظره إلى السماء ، جل نظره الملاحظة ، يسوق أصحابه ، ويبدأ من لقى بالسلام » (١) .

يشير هذا النصُّ ـ وما سبقه ـ إلى بعض صفات مادية ومعنوية للرسول (ﷺ) .. والنصّان مصدراهما متقاربان إلى حد كبير ، فالأول ينسب إلى على بن أبى طالب، والثانى يرويه الحسن بن على عن خاله (شقيق السيدة فاطمة الزهراء من الأم) . كما أن النصين متقاربان فى بعض أجزاءٍ من التركيب والدلالة . وقد آثرنا أن نرهصَ بهما لهذا الفصل .. لعل فيهما إرواءً لغلة عَطشٍ فى هذا السبيل . (٢) رغم إدراكنا بأن الظمأ فى التعرّف على ملامح شخصية الرسول (ﷺ) يصعب إرواؤه، كما يُفهَم من هذا المقطع الذى « يخمّس » فيه الشاعر رفاعة الطهطاوى قصيدةً فى مدح الرسول للشاعر عبد الرحيم البرعى :

---

(١) الشمائل المحمدية ، ص ٣٨ ـ الصورة التى يقدمها هند بن أبى هالة لابن شقيقته الحسن توضح أن منظر الرسول كان يدعو إلى الهيبة ـ وجهه مشرق كالبدر ـ متوسط القامة ـ ليس بالطويل أو القصير ـ معتدل الجسد ـ ليس ممتلئا أو نحيلا ـ عظيم الرأس ـ مرجل الشعر ، لا يجاوز شحمة أذنيه ـ وجهه أبيض مشوب بحمرة ـ واسع الجبهة ـ طويل الحواجب دون اتصال بينهما عرق ينبض عند الغضب ـ طويل الأنف مع تقوس فى وسطه .. أنفه مرتفع منير ، يحسبه من لا يعرفه علامة كبرياء وأنفه ـ لحيته كثيفة الشعر ـ خداه مستويان غير مرتفعين ـ عظيم الفم واسعه ، أسنانه منفرجة متباعدة .. وهذه علامة حسن وفصاحة ودلالة تفاؤل ـ جيده معتدل أبيض ـ جسده معتدل متماسك غير مترهل ـ عريض الصدر واسع المنكبين ـ ضخم عظام المفاصل ـ ما يظهر من جسده يبدو منيراً ـ شعر جسده يمتد من بداية الرقبة إلى سرة البطن فهو أشعر الصدر والذراعين والمنكبين ـ طويل ساقى الرجلين ـ راحة يده واسعة عريضة ـ ممتلىء الكفين والقدمين ـ طويل الأصابع لينها ـ باطن قدميه مرتفع عن الأرض .. أملس ينحدر عنهما الماء ـ عند المشى ينزع رجله بسرعة ، كناية عن الهمة والقوة والسرعة ، يخطو مسرعا ، ويمشى فى رفق ولين ـ واسع الخطو كأنه ينزل من منحدر عال ـ يلتفت بكامل جسده إلى من ينظر إليه ـ خافض الطرف ينظر إلى الأرض تواضعا وخشوعا ـ ينظر بطرف عينيه دون أن يتفرس ـ يمشى خلف أصحابه كأنه يتفقدهم ويحرسهم ـ يبدأ من يلقاه بالسلام صغيرا كان أو كبيرا .

(٢) كتاب « الشمائل المحمدية » لأبى عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى ت سنة ٢٧٩ وهو صاحب كتاب « سنن الترمذى » ، والكتاب يشتمل على مجموعة من الموضوعات الخاصة بشمائل الرسول وصفاته وبعض عاداته . وهى موضوعات لم تجد لها مثيلا فى معظم كتب السيرة النبوية .
ويمكن الرجوع أيضا إلى: تاريخ الطبرى ـ ج ٢ ، ص ٢١ وما بعدها .

من في صَباحته يحكيه مُبتسما   منْ في ملاحته حازا لبها وسما

كم أقسمَ الحقُّ باسم المصطفى قسما   نورُ الهُدى، جوهرُ التوحيد، بدرُ سما

ءِ المجد، واصفه بالبدر يَظلمه[1]

❁ ❁ ❁

حقوق المصطفى

البحثُ عن أسماء الرسول (ﷺ) وصفاته يوضح - بجلاء - بعض أفضاله الحميدة وأدواره العظيمة فى مجال نشر الدعوة وتوطيد أركان العقيدة، كما يُبين المنزلةَ الرفيعة التى وهبه الله إياها، فقد أنزله الله مقاما محموداً، لم يُعط لغيره من البشر. وأىُّ مقام أسْمى من أن يُصلّى عليه اللهُ وملائكتُه، ويأمر المسلمين بأن يصلوا عليه.

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

يذكرُ ابنُ كثير فى تفسير هذه الآية الكريمة: « المقصود من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلةِ عبده ونبيه عندَه فى الملأ الأعلى بأنه يُثنى عليه عند الملائكة المقرَّبين وأن الملائكة تُصلى عليه. قال البخارى قال أبو العالية: صلاة الله تعالى ثناؤُه عليه عند الملائكة، وصلاةُ الملائكة: الدعاءُ له. ثم أمر تعالى أهل العالم السُّفْلى بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمعَ الثناءُ عليه من أهل العالمَيْن: العلوى والسفلى جميعًا »[2].

لقد بلغ رسولنا الكريم (ﷺ) درجةً رفيعة عند الله وملائكته ورسله والمؤمنين؛ من هنا جاءت أهمية التعرُّفِ عليه من خلال دلالة ما أُطلق عليه من أسماءٍ وصفاتٍ وكنى مما ورد له فى القرآن الكريم. ويعد القاضى أبو الفضل عياض

(١) طه وادى: ديوان رفاعة الطهطاوى - دار المعارف - ١٩٩٤، ص ١٢٥
صباحة - ملاحة - البهاء: الجمال - يحكيه: يشبهه - سما: ارتفع - بدر سماء: قمر سماء
(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ٥١٤.

اليحصُبى (ت ٥٤٤ هـ) من أهم الذين توقفوا عند هذا المجال ، وأفرَد له عدةَ مباحثَ فى كتابه « **الشفا بتعريف حقوق المصطفى** » وفيه مبحث عنوانه : «فصل فى أسمائه (ﷺ) وما تضمنته من فضيلته » ومما جاء فيه « .. حدثنا مالك عن ابن شهاب عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال قال رسول الله (ﷺ) :

« لى خمسةُ أسماءٍ : أنا محمدُ ، وأنا أحمدُ ، وأنا الماحِي الذى يمحو بى اللهُ الكفرَ ، وأنا الحاشرُ الذى يُحشرُ الناسُ على قدمِي ، وأنا العاقبُ .. »

وقد سماه الله تعالى فى كتابه محمداً وأحمدَ ، فمن خصائصه تعالى أن ضمَّنَ أسماءَه (الرسول) ثناءَه (الله) ، فطوى أثناءَ ذكره عظيمَ شكره .

فأما اسمه أحمد : فأفعل مبالغةً من صفة الحمْد .

ومحمد : مفعل مبالغة من كثرة الحمد .

فهو – ﷺ – أجلُّ منِ حَمد ، وأفضلُ من حُمد ، وأكثر الناس حمْدًا ، فهو أحمدُ المحمودين ، وأحمدُ الحامدين ، ومعه لواءُ الحمدِ يومَ القيامة، ليتمَّ له كمال الحمد ... »

ثم يشير إلى دلالة جديدة لا سميْ محمد وأحمد فيقول :

« فى هذين الاسميْن من عجائب خصائصه وبدائع آياته فن [1] آخر ، هو أن الله – جل اسمه – حمَى [2] أنْ يُسمَّى بهما أحدٌ قبلِ زمانه . أما أحمدُ الذى جاء فى الكُتُب [السابقة] وبشّرتْ به الأنبياء ، فمنعَ اللهُ بحكمته أن يُسمىَّ به أحدٌ غيره ، ولا يُدْعَى به مَدْعُوٌ قبله ، حتى لا يدخل لبْسٌ على ضعيف القلب أو شَكٌّ.

كذلك محمد – أيضا – لم يُسمَّ به أحدُ من العرب ولا غيرِهم إلى أن شاع قبل وجوده (ﷺ) أن نبيًّا سيبعث اسمه محمد ، فسمَّى قومٌ قليلٌ من العرب أبناءهم بذلك رجاء أن يكون أحدهم هو . والله أعلمُ حيث يجعل رسالته »

ثم يذكر أنه روى عن الرسول (ﷺ) أن من أسمائه : طه ، ويس ، كما يذكر مجموعة من الصفات الأخرى الخاصة به مثل : رسول الرحمة – رسول الراحة – رسول الملاحم – المقفّى – القيِّم . كما يشير إلى أن له بعض أسماء أخرى وردت

(١) فن : مغزى أو معنى .
(٢) حمى : حفظ أو منع .

فى القرآن الكريم .... وصفات أخرى لم تردْ فيه . ويختم هذا الجزء بقوله : «وأوصافه وسماته فى الكتب كثيرة ، وفيما ذكرناه منها مقنعٌ إن شاءَ الله » [1] .

وقد توسَّعَ القاضى عياض فى ذكر الأسماءِ التى تُطلق على الرسول (ﷺ) دون تفرقة أو تحديد بين ما ورد فى القرآن الكريم ، أو الحديث النبوى ، أو عند بعض كُتَّابِ السيرة .. وإنما تداخلتْ الأسماءُ بدرجةٍ كبيرة . وقد أدخل فى أسماء الرسولِ بعض أسماء لم يُسمع بها من قبل مثل : المقدس ـ روح القدس ـ روح الحق ، إذْ يبدو أنها من تأثير الإسرائيليات .

ولم يكن القاضى عياض وحده هو الذى توسَّعَ فى ذكر الأسماء التى تُطلق على رسولنا الكريم (ﷺ) ، فجلال الدين السيوطى (٨٤٩ ـ ٩١١ هـ) ألف كتابا اسمه « البهجة السنية فِى الأسماء النبوية » ، وقد أحصى فيه حوالى خمسِ مائة اسم . والحقيقةُ أن كثرةَ الأسماء تدلُّ على شرف المسمَّى . وتتبع ماكتبه بعض مؤرخى السيرة العطرة ، وبعض كتابِ الدراسات الدينية أمرٌ يطول شرحه وحديثُ لا تنتهى شئونه ، لأنه :

مُكَمَّلُ الذاتِ في خَلْقٍ وفي خُلُقٍ	وفي صفاتٍ فلا تُحصى فضائله

أو هو كما قال شاعر آخر : [2]

محمدُ صفوة الباري ورحمته	وبغيــة الله من خلقٍ ومن نسم
سناؤه وسناه الشمس طالعة	فالجرمُ في فلك ، والضوءُ في علم

❁ ❁ ❁

(١) أبو الفضل عياض : الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، دار الفكر ـ بيروت (د.ت) ج ١ ص ٢٢٨ ـ ٢٣٥ .

(٢) البيتان لأحمد شوقى (ج١ ، ص ١٧٩) البارى : الخالق ـ النسم : ج نسمة .. النفس ـ سناء : رفعة ـ سنى : نور ـ الجرم في فلك : الجسد فى مدار خاص ـ الضوء: النور (الشاعر يشير إلى جمال الرسول المادى ، والمعنوى) ـ علم : عالم خاص به .

أولاً : أسمــاء الأعــلام

إن رسولنا المصطفى ... المختار قمينٌ بأن تُطلق عليه أسماءٌ وصفات لا حصرَ لهـا، نظراً لعلو منزلته وخلود رسالتـه ، لكنّ منهـجنا فى تحديد تجليات إطار هذا الحقل الدلالى مستمدّ من آيات الذكر الحكيم . محمد (ﷺ) هو الرسول .. والقرآن الكريم هو الرسالة، فمـا أحْرى أن نعتـصمَ بالرسالة ، لكى نتعرفَ على الرسول (ﷺ) . إن القرآن مفتاحُ كلِ أمرٍ وهادى كل بشرٍ ، ونحن نريد أن نصل إلى الهـدى من أقـوم طـريق . ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [سورة القمر : ١٧] وبناء على أن القرآن الكريم ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت : ٤٢] كان اعتصامنا بالمنظور القرآنى .. والمنهج الربانى ، حتى نستعين بما جاء فيه من حجج ظاهرة وأدلة قاطعة ، لكى نتعرف على الأسماء والصفات التى وردت له (ﷺ) .

١ ـ محمد

ورد اسم محمد (ﷺ) فى القرآن الكريم فى أربعة مواضع هى :

١ ـ ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ [آل عمران : ١٤٤]

٢ ـ ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ [الأحزاب : ٤٠]

٣ ـ ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ [محمد : ٢]

٤ ـ ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح : ٢٩]

هذه هى المواضع الأربعة التى ورد فيـها الاسم العلم الخاص بالرسول (ﷺ) .. وهو أشهر أسمائه جميعا وأشرفها . ومحمّد : اسم مفعول بمعنى محمود .

ويروى أن عبد المطلب سُئل حين سمىّ حفيده (محمداً)، ورغب عن الأسماء الشائعة فى عصره قال : « أردتُ أن يكون محمودا فى السماء لله ، وفى الأرض

لخليقه ... » [1] .

ويذهب القاضي عياض أن اسم (محمد) كان نادراً .. ولم يُسمَّ أحدٌ بهذا الاسم سوى ستة أشخاص فقط .. « أما سابعهم وأفضلهم بل أفضل الخلق أجمعين فهو محمد بن عبد الله ... » [2] .

ومن المعروف أيضا أن هناك سورة في القرآن الكريم تسمى « سورة محمد » ، وهى سورة مدنية ورقمها (٤٧) ، وعدد آياتها ثمان وثلاثون .

❁❁❁

٢ ـ أحـــمد

ورد هذا الإسم مرة واحدة في القرآن الكريم :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف : ٦] .

أحمد : اسم تفضيل على وزن أفعل ، يدل على المبالغة فى صفة الحمد ، أى أنه أكثر الناس حمدا لله . وإذا كان هناك بعض من سمى بمحمد ... فليس هناك من سمىٍّ بأحمد قبل الرسول(ﷺ) . وهذا تكريم وتشريف ، ليتمَّ له كمال الحمد.

❁❁❁

٣ ـ طــه

ورد ـ في الذكر الحكيم ـ مرة واحدة فى سورة تحمل الاسم نفسه : ﴿ طه(١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴾ [طه: ١ ـ ٢] يفهم مما جاء فى « لسان العرب » أن كلمة طه ـ تعنى يارجل أو يا إنسان وهى كلمة سامية قديمة ، دخلت من السوريانية أو النبطية أو الحبشية ثم عُرِّبت .

وقد ورد فى مادة «طهطه» : فرس طهطاهٌ : أىْ مُطَهَّم وفتىٌ ورائعٌ [3] .

وذكر القاضى عياض فى تفسير اسم طه : « قيل إنه ياطاهر ، ياهادى ، يعنى النبىّ (ﷺ) . قال تعالى له : ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ [4] .

---

(١) هيكل : حياة محمد ، ص ١٢٦ .

(٢) القاضي عياض : الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ ج ١ ، ص ٢٣٠ .

(٣) ابن منظور : لسان العرب ـ دار المعارف ، القاهرة ، ج ٤ ، ص ٢٧١٤ .

(٤) أبو الفضل عياض : الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، ج ١ ص ٢١٤ .

وقد ورد فى تفسير الطبرى :

« يروى عن ابن عباس قوله : « طه .. يارجل » ، وقيل إنها كلمة نبطية عربت.

ومما يؤكد أن كلمة (طه) معناها يارجل قول متمم بن نويرة :

هتفتُ بطه في القتال فلم يُجبْ فخِفْتُ عليه أنْ يكون مُوائـلا

وعلى هذا يكون معنى الآية الكريمة : يارجل أو يا إنسان ، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، أى لتتعب فى العبادة .

وقال آخرون : « طه اسم من أسماء الله ـ أوْ .. قسم أقْسمَ اللهُ به » (١) .

« وعن أنس أنه قال : كان النَبى (ﷺ) إذا صلى صلى على رجل ورفع الآخرى [كناية عن تورم قدميه من كثرة الصلاة] ، فأنزل الله تعالى (طه) يعنى طأ الأرض يا محمد ـ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ... ثم قال : ولا يخفى ما فى هذا من الإكرام وحسن المعاملة » (٢) .

هذا التفسير يرد عند كثير من المفسرين .. وعند القاضى عياض فى « الشفا » منسوبا إلى الربيع بن أنس (٣) .

وقد ورد فى تفسير كلمة (طه) فى تفسير القرطبى : « إنها غير عربية ... وقيل إنها لغة يمنية فى قبائل عكّ وطّيء وعَكَل . وقيل هو اسم من أسماء الله .. وقيل اسم للسورة ومفتاح لها . وقال ابن عباس معناها يارجل. وقال الكلبى لو قلت فى قبيلة عكّ للرجل يارجل لم يجب ، تقول له ياطه . وأنشد فى ذلك :

دعوتُ بطه في القتال فلم يُجبْ فخفتُ عليه أن يكون مُوائـلا

وقال عبد الله بن عمر : معنى ياطه : يا حبيبى بلغة (قبيلة) عكّ . وقال قُطرب هو بلغة طيىء ، وأنشد ليزيد بن المهلهل :

إن السفاهة طه من شمائلكم لا بارك اللهُ في القوم الملاعين

قال عكرمة أيضا هو كقولك يارجل بلسان أهل الحبشة .

ويعلّق القرطبى على هذا بقوله : والصحيح أنها وإنْ وُجدتْ فى لغة أخرى ، فإنها من لغات العرب .

وقيل إن معنى طه : طإ الأرضَ، ذلك أن النبى (ﷺ) كان يتحمّلُ من مشقة

(١) محمد بن جرير الطبري : جامع البيان فى تأويل القرآن، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ج ٨ ، ص ٣٩
(٢) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، دار المعرفة ـ بيروت ـ ج ٣ ، ص ١٤٩ .
(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ ج ١ ، ص ٤٢ .

الصلاة حتى كادتْ قدماه تتورمان ، ويحتاج إلى الترويح بين قدميه ، فقيل له : طإ الأرض ، أىْ لا تتعب حتى لا تحتاج إلى الترويح ... وأن الأصل (طأْ) ، ثم قُلبتْ الهمزة هاء .

قال الكلبى : لما نزل الوحىُ على النبىِّ وهو بمكة اجتَهد فى العبادة ، واشتدتْ عبادته فجعل يُصلى الليل كله زمانا ، حتى نزلتْ هذه الآية ، فأمره الله تعالى أنْ يخفف عن نفسه ، فيصلى وينام .ويمكن أن يكون (طاها) .. طا هى طأْ ـ والضمير ها يعود على الأرض .. أىْ طأْ الأرض .

ثم ختم التفسير بقوله : وأغلبُ ما اتُّفق عليه أن معناها يارجل أو يا إنسان ، وأنها أحد أسمائه الشريفة (ﷺ) ... » [1] .

خلاصة لكل ما تقدم .. فإننا نميل إلى كون كلمة (طه) غير عربية الأصل .. ومعناها : يارجل أو يا إنسان . وقد دخلت العربية عن طريق إحدى اللغات السامية القديمة . وقد اُستخدمتْ على أنها اسمُ علم للرسول (ﷺ) . وقد روى عن الرسول فى بعض أحاديثه الشريفة ما يؤكد هذه التسمية الخاصة به . ويبدو ـ والله تعالى أعلم وأعزُّ أكرم ـ أن هذا الاسم لم يُسَّم به أحدُ قبله من العرب . وفى هذا تكريم وتشريف للرسول الأمين (ﷺ) .

❁ ❁ ❁

٤ ـ يس

كلمة يس ـ باعتبارها اسم علم ـ من الأسماء التى تطلق ـ أيضا ـ على الرسول (ﷺ) . ويبدو أيضا أنه ـ مثل طه ـ اسمٌ لم يسمَّ به أحدٌ قبله .. وهذا تشريفٌ لمقامه العظيم كما ذكرنا . ولايزال هذا الاسم مثل طه أيضا يستخدم فى تسمية بعض الرجال ، وإن كان يكتب أحيانا بخط مختلف (ياسين) . وقد ورد ذكره مرة واحدة فى سورة تحمل الاسم ذاته :

﴿ يسٓ ① وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ② إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ③ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [يس : ١ ـ ٤] .

(١) أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، ط الهيئة المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٨٧ ـ ج ١١ ، ص ١٥٤ .

« يرى بعضُ المفسّرين أنها تعدُّ حروفًا مثل الحروف التى تبدأ بها بعضُ السور. ويقول عكرمة إن معناها يا إنسان ، لأن الله تعالى قال بعدها مخاطبا رسوله : ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾[1] ويذكر القاضي عياض أن معناها ياسيد [2] .

يذكر ابن جرير الطبرى : « قيل قسم أقسم اللهُ به ــ وهو من أسماء الله تعالى. وقيل معناه : يارجل، وينسب إلى ابن عباس أن معناه يا إنسان بالحبشية ، وقيل هو اسم من أسماء القرآن » [3] .

ويذكر ابن كثير أن «يس» بمعنى يا إنسان .. وقيل أيضا : إنها اسم من أسماء الله تعالى . [4].

هكذا نجد أن كثيراً مما يُروى فى تفسير كلمتىْ طه ويس متقارب إلى حد كبير، فالبعضُ يذكر أنها حروفٌ مقطّعة ــ والآخر يذكر أنها اسمُ لله سبحانه وتعالى . لكن الروايات الأكثر تجمع على أنهما كلمتان دخلتا إلى العربية عن طريق إحدى اللغات السامية القديمة وأن دلالتهما تعنى : يارجلُ ــ يا إنسانُ ــ ياسيِّدُ ، وهذا يعنى أن الرجولة والإنسانية والسيادة لم تتحقق فى أحد مثلما تحققتْ فى شخصية الرسول (ﷺ) . هذا ما وصفه الله به في القرآن الكريم ، وخصّه بهذيْن الإسمْين اللذيْن لم يُسّم بهما أحدُ قبله فيما نظنُّ ونرجِّحُ .

وكون الكلمتيْن من جذور لغوية سامية قديمة ، يعنى قدراً من التكريم والتميُّز من الله سبحانه وتعالى لرسوله الصادق الأمين ، لأن فى هذا إشارةً بعيدةً لتكريم الحبيب المصطفى عند أصحاب تلك اللغات . كما أن إطلاقهما على الرسول (ﷺ) تنبيه للعرب أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ قد خصه بأسماء، لم يُسمَّ بها أحدُ قبله من قومه.

---

(١) ابن منظور : لسان العرب ــ ج ٣ ، ص ٢١٧٣ .
(٢) أبو الفضل عياض : الشفا بتعريف حقوق المصطفى ــ ج ١ ، ٢٣١ .
(٣) ابن جرير : جامع البيان ــ ج ١٠ ، ص ٤٢٤ .
(٤) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ــ ج ٣ ، ٥٧١ .

إحصـــاء بأسمـاء الأعــلام

مسلسل	الاســم	العدد	الموضع
١	محمد	٤	آل عمران ـ ١٤٤ الأحــزاب ـ ٤٠ مــحــمــد ـ ٢ الفــتــح ـ ٢٩
٢	أحـمد	١	الــصــف ـ ٦
٣	طــه	١	طـــــــه ـ ١
٤	يـس	١	يـــــس ـ ١

ثانياً : صفات الرسول في القرآن

يصعب على أىّ دارس لسيرة المصطفى العطرة أن يحصى الصفات والفضائلَ التى يمكن أن ينعتَ بها (ﷺ) ، لأنه النبى المختار .. والسراج المنير .. الذى استطاع أن يخرج البشرية من ظُلمات الكفر والشرك إلى نور الإيمان والتوحيد . وقد جمعتْ كتبُ تفسير القرآن الكريم والسنة الشريفة والسير والمغازى والتاريخ العربى والفقه الإسلامى من صفاته الكريمة ما يصعُب على الحصْر والعدّ . ناهيكَ عن شعْر المديح النبوىّ وما يتصل به من شعر دينىّ .

ويكفى رسولنا الكريم تشريفًا من ربّ العزة سبحانه وتعالى أنْ جعلَ شهادة التوحيد مكونةً من قسميْن : لا إله ألا الله ـ محمد رسول الله . كما أن الله جل فى علاه يُصلى عليه هو وملائكته والمؤمنون برسالته ، كذلك جعل سبحانه : ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء :٨٠] .

« ولله درُّ محمد بن محمد الجزرى حيث يقول :

خـلايَ إن شطَّ الحبيبُ وربعُه ... وعزّ تلاقيه وناءت منازلُه

وفاتكم أنْ تبصروه بعيونكم ... فما فاتكم وصفُ فهذي شمائلُه

مكمَّلُ الذاتِ في خَلق وفي خُلق ... وفي صفاتٍ فلا تُحصى فضائله[1]

ثمة مجموعةٌ من الكتب عُنيتْ بالحديث عن صفات الرسول (ﷺ)، وهى تدرس السيرة العطرة ... من أهمها :

١ ـ أبو عيسى الترمذى : الشمائل المحمدية .

٢ ـ محمد بن جرير الطبرى : تاريخ الأمم والملوك .

٣ ـ أبو محمد عبد الله الأصبهانى : أخلاق النبى وآدابه .

٤ ـ ابن كثير القرشى : البداية والنهاية .

٥ ـ القاضى عياض اليحصبى : الشفا بتعريف حقوق المصطفى .

(١) أبو عيسى الترمذى : الشمائل المحمدية ، ص ٨

٦ ـ أبو محمد الحسين البغوى : الأنوار فى شمائل النبى المختار .
٧ ـ جلال الدين السيوطى : البهجة السنية فى الأسماء النبوية .
٨ ـ الحافظ مغلطاى بن قليج : الإشارة إلى سيرة المصطفى .
٩ ـ الحافظ محمد بن عتيق الغرناطى : مطالع الأنوار فى شمائل المختار .
١٠ ـ زين الدين محمد المناوى: الروض الباسم فى شمائل المصطفى أبى القاسم.
١١ ـ يوسف بن اسماعيل النّبهانى : وسائل الوصول إلى شمائل الرسول .
١٢ ـ محمد بن محمد الروضى المالكى : كشف اللثام عما جاء من الأحاديث النبوية فى شمائل المصطفى عليه الصلاة والسلام .
١٣ ـ بير محمد دده بن مصطفى : الوسيلة العظمى فى شمائل المصطفى خير الورى .
١٤ ـ محمد ثابت بن عبد الله القيصرى : عين الرحمة والنور فى شمائل النبى المبرور .
١٥ ـ حبيب الله القنوجى : روضة النبى فى الشمائل .
١٦ ـ شعبان محمد اسماعيل : من خصائص النبى وشمائله
١٧ ـ صفى الدين المباركفورى (هندى) : الرحيق المختوم .
١٨ ـ إبراهيم العلى : صحيح السيرة النبوية .
١٩ ـ محمد عزة دروزة : سيرة الرسول .
٢٠ ـ منير محمد غضبان : فقه السيرة النبوية .

❁ ❁ ❁

الحديثُ إذْن عن صفات الرسول (ﷺ) وما يجب أنْ يُنسب إليه ، مجالٌ تقصُر دونَه الخُطى ، وميدانُ تحارُ فيه القطا ، لذلك نلجأ إلى كتاب الله الكريم ، ونتضرَّعَ إليه خاضعين : ﴿ سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) الفضل منك وإليك.. نلوذ بك ونعتمد عليك .. فى بيان صفات رسولك المطاع

(*) لمزيد من أسماء الكتب والدراسات يراجع :
ـ فهرس السيرة النبوية : إعداد قسم الفهرسة ـ معهد البحوث ـ جامعة أم القرى ـ مكة المكرمة ١٤١٦ هـ .
(١) البقرة : ٣٢ .

الأمين ، مما ذكرته عنه في القرآن العظيم يا أرحم الراحمين . ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (١) .

١ ـ رســـولُ الله

يصعب تتبع ما اشتق من الجذر اللغوى للفعل (أُرسل) بمعنى : بُعث برسالة ـ فى القرآن الكريم ـ على مستوى الفعل الماضي والمضارع ، أو الإفراد والجمع ، أو الاسم المجرد من الإضافة والمضاف . وقد وردت كلمة رسول باعتبارها صفة مشتركةً لأولِي العزم من الرسل أجمعين . لكنها بالنسبة للنبى محمدٍ صارتْ أولَ وأهمَّ صفة تطلق عليه .. فهو « رسولُ الله » الذى أرسله بالهدى ودين الحق . وكلمة رسول : صيغة مبالغة على وزن (فعول) ، وهى تدل على المبالغة فى عمل الفعل وهو تبليغ الرسالة .

ومن المعروف أن ثمة فروقًا جوهرية بين كلمتَى نبيٍّ ورسولٍ : فالنبيُّ يُبعثُ إلى قومٍ ليهديهم ، وقد يكون معززاً برسالة مكتوبة ، وقد لايكونُ مثل صالح وشعيب ولوط ويونس وإدريس عليهم السلام . أما الرسول فيبعث لقومه خاصة وللناس كافة، ويؤيّده الله بمعجزات معروفة وصحف مكتوبة مثل : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام . وعلى هذا فإن كلَّ رسول نبى ، وليس كلُّ نبّيٍ رسولا .

ومن الآيات الكريمة التى ورد فيها هذا النعت ـ الذى يعدُّ أهم الصفات الشريفة التى أُطلقتْ على نبيِّنا الكريم ـ محمد رسول الله ﷺ . وسوف نختار بعضًا منها فقط ـ على سبيل المثال لا الحصر :

١ ـ ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ [آل عمران : ١٤٤](٢) .

٢ ـ ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة : ٦٧] .

٣ ـ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨]

٤ ـ ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾

(١) آل عمران : ٥٣ .
(٢) خلت : سبقت .

[الفتح : ٢٨ ، ٢٩] (١).

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٣٨]

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ [الأحزاب : ٢١] (٢) .

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ [الأحزاب:٤٠] .

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ [الحشر : ٧] .

❁❁❁

٢ ـ النــبىُّ

كلمة النبى من التسميات والصفات الواردة فى القرآن الكريم على أساس أنها اسم أوْ صفةُ لرسولنا الكريم (ﷺ) أو لغيره من الرسل والأنبياء . وكلمتا نبى ورسول : تحملان قدرا من الدلالة المشتركة. ونبىٌّ : أصلها نبىء على وزن فعيل، ولكن حدث فيها تخفيفُ للهمزة وهى آراميةُ الأصل ومعناها : رسول . والنبى هو الذى يخبر بما أنزله اللهُ عليه ، على أساس أن الكلمة مشتقة من الفعل « نبأ » كما يذكر ابن منظور (٣) .

وقد وردتْ هذه الكلمة على أساس أنها اسم .. أوْ صفة للرسول (ﷺ) فى آيات كثيرة ، نقدم بعضاً منها على سبيل المثال :

١ ـ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال : ٦٤] .

٢ ـ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : ٧٣] (٤) .

٣ ـ ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ ﴾ [التوبة : ١١٧] .

٤ ـ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ [الأحزاب :٤٥] .

---

(١) الدين كله : الأديان كلها .
(٢) أسوة : قدوة ، مثل أعلى .
(٣) لسان العرب ـ طبعة بيروت ـ ج ١٤ ، ص ٩ .
(٤) اغلظ عليهم : شدد عليهم .

٥ ـ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ [التحريم : ١] .
٦ ـ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التحريم : ٩] .

✿✿✿

٣ ـ عبدُ الله (= عبده)

التأكيد على عبودية الرسول لله أمرٌ لازب ، حتى يعرف الثقلان أن محمدا ـ رغم المكانة العالية والمنزلة الرفيعة التى منحها رب العالمين إيّاه ـ عبدٌ من عباد الله. والرسول نفسه يعترف بهذا فى أكثر من آية كريمة .. من ذلك على سبيل المثال:

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ [الكهف : ١١٠][(١)] .
﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء : ٩٣] .

وتأكيدا لعبودية محمد لخالقه ومولاه ، وجدنا كثيرا من الآيات الكريمة تأتى كلمة (عبد) فيها مضافة إلى الضمير الغائب (الهاء) دلالة على قوة علاقة العبد بربه والرسول بخالقه ، ومن تلك المواضع :

١ ـ ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء : ١] [(٢)].
٢ ـ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴾ [الكهف:١][(٣)] .
٣ ـ ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] .
٤ ـ ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ [النجم : ١٠] .
٥ ـ ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [الحديد : ٩] .

وأكثر ما اطلعنا عليه من كتب التفسير لا يقدم شرحا لكمة (عبده) إلا ما يدل على أن المقصود بها هو الرسول (ﷺ) ، حتى جار الله الزمخشرى (ت ٥٢٨ هـ) وهو من أهم المفسرين الذين يعنون بالجانبين اللغوى والبلاغى ، لكن لفظ الجلالة استبدل بضمير الغائب فى آية كريمة واحدة هى :

﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ [الجن : ١٩] [(٤)] .

(١) بشر : إنسان .
(٢) أسرى : السرى : السير ليلا .
(٣) عوجا : اختلافا ، اختلالا . وهى عكس قيم : بمعنى مستقيم ومعتدل .
(٤) عليه لبدا : متراكمين فى ازدحامهم عليه .

ويفسر الزمخشرى (عبد الله) فى الآية بأن « المقصود بها هو الرسول (ﷺ) .. ونظرا لأن الكلام واقع فى سياق حديث الرسول عن نفسه ، جيء به على ما يقتضيه التواضع والتذلل لله سبحانه » (١) .

والرسول يعترف بعبوديته لله سبحانه وتعالى وتواضعه فى أحاديث كثيرة ، منها على سبيل المثال : عن عبد الله بن عباس عن عمر بن الخطاب قال :

« قال رسول الله (ﷺ) : **لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، إنما أنا عبد الله ، فقولوا : عبد الله ورسوله** » (٢) .

❁❁❁

٤ ـ بَشَر

وصف القرآن الرسول (ﷺ) فى أكثر من آية بأنه بشر .. أىْ إنسان عادى مثل بقية الناس . لكن الله فضّله بالنبوة وشرفه بالرسالة . وبشرية الرسول تلك هى التى جعلت بعض الكفّار يحارون فى أمره ويتعجبون من نبوته . ومن المعلوم أن الصفات السامية للبشر تصدق على الأنبياء ، لكن صفات الأنبياء لا تصدق على البشر. فالرسول ليس ملاكا ، لكنه إنسان يتبع ما يوحى إليه من ربه .

ومن المواضع الكريمة التى وردت فيها تلك الصفة البشرية :

﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾ [الكهف : ١١٠] .

﴿ **قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا** ﴾ [الإسراء : ٩٣] .

﴿ **وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ** ﴾ [الأنبياء : ٣٤] .

ويذكر ابن كثير فى تفسير آية سورة الكهف : يقول تعالى لرسوله (ﷺ) : قل لهؤلاء المكذبين برسالتك إليهم ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ** ﴾ (٣) .

❁❁❁

(١) الزمخشرى : الكشاف ـ ج ٤ ، ص ٦٣٠ .
(٢) الشمائل المحمدية ، ص ٢٧١ ـ الإطراء : المبالغة فى المدح .
(٣) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ـ ج ٢ ، ص ١١٤ .

٥ ـ بَشيرٌ ومُبشّرٌ

كلمة بشير ـ صيغة صرفية على وزن فعيل ، وكلمة مبشر ـ صيغة اسم فاعل من الفعل المزيد بالتضعيف (بشّر) ، وكلتاهما تعودان إلى جذر لغوى واحد هو الفعل بشر بمعنى فرح وسُرّ .

ومن المعروف ـ نحوياً ـ أن صيغةَ المبالغة صفةٌ مشبهةٌ باسم الفاعل ، وتنوبُ عنه فى العمل النحوى ، وإن كانتْ تزيدُ درجةً فى تأدية المعنى ، لأنها تدل على المبالغة والكثرة فى عمل الفعل والقيام به ـ وهو هنا التبشير بما أعدّه الله سبحانه للمؤمنين من فضلٍ عميم وخير عظيم فى الدنيا والآخرة .

فالبشيرُ والمبشّر هو الذى يأتى بالبُشرى والفرحة ، وينبىءُ بخبرٍ سعيد ، يحدثُ فى المستقبل لمن أطاع الرسول واستجابَ لدعوة الحق .

أما النذير والمنذر فتؤديان الدلالة المقابلة تماما . ومعنى قوله تعالى :

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ [البقرة :١١٩] .

أى بشيـرا للمـؤمنين بجـزيل الثـواب، وهو رضـاء الله ودخـول الجنة ، ونذيراً للكافرين بغضب الله ووبيل العقاب ودخول النار .

وهذه بعض المواضع التى وردت فيها كلمتا بشير ومبشر :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ [البقرة :١١٩] .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ [سبأ : ٢٨] .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ [فاطر : ٢٤] .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ [الإسراء : ١٠٥] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ [الأحزاب : ٤٥] .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ [الفتح : ٨] .

✿✿✿

٦ ـ نَـذيرٌ ومُـنْذر

كلمتا نذير ومنذر .. مثل بشير ومبشّر متوازيتان فى الصيغة (صيغة مبالغة + اسم فاعل) ومتقابلتان فى الدلالة . وتأتيان فى كثير من آيات الذكر الحكيم في سياق واحد ، تأكيدا على أن الرسول (ﷺ) مبشر وبشير للمؤمنين ، ومنذر ونذير للكافرين، أى أنه مرسل بالوعد والوعيد فى آن واحد .

ومن الآيات الكريمة التى وردت فيها هاتان الصفتان ـ اللتان هما فى الحقيقة صفة واحدة :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ : ٢٨] .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [فاطر : ٢٤] .

﴿ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [هود : ١٢] .

﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد : ١٢] .

﴿ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلاَّ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [ص : ٦٥] .

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء:١٩٣ـ١٩٤] .

ومن الجدير بالذكر أن كلمتي مبشر ومنذر قد وردتا صفة للرسول (ﷺ) .. ولغيره من الأنبياء : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢١٣] .

✿ ✿ ✿

٧ ـ شاهدُ وشَهيدُ

شاهد وشهيد . اسم فاعل ، وصيغة مبالغة ، وقد وردت الكلمتان على أنهما صفتان للرسول (ﷺ) دلالة على أنه شاهد ومقرٌّ لله سبحانه وتعالى ـ بالواحدانية .

كما أنه ـ أيضا ـ شاهد ومراقب على الناس ـ من آمن منهم ومن كفر ـ فى الدنيا والآخرة ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ﴾ يقول الزمخشرى : « شاهدا على ما بعث إليهم وعلى تكذيبهم وتصديقهم ، أى مقبولا قولك عند الله لهم وعليهم، كما يقبل قول الشاهد عدل فى الحكم ، وأعربها على أنها (حال) مقدرة لما سوف يكون يوم القيامة » [١] . ومن الآيات التي وردت فيها الكلمتان :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ [الأحزاب : ٤٥] .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شاهداً ومُبَشِّراً ونذيراً ﴾[الفتح : ٨] .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنا إِلَيْكُمْ رسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ ﴾ [المزمل :١٥] .

﴿ فَكَيْف إِذَا جئْنَا من كُلِّ أُمَّةٍ بشَهيد وَجئْنَا بكَ عَلَىٰ هَؤُلاء شَهيداً ﴾ [النساء : ٤١]

﴿ ويَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَىٰ هَؤُلاءِ ﴾ [النحل : ٨٩]

﴿ وَفِي هذا ليَكُون الرَّسُولُ شهيداً عَلَيْكُمْ ﴾ [الحج : ٧٨] .

❁❁❁

٨ ـ الهـادى

الهادى ... اسم فاعل من الفعل (هَدَى) ، وهو مَنْ يرشدُ الناسَ ، ويدلهم إلى طريق الخير والحق .. وهو دين الله الحنيف . وهذه الصفة ترد فى القرآن الكريم لله سبحانه وتعالى وللرسول (ﷺ) ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّه هُوَ الْهُدَىٰ ﴾ [البقرة : ١١٩] .

وهنا نشير إلى ملاحظة غاية فى الأهمية : وهى أنه ترد فى القرآن الكريم ـ أحيانا ـ بعض صفات مشتركة بين الله ورسوله ، وهذا يوضح مدى تكريم الله له

---

(١) الزمخشرى الكشاف ـ ج ٢ ، ص ٥٤٦

وتفضيله إياه بما لم يخص به أحدا غيره من خلقه أجمعين ، سواء من البشر أو من الملائكة المكرمين . روى أبو سعيد الخدرى أن النبى (ﷺ) قال : « أتانى جبريل عليه السلام فقال : إن ربى وربك يقول : تدرى كيف رفعت ذكرك ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : إذا ذكرت ذكرت معى . » (١) .

ومعنى هذا أن الرسول (ﷺ) أعْلى الخلقِ قدراً ، وأعظمهم فضْلا .. « واعلم نور الله قلبى وقلبك ، وضاعف فى هذا النبى الكريم حبى وحبك ، أنك إذا نظرت إلى خصال الكمال التى هى غير مكتسبة وفى جبلة الخلقة ، وجدته (ﷺ) حائزا لجميعها ، محيطا بشتات محاسنها .. » (٢) .

من الآيات الكريمة التى وردت فيها هذه الصفة :

﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد : ٧] .

﴿ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ ﴾ [الروم : ٥٣] .

وجاء فى تفسير الآية الأولى : « ولكل قوم هاد من الأنبياء يهديهم إلى الدين ، ويدعوهم إلى الله بوجه من الهداية وبآية خص بها ، ولم يجعل الأنبياء شرعا واحدا فى آيات مخصوصة . » (٣) .

❁ ❁ ❁

٩ ـ الأُمّىّ

الأُمّىُّ : صفةٌ تطلق على من لا يَعرفُ القراءة والكتابة ، وهى صفة تُنسبُ إلى الرسول (ﷺ) فى القرآن ـ كما نُسبتْ له من قبل فى التوراة والإنجيل ، حيث بشّرتا ببعثه وظهوره (ﷺ) . وقد وردت هذه الصفة للرسول (ﷺ) فى آيتين متتالتين من سورة الأعراف [١٥٧ ، ١٥٨] .

وهذا التكرار تأكيدٌ لإقناعِ البشرِ عامة ـ والكتابيّين (اليهود والنصارى) خاصة ـ بصدق دعوة محمد ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ

---

(١) القاضى عياض : الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، ج ١ ص ٢ .
(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ ج ١ ، ص ٥٨ .
(٣) الزمخشرى : الكشاف ـ ج ١ ، ص ٥١٤ .

مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٧ ، ١٥٨] .

فإثبات صفة الأمية للرسول (ﷺ) كان أمراً ضرورياً لإقناع الكتابيين ـ وغيرهم ـ أن ذلك الرسول الأمي هو الذى جاء بالقرآن المعجز الذى أوحاه إليه رب العزة . وهذا نفى قاطع لكونه شاعراً أو ساحرا أو كاهناً .. أو مؤلفًا للقرآن ، وذلك ما تؤكده آية أخرى هى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٨] .

ويعلّق ابن جرير الطبرى على تفسير الآية (١٥٨) من الأعراف بقوله :

« والصواب من القول فى ذلك عندنا أن الله ـ تعالى ذكره ـ أمر عباده أن يصدقوا بنبوة النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته . ولم يخصص ـ جل ثناؤه ـ الجزء من « كلمات الله » ببعض دون بعض ، بل أخبرهم عن جميع «الكلمات ، فالحق فى ذلك أن يعم القول ، فإن رسول الله (ﷺ) كان يؤمن بكلمات الله كلها على ما جاء به ظاهر كتاب الله » [1] .

❁ ❁ ❁

١٠ ـ كـــريم

كريم : صيغة مبالغة على وزن فعيل . وهى من الصفات المشتركة بين الله ورسوله . وقد أطلقها المولى ـ عزّ وجل ـ عليه تشريفًا له وتعظيماً لقدره .

﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ [الحاقة: ٣٨ ـ ٤٠] .

يذكر ابن كثير فى تفسير الآيات : « يقول تعالى مُقْسمًا لخلقه بما يشاهدونه

---

(١) تفسير الطبرى : ج ٦ ، ص ٨٨ .

من آياته فى مخلوقاته الدالة على كماله فى أسمائه وصفاته ، وما غابَ عنهم مما لايشاهدونه من المغيّباتِ عنهم ـ إن القرآن كلامُه ووحيه وتنزيله على عبده ورسوله الذى اصطفيناه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة ... ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ يعنى محمدا (ﷺ) أضافه إليه على معنى التبليغ ، لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسل » (١) .

فابن كثير يفسر ﴿ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ فى آية الحاقة بأنه محمد (ﷺ) على حين يفسر الرسول الكريم فى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ [التكوير : ١٩] الواردة فى سورة التكوير بأنه جبريل عليه السلام ، فيذكر « قوله تعالى .. ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ يعنى : أن هذا القرآن لتبليغ رسول كريم ، أى ملك شريف حسن الخلق بهى المنظر ، وهو جبريل عليه الصلاة والسلام » (٢) .

معنى هذا أن كلمة (كريم) صفة تطلق فى القرآن على :

أ ـ الله سبحانه وتعالى .

ب ـ القرآن العظيم .

ج ـ الرسول محمد (ﷺ) .

د ـ جبريل عليه السلام .

معرفة السياق اللغوى ـ إذن ـ أمر مهم جدا فى تحديد الدلالات المتنوعة للكلمة الواحدة ، خاصة فى مجال تفسير النص القرآنى .

❁ ❁ ❁

١١ ـ خاتم النبيين

وصف الرسول (ﷺ) بهذه الصفة فى آية واحدة هى :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٤٠] .

---

(١) تفسير ابن كثير : ج ٤ ، ص ٤٤٥ .
(٢) تفسير ابن كثير ـ ج ٤ ، ص ٥١٢ .

من رحمة الله تعالى بالعباد إرسال محمد (ﷺ) إليهم ، ومن تشريفه للرسول أنْ جعله خاتم الأنبياء .. « فهذه الآية نصٌّ فى أنه لا نبيَّ بعده ، وإذا كان لا نبى بعده فلا رسول بالطريق الأوْلى والأحْرى ، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة ، فإن كلَّ رسول نبى ولا ينعكس ... قال (ﷺ) : « مثلى ومثل الأنبياء كمثلِ رجلٍ بنى داراً ، فأكمَلها وأحسنها إلا موضعَ لَبِنة ، كان منْ دخلها ونظر إليها قال : ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة . فأنا موضع اللبنة ، ختم بى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام » .

وفى حديثٍ آخر يقول المصطفى (ﷺ) : « فُضِّلتُ بست : أُعْطيتُ جوامعَ الكلم ، ونُصِرتُ بالرعب ، وأُحِلَّتْ لى الغنائم ، وجُعلتْ لى الأرض مسجداً وطهورا ، وأرسلت إلى الخلْق كافةً ، وخُتم بى النبيون » (١) .

ويقولُ أحدُ المفسرين المعاصرين فى تفسير قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّه وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ . إن الرسول (ﷺ) ليس أبَ أحدٍ من المؤمنين على جهة النسب ، ولكنَّه بمنزلة الأبِّ الروحى لكل المؤمنين باعتباره نبيا ورسولا ، وهو أحنُّ على كل واحدٍ منهم من والدْيه ، وأحرص على مصلحته منه هو بحرصه على مصلحة نفسه ، فكان (ﷺ) بنصِّ القرآن الكريم أوْلى بالمؤمنين من أنفسهم .

إن الآيةَ الكريمة تُثبتُ للمصطفى (ﷺ) ثلاثة من مظاهر فضْل الله عليه : الأول : كونه رسولا ، والثانى كونه نبيًا ، والثالث : كونه خاتمَ الأنبياء والمرسلين . عن أنس رضى الله عنه ، قال (ﷺ) : « إن الرسالة والنبوة قد انقطعتْ ، فلا رسولَ بعْدى ولا نبيَّ » (٢) .

معنى ذلك أن من نعمة الله على الرسول (ﷺ) وأمته ، أنه كان خاتم الرسُلِ والأنبياء ، وهو ختامُ مسكٍ وفضل عظيم لرسولٍ كريم ، ليكون هو العاقب الذى لا نبيَّ بعده ، وتكون رسالتُه هى الرسالة المهيمنةُ على كلِّ ما سبقها ، وتظل باقيةً

(١) تفسير ابن كثير : ج ٣ ، ص ٥٠١ .
(٢) د. حسن محمد باجودة : تأملات فى سورة الأحزاب ، ط نادى مكة الثقافى ، ١٤٠١ = ١٩٨١ ، ص٦٣٠ وما بعدها .

تهدى الخلق إلى أنْ يرث الله الأرضَ ومنْ عليها .

ننتهى إلى أنْ كلمة خاتم (الأنبياء) على وزن فاعل .. وهى القراءة المشهورة ، وقد جاء على هذا الوزن كلماتُ أخرى مثل : آخر ـ طابعَ . وثمةَ قراءةُ ثانية غير مشهورة بكسر التاء أىْ (خاتِم) والصيغتان بالفتح والكسر بمعنى واحد ، هو أن الرسول ﷺ آخرُ الأنبياء زمانا ، وإنْ كان أفضلهم منزلةَ ومكانة ورتبةً .

❁❁❁

١٢ ـ السِّراجُ المــنيرُ

وُصف الرسول (ﷺ) بهذه الصفة فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ [الأحزاب :٤٥ـ ٤٦] « السراج : المصباح الزاهر الذى يسرج ويضىء بالليل .

والشمس : سراجُ النهار .. وهذا يُفهم من قوله تعالى : ﴿وجعلنا سراجا وهاجا﴾ وفى الحديث .. قال (ﷺ) : « عمرُ سراجُ أهل الجنة » .

والمقصود بالآية ـ كما يرى ابن منظور ـ أن الرسول مثل السراج الذى يستضاء به ، أو مثل الشمس فى النور والظهور. والهدى سراجُ المؤمن ـ على التشبيه .

ويذكر الأزهرى فى شرح الآية : وإن جَعلت سراجا نعتا للنبى (ﷺ) كان حسنا، ويكون معناه هاديا . كأنه سراج يهتدى به فى الظُّلَم » [1] .

على هذا يكون معنىَ الآية أن الرسول (ﷺ) مثل الشمس المضيئة فى الظهور والنور ، وكلمة النور ترد كثيرا فى سياق الكلام عن الله سبحانه ، وعن رسالة الإسلام، وعن القرآن الكريم ، وعن جبريلِ عليه السلام ، وعن الرسول (ﷺ) .

ومما يدل على أن كلمة « النور » مقترنةً بمعانى الإيمان والهداية ـ قوله تعالى : ﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ [سورة النور : ٣٥]. ومن الآيات التى تؤكد علاقة كلمة النور ـ أيضا ـ بالسياقات التى ذكرناها من قبل قوله عـز من قائل : ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة : ١٥].

(١) لسان العرب : ح ٣ ، ص ١٩٨٣ ـ ١٩٨٤ .

ولا ريب أن « من صفات السراج المنير أن يُنير للسائرين الطريق . وهذه إحدى صفات المصطفى (ﷺ) التى نص عليها السياق . إن مدلول كل من السراج المنير والأسوة الحسنة واحد ، وإن المصطفى (ﷺ) الشاهد والمبشر والنذير ، والداعى إلى الله تعالى بإذنه والسراج المنير ، هو الأسوة الحسنة للمؤمنين فى كل الصفات التى يعرفون بها ، والنعوت التى يتحلون بها . وفى مقدمتها ذكر الله تعالى ذكرا كثيرا وتسبيحه جل وعلا بكرة وأصيلا » [1] .

❁❁❁

١٣ ـ الداعى إلى الله

داعى : اسم فاعل من الفعل : دعا .. وهو الذى يدعو قومه إلى عبادة الله وطاعته والإيمان به .

وقد نسبت هذه الصفة إلى الرسول (ﷺ) من خلال هذه الآية الكريمة ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الإحزاب : ٤٥ ـ ٤٦] .

ويفسر أبو جعفر الطبرى قوله تعالى : ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ ﴾ .. « داعيا إلى توحيد الله وإفراد الألوهية له ، وإفراد الطاعة لوجهه دون كل من سواه .. وحدثنا سعيد عن قتادة ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ ﴾ إلى شهادة أن لا إله الله وقوله : « بإذنه » بأمرى إياه بذلك » [2] .

❁❁❁

(١) د. حسن محمد باجودة : تأملات فى سورة الأحزاب، ص ٣٧٧ .
(٢) تفسير الطبرى : ج ١٠ ، ص ٣٠٧ .

١٤ ـ المزَّمِّـــــلُ

المزّمّل : صيغة اسم فاعل من الفعل المضعف (زمّل) .. وهو الذى يلْتَفُّ بثيابه بإحكام ، وهى مرادفة لكلمة المدثّر . ويروى أن الرسول (ﷺ) حين نزل عليه الأمينُ جبريل بالوحى أولَ مرة فى غارِ حراء ، وقال له : ﴿ اقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ عاد إلى بيته يرتجف، ويرتعش من هول الموقف قائلا لأهله : « زمّلونى .. دثّرونى» .

ويذكر الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [المزمل : ١ ـ ٢] .

« المزمل هو الذى يتغطى بدثار أو ثياب ، ليقوم بعبادة الله امتثالا لقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [(١)] .

❁❁❁

١٥ ـ المدثـــــر

أطلقت هذه الصفة على الرسول (ﷺ) بعد نزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ [المدثر : ١ ـ ٣] وكلمة المدثر .. مثل المزمل : فى الاشتقاق والمعنى .. كما أن هاتين الصفتين سميت بهما السورتان الكريمتان اللتان وردت فيهما هاتان الصفتان . ويروى أن سورة المزمل نزلت بعد سورة الضحى بمدة قليلة .. ثم انقطع الوحى فترة ، ونزلت سورة المدثر لتحضه على دعوة قومه لعبادة الله سبحانه وتعالى . وهذا ما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ .

❁❁❁

(١) راجع تفسير الزمخشرى ج ٤ ، ص ٤١٨ ـ وتفسير ابن كثير : ج ٤ ص ٢٦٤ ، والآية من سورة الإسراء: ٧٩ .

١٦ ـ رحمةٌ للعالمين

يقول الله تعالى مخاطبا رسوله الكريم :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

إن الله سبحانه أرسل رسوله (ﷺ) بالهدى ودين الحق ، لينقذهم من ظلام الكفر إلىَ نور الإيمان فى الدنيا .. ويحميهم من عذابِ النارِ ويدخلهم الجنةَ فى الآخرة . فالرسولُ هو الرحمةُ المهداةُ إلى العالمين . وهو يؤكد هذا فى حديث رواه أبو هريرة « قيل : يارسول الله ادع على المشركين، قال : إنى لم أبعث لعانا ، وإنما بعثت رحمة » (١) .

فالرسول أرسله ربه رحمة للناس فى الدنيا والآخرة .. كما أنه كان يعامل الناس بالرحمة والحكمة والشفقة .. والقرآن الكريم يؤكد معانى الرحمة أيضا فى شخصية الرسول (ﷺ) فى قوله تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] (٢) .

كان الرسول (ﷺ) رحمة للعالمين ، كذلك فإن الرحمة كانت من أهم صفاته، لأنه ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٢٨] كما أنه يدعو قومه إلى التمسك بالرحمة والشفقة قائلا : « إن الله رفيق يحب الرفق » .

❁❁❁

١٧ ـ الرَّءُوفُ الرحيُم

رءوف (فعول) .. ورحيم (فعيل) صفتان تختلفان فى الوزن الصرفى ، لكنهما تنتميان إلى مجال أو عُنْصر نحوى واحد هو صيغة المبالغة أو الصفة المشبهة باسم الفاعلِ . وهما مترادفتان من حيث المعنى ، إذْ تدلأن على الرأفةِ والرحمة والشفقة وحبِّ الخير والبرِّ للخلق أجمعين .

وهاتان الصفتان ذكرتا فى قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨] (٣) .

---

(١) تفسير ابن كثير : ج ٣ ، ص ٢١١ .

(٢) فظا : جافيا فى المعاشرة ـ انفضوا : تفرقوا وابتعدوا .

(٣) عزيز : صعب وشاق ـ ما عنتم : عنتكم ومشقتكم وعنادكم ـ حريص : حفى ومهتم بهدايتكم .

والصفتان من أسماء الله الحسنى ، لكن رب العزة سبحانه وتعالى أعطى بعض صفاته للرسول (ﷺ) مثل : الهادى ـ الرءوف ـ الرحيم ـ النور .. وهذا تشريف لم يهبه الله سبحانه لأحد من عباده سوى أكرم خلقه وأشرف رسله .

وقد وردت هاتان الصفتان لله سبحانه أيضًا فى هاتين الآيتين :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٧] .

❁❁❁

١٨ ـ صاحبُ الكـوْثر

هذه صفة من الصفات التى خُصَّ بها النبى الأمى العربىّ ، وهى مستوحاة من قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ [الكوثر : ١] .

الكوثر : نهر من أنهار الجنة خُصَّ به الرسول (ﷺ) وأمته .. وقد رُويتْ فى ذلك أحاديث كثيرة عن الرسول (ﷺ) ، منها عن أنس أن رجلاً سأل رسول الله (ﷺ) عن الكوثر فقال : « هو نهرٌ فى الجنة أعطانيه ربِّى ، لهو أشدُّ بياضًا من اللبن ، وأحْلى من العَسل » (١) .

إنَّ القرآ ن الكريم يفسِّر بعضُه بعضًا ، لذلك يمكن أن نتخَّيل صفات نهر الكوثر ، الذى خص به الرسول على ضوء من هذه الآية الكريمة :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ... ﴾ (٢) .

تلك صفاتٌ عامة لأنهار الجنة ، أما « نهرُ الكوثر » فهو اسم علم يدل على نهر مُعيَّن اختصَّ به الله سبحانه وتعالى الرسول (ﷺ) والذين آمنوا معه ، ومن أجل هذا فليتنافس المؤمنون برسالة محمد (ﷺ) .

❁❁❁

(١) تفسير ابن كثير : ج ٤ ، ص ٥٩٦ .
(٢) محمد ـ ١٥ .

١٩ ـ صاحبُ المقام المحمود

هذه الصفة مستمدة من قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٩] .

يروى أبو هريرة عن الرسول (ﷺ) فى تفسير معنى « المقام المحمود » أنه قال : «هو المقامَ الذى أشفع فيه لأمتى ... » يوم القيامة .

❁❁❁

٢٠ ـ صاحبُ العزّةِ

هذه الصفة مستوحاة من قوله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : ٨] .

العزة : جلالةُ القدر وقوةُ الغلبة والنصر على الأعداء ، لأن الكلمة واردةٌ فى سياق الحرب بين المسلمين والمنافقين ـ الذين زعموا أنهم إن عادوا إلى المدينة المنورة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذل . فردَّ اللهُ عليهم بأن العزة والقوة لله ولرسوله وللمؤمنين .. ولكن المنافقين لا يعلمون » [١] .

❁❁❁

(١) راجع تفسير ابن كثير : ج ٤ ص ٣٩٤ .

تعقيب :

حاولنا فيما سبق أنْ نذْكرَ أهمَّ الصفاتِ الكريمة التى وردت ـ بشكل واضح وصريح ـ للرسول (ﷺ) فى القرآن الكريم ، وتتمثل فى عشرين صفة هى :

مسلسل	الصفة
١	رسول الله
٢	النبى
٣	عبد الله
٤	بَشر
٥	بَشير .. ومُبشّر
٦	نذير .. ومنذر
٧	شاهد .. وشهيد
٨	الهادى
٩	الأمىّ
١٠	كريم
١١	خاتم النبين
١٢	السراج المنير
١٣	الداعى إلى الله
١٤	المزمّل
١٥	المدّثر
١٦	رحمة للعالمين
١٧	الرءوف الرحيم
١٨	صاحب الكوثر
١٩	صاحب المقام المحمود
٢٠	صاحب العزة

اعلمْ ـ نوّرَ اللهُ قلبى وقلبَك .. وضاعفَ فى هذا الرسول حبى وحبَّك ـ أنه لا تزالُ هناك صفاتٌ أُخرى للنبىِّ الكريم فى الذكر الحكيم ، من ذلك على سبيل المثال :

١ ـ **مُـذكِّرٌ** : التى تفهم من قوله تعالى :

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية : ٢١ـ ٢٢] .

٢ ـ **الحريـص على أمته** : التى وردت فى قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٢٨] .

٣ ـ **النور** : التى وردتْ فى الآية الكريمة :[١] .

﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة : ١٥] .

٤ ـ **النجـم**: وقد ذكرها بعض المفسِّرين فى تفسير الآية الكريمة :[٢] ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق : ١ ـ ٣] .

❁❁❁

(١) تفسير ابن كثير : ج ٢ ، ص ٢٦٤ .
(٢) عياض : الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، ج ١ ص ٣٠ .

مغْـزَى ودلالــةٌ

ذكرنا من الصفات الشريفة ما أجمعَ عليه معظمُ المفسِّرين الثقات ، كذلك فإننا أشرْنا إلى أهم ما ينسب لصاحب الرسالة الغرَّاء من صفات ، وتركْنا بابَ التفسير والتأويل لمن يشاء أن يُكملَ مسيرتنا فى هذا المجال ، الذى ينبغى أن يكونَ موضوعًا مستقلا لدرس خاص ، وليس فصلا فى كتاب متواضع مثل كتابنا .

على ضوءٍ من هذه الصفات الشريفة يتضحُ المغْزى النبيل ، الذى حاولنا أنْ نُشير إليه : وهو أنَّ القرآن الكريم يعطى خاتم الأنبياء منزلة محمودة ، ودرجة عالية رفيعة ، لم تعط لغيره من المرسلين ، إذ لم يقسم الله ـ عز وجل ـ بأحد من الرسُلِ إلا بمحمد (ﷺ) مثلما ورد فى قوله تعالى :

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر : ٧٢] (١) .

كذلك فإنه الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد وهبَ رسوله بعض صفاته الجليلة مثل : الهادى ـ الكريم ـ الرءوف ـ الرحيم ـ النور ـ صاحب العزّة ـ عزيز .. الخ .

وتلك هبةٌ لم يمحنها اللهُ لأحد من ملائكته أوْ رُسله أو سائر خلقه إلا لرسوله الكريم (ﷺ) ، الذى بعث لكى يتمم مكارم الأخلاق .. لأنه ـ بوصف القرآن ـ على خلق عظيم . وقد ظل طوال حياته صابرًا غافرًا داعيًا لقومه بالهداية . فقد رُوى أن النبى (ﷺ) لما كُسرتْ رَباعيته ، وشُجَّ وجهُه يوم أُحد ، شقَّ ذلك على أصحابه شقًا شديدا ، وقالوا : لو دعوتَ عليهم ، فقال : إنّى لم أُبعثْ لعّانًا ، لكنّى بُعثتُ داعيًا ورحمة . اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » (٢) .

بقيتْ سمةٌ أسـلوبية : تبيِّنُ مدى تكريم الله سبحانه لرسوله فى القرآن الكريم ، ذلك أن معظمَ الأنبياء والرسل يخاطبون بذكر الاسم مجردا من أى وصف ، كما فى قوله تعالى :

﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ [هود : ٧٦] .

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ ﴾ [هود : ٤٨] .

﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ [الأنعام : ٨٤] .

---

(١) سكرتهم : غوايتهم وضلالتهم ـ يعمهون : يعمون عن الرشد .
(٢) رباعيته : أنيابه الأربعة (أسنانه) ـ شج : جرح ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى : ج ١ ، ص ١٠٥ .

﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي ﴾ [الأعرف : ١٤٤].
﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [آل عمران:٥٥].
﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [يوسف : ٢١].

الحديث عن الرسل والأنبياء السابقين يأتى - فى مجال النداء خاصة .. وفى معظم الأساليب الأخرى عامة - دون وصف بالرسالة أو النبوة . أما الآيات التى ورد فيها اسم الرسول (ﷺ) : علمًا أو وصفًا ، فقد جاء متبوعا أو مسبوقا بنعت يدل على خصوصية المنعوت. كما قد يستدل على تميّز التركيب اللغوى الذى يرد فيه ذكر الرسول من السياق اللغوى للآيات الكريمة ، حتى لو كان الحديث يرد من خلال الصفة مثل : المزمل - المدثر - الهادى .. ونجد هذه الخاصية الأسلوبية المتميزة فى الآيات الكريمة التالية على سبيل المثال - لا الحصر :

١ - ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩]
٢ - ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ [آل عمران - ١٤٤] .
٣ - ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ [الأحزاب : ٤٠] .
٤ - ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ ﴾ [الأنفال : ٦٤] .
٥ - ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ [المدثر : ١ - ٢] .
٦ - ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة ١٢٨] .

ولا غرو فى أن يُعطى القرآنَ الكريم خصوصيةً فى التعبير عن الرسول (ﷺ) ، لأنه - كما قالت عنه عائشة - رضى الله عنها : « كان خلقه القرآن ، يرضى برضاه ، ويسخط بسخطه . » (١) .

❁❁❁

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى - ج ١ ، ص ٩٦ .

خلاصــة القــول

قدّمنا فى هذا المبحث أسماء الأعلام وأهمّ الصفات التى أُطلقت - فى الذكر الحكيم - على رسولنا الكريم محمد (ﷺ) . وهناك أسماء وصفات أخرى تطلق عليه .. وردتْ فى بعض الكتب الدينية أو التاريخية أو الأدبية ، بل إن بعضها مكتوب على جدران الروضة الشريفة فى مسجده بالمدينة المنورة ومنها :

حامد - محمود - مصطفى - المختار - سيد الخلق - سيد ولد عدنان - سيد ولد آدم - عبد الله - حبيب الله - كليم الله - أبو القاسم - أبو إبراهيم الطيب - ابن عبد المطلب - طيّب - مطهر - طاهر - رسول الرحمة - رسول النور - رسول التوبة - رسول الثقلين - نبىُّ التوبة - نبى الرحمة - خاتم الأنبياء والمرسلين - حريص عليكم - مصباح الهدى - فصيح اللسان - مطهر الجنان - رءوف - رحيم - صاحب اللواء - صاحب المعراج - صاحب البراق - صاحب المغفرة - صاحب الكوثر - صاحب الحوض المورود - صاحب الشفاعة - الصادق - الأمين - أبو فاطمةَ الزهراء - جدُّ الحسن والحسين

خلاصة القول : إنه لا ريب - فى تقديرنا - أن كثرةَ الصفات وتعددها تدلُّ على عظمة شخصية الموصوف ، وتعدد المجالات التى تشكل عناصر دوْرها البشرى والدينى .

ولعلَّ فيما قدمنا ما يدل دلالة ساطعةً على سمو شخصية الرسول الكريم محمد (ﷺ) وعلوّ منزلته عند الله سبحانه وتعالى ، وعند الملائكة المطهّرين والأنبياء والمرسلين ، وكافة الخلق أجمعين ، ذلك ما ما أكدته آيات الذكر الحكيم - التى حاولنا أن نفسّرها ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى وحبا فى رسول الله (ﷺ)

يقول الحسن البصرىُّ :

« حملةُ القرآن ثلاثة : رجلٌ اتّخذه بضاعة ينقلُه من مصر إلى مصر يطلب ما عندَ الناس ، ورجلٌ حفظ حروفَه وضَيَّعَ حدودَه واستدرَّ به عطفَ الولاة واستطالَ به على الناس ، ورجلٌ عَلِمَ ما فيه وحفظه وعمل - به داعيًا وعابدًا ، وهو خير الحمَلة » .

اللهمَّ علمنا ما ينفعنا وانفعْنا بما علمتنا . واجعلْنا من العاملين العاملين بآيات كتابك الكريم ، وسنة رسولك العظيم . يا رءوف يارحيم ، يا أحكم الحاكمين

المبْحَثُ الثالث

من البعثة.. إلى الهجرة

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ
(٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ
يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ
(٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا
يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ
السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ
الْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٤ ـ ٩٩]

مشرقُ النور فى مدينة السلام

حين بلغ الرسولُ (ﷺ) سنَّ الأربعين [1] نزل عليه الوحى أولَ مرة ، وهو يتبتَّلُ وحيدا – كعادته – فى غار حراء . فعاد إلى أهله يرجفُ فؤاده . لكنَّ خديجة المثل الفريد للزوجة الصالحة .. الولود الودود ، التى كانتْ تقف صامدة مع رجلها ، وإذا حدث له حادث أمنت روعة بصدق ثقتها فيه : « أبشرْ يا ابنَ عم واثبتْ ، فو الذى نفسُ خديجة بيده إنى لأرجو أن تكونَ نبيَّ هذه الأمة . كلا والله لا يُخزيك اللهُ أبداً ، إنك لتصل الرحمَ ، وتحملُ الكلَّ ، وتكسبُ المعدومَ ، وتقْرى الضيَف ، وتعينُ على نوائب الحق . » [2] هكذا كانتْ هذه الحادثة بداية بعثة الرسول (ﷺ) . وبعد أن فتر الوحى مُدةً – ظنَّ فيها الرسول (ﷺ) أن الله قد ودَّعه وقلاه – عادَ إليه بالأمر الإلهى ، ليبدأ أول خطوة عملية فى الدعوة إلى عبادة الله وتوحيده : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ [المدثر : ١ – ٣] .

أخذ النورُ يشرقُ فى مكة – مدينة السلام ، التى حرمَّها الله سبحانه وكرَّمها بأول بيت وُضع لعبادته على الأرض. وبدأتْ الدعوةُ سراً . وكانتْ خديجةُ أولَ من آمن به من البشر أجمعين .. ثم أبو بكر الصديق – الذى كان صديقاً لمحمد قبل البعثة، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبى وقاص ، والزبير بن العوام (ابن أخى خديجة) ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وزيد بن حارثة – الذى تبناه الرسول (ﷺ) [2] .

وكان أول المسلمين من الصبيان على بن أبى طالب ، وعمره إذ ذاك اثنتا عشرة سنة تقريبا .

أخذ محمد بشخصيته القائدة الرحيمة المؤمنة يكسب لدين الله كل يوم أنصارا، يعلمهم ما أنزل عليه من قرآن ، ويصلى بهم فى شعاب جبال ممكة ، حتى لا تقع عليهم أعين الكفار .

(١) يحدد محمد الخضرى مؤلف كتاب : نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين نقلا عن محمود الفلكى أن ذلك كان فى أول فبراير سنة ٦١٠ م – الموافق ١٧ من رمضان قبل الهجرة ... ص ٢٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٠ .

زيد بن حارثة : كان عبدا عند السيدة خديجة بنت خويلد ، فاستوهبها الرسول إياه ، ثم اعتقه وتبناه ، وكان يدعى « زيد بن محمد ». وسر تبنى الرسول له قبل البعثة هو وفاة أبنائه الذكور . وهو الذى ورد ذكره فى الآية الكريمة ﴿ فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها ﴾ .

هكذا بدأت الأرض تشرق بنور ربها ، ومضى الرسول الكريم ينذر عشيرته الأقربين سرا مدة ثلاث سنوات ، حتى يجمع حوله بعض الأنصار استعدادا لمرحلة الجهر بالدعوة ـ حين نزل قوله تعالى :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤ ـ ٢١٦] .

بعد أن جاء الأمر الإلهى ـ ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [١] أخذ الرسول (ﷺ) يفعل ما ينبغى أن يقوم به صاحب رسالة سامية ، يريد أن يخرج بها الناس من الظلمات إلى النور . تذكر كتب السيرة أنه « دعا عشيرته إلى طعام فى بيته ، وحاول أن يحدثهم داعيًا إيَّاهم إلى الله ، فقطع عمه أبو لهب [٢] حديثه، واستنفر القوم ليقوموا . ثمَّ دعاهم محمد (ﷺ) فى الغداة كرةً أخرى ، فلما طعموا ، قال لهم : ما أعلم إنسانًا فى العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة . وقد أمرنى ربِّى أن أدعوكم إليه ، فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر ؟ فأعرضوا عنه ، وهمُّوا بتركه . لكن عليًا نهض ، وهو مايزال صبيًا دون الحلم . وقال : أنا يارسول الله عونك ، أنا حرب على من حاربت. فابتسم بنو هاشم وقهقه بعضهم ، وجعل نظرهم ينتقل من أبى طالب إلى ابنه ، ثم انصرفوا مستهزئين .

انتقل محمد (ﷺ) بعد ذلك من عشيرته الأقربين إلى أهل مكةَ جميعا .

« صعد الصفا يومًا ونادى : يامعشر قريش . قالت قريش : محمد على الصفا يهتف . وأقبلوا عليه يسألونه ماله ؟

قال : أرأيتم لو أخبرتكم أنَّ خيلا بسفح هذا الجبل، أكنتم تُصدِّقون ؟

قالوا : نعم . أنت عندنا غير متَّهم ، وما جرَّبنا عليك كذبًا قطُّ .

قال : فإنى نذير بين يدى عذاب شديد . يابنى عبد المطلب ، يابنى عبد مناف، يابنى زهرة ، يابنى تيم ، يابنى مخزوم ، يابنى أسد ، إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين. وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة، ولا من الآخرة نصيبا إلا أن تقولوا:

---

(١) الحجر ـ ٩٤ .

(٢) أبو لهب : هو عم الرسول (ﷺ) وكان أخا لعبد الله من الأب فقط ، وكان ولداه ـ فى فترة الجهر بالدعوة ـ عتبة وعتيبة متزوجين من ابنتى الرسول : رقية وأم كلثوم . وقد طلقتا بسبب إصرار زوجيهما على الكفر ومجازاةً لأبيهما . وقد تزوجتا فما بعد عثمان بن عفان . ويلاحظ أن صلة القرابة .. والنسب لم تؤثر ألبتة فى أبى لهب .. أو زوجه .. أو ولديه ... !!

لا إله إلا الله ...

فنهض أبو لهب – وكان رجلا بدينا سريع الغضب – فصاح : تبا لك سائر هذا اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟ » [1] .

وقد ظل أبو لهب أكثر خصوم الرسول (ﷺ) ضراوة وغلظ كبد ، لذلك لعنه الله وآل بيته في الدنيا والآخرة :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ [سورة المسد] .

❁❁❁

من يُطيقُ ما تحملتَ ... يارسولَ الله ؟!

مضى الرسولُ (ﷺ) يدعو قومه إلى الإيمان بالله وترك عبادة الأصنام والأوثان، فآمن بدعوته نفر قليل ، لكن معظم القبائل العربية فى أم القرى وما حولها جعلوا أصابعهم فى آذانهم ، وأغلقوا قلوبهم وعقولهم . أكثر من هذا أخذوا يستهزئون به – وبمن آمن معه – أشد العذاب ، ويطلبون منه – إن كان نبيًا حقًا – أن يسأل ربَّه أن يؤيِّده بمعجزات بيِّنات ، فيجيب فى ثقة المؤمن وصبر المجاهد : ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[الأعراف : ١٨٨] [2] .

أبعدُ من هذا فى الخصومة والعداء أنهم كانوا يستكثرون أن يكون محمد ﷺ ذلك الرجل الفقير الضعيف هو الذى اختاره الله ليكون الرسولَ المختار ، وكان الوليدُ بن المغيرة ، يقول مستنكرا : أينزل القرآن على محمد وأُترك أنا كبير قريشٍ وسيدها، ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفى سيد ثقيف ؟ . فيأتيه الردُّ لا من محمد ، ولكن من رب محمد :

﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ

(١) د. هيكل : حياة محمد : ص ١٥٨

(٢) ما مسنى السوء : ما أصابنى الضرر والشر ، وما هنا حرف نفى

دَرَجَاتٍ ﴾ [الزخرف : ٣٢] .

وظلت إساءات القبائل القرشية تتوالى، واتهموا الرسول بأنه شاعر .. أو ساحر .. أو مجنون ، وأنه سوف يفسد الفقراء والعبيد على سادتهم الأغنياء . وقد دفع القبائل القرشية إلى اللجاج فى الخصومة والمبالغة فى البغضاء والإيذاء والعداوة .. أنهم خافوا على مكانتهم الاقتصادية والاجتماعية ، وأن تتوقف رحلات الشتاء والصيف التجارية .. وأن تهتز مكانة الأصنام والكعبة ، فتتعطل الزيارات الدينية . أخيرا خشوا أن ينتزع بنو عبد مناف السيادة والقيادة منهم . « ذهب الأخنس إلى أبى جهل (عمرو بن هشام) فسأله : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعنا من محمد[1] . فكان جواب أبى جهل : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرفَ أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوْا فأعطيْنا ، حتى إذا تحاذيْنا الركب ، وكنَّا كفرسىْ رهانٍ ، قالوا : منَّا نبىٌّ يأتيه الوحىُ من السماء ، فمتى نُدرك مثلَ هذه ؟ والله لا نؤمن به ولا نصدِّقه » [2] .

الحقدُ والحسدُ ... تجمعا فى عقول بدوية ، بينْها تنافسٌ قبلىٌّ ، وتعصب عرقىٌّ، لذلك وقفوا لمحمد (ﷺ) بالمرصاد ـ وهم على قلوب أقفالها . إن المنازعات القبلية والتعصب الأعْمى ـ لما وجدوا عليه آباءهم من عادات جاهلية وعبادات وثنية ـ شكلتا السببَ الأولَ والأهمَّ الذى جعل القبائل العربية ترفض الإيمان بالرسالة والرسول . ولا نتّفق مع الدكتور هيكل فى أنَّ السرَّ فى هذا العداء يعود إلى أنهم فزعوا من البعثِ ومن عذابِ جهنم ، الذى حفلتْ به كثيرٌ من آيات العهد المكى فى هذه المرحلة [3] .

إن الكفارَ حينذاك لم يكونوا يسمعون القرآن الكريم إلا من أجل السخرية والاستهزاء ، ولم يكونوا يحاولون أن يفقهوا معانيه أوْ يتدبّروا آياته . إنهم لو فعلوا ذلك لانكشفتْ الغشاوة عن أبصارهم ، ومحيت العدواة من قلوبهم ، إذْ كيف يظل على كفره وغيِّه من يستمع إلى مثل هذا الوعد والوعيد فى سور العهد المكى

(١) يقصد سماع القرآن الكريم .. وإنه يدعو لدين جديد .
(٢) حياة محمد : ص ١٩٠ .
(٣) حياة محمد : ص ١٩١ .

.. وهو أكثرُ من أن يُحصى ، وأبلغُ من أنْ يُفسَّر :

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِّلطَّاغِينَ مَآبًا (٢٢) لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا (٢٤) إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً وِفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا (٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا (٣٠) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا (٣٥) جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (٣٦) رَّبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا (٣٩) إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾ [النبأ : ١٨ ـ ٤٠][١] .

إن الكفارَ لوْ فتحوا قلوبَهم للذكر لمّا جاءَهم لآمنوا وحسُن إسلامُهم ، لأن القرآن يهْدى للتى هى أقوم .. ولو أُنزل على جبلٍ لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ، لكن الذين ضلوا قستْ قلوبهم ، فهى كالحجارة أو أشدُّ قسوة .

مضى الرسولُ يدعو قومه ليلاً ونهاراً ، سرا وجهْراً ، إلى عبادة الواحد القّهار ، تؤيّده قوتان : واحدة معنوية ، وأخرى مادية .

أما القوة المعنوية : فتمثلتْ فى نزول الروح الأمين ـ دوْما ـ بآيات الله البّينات تنبئه وتطمئنه بأنّ ما يتعرّض له من جحودٍ ونكرانٍ وضلال وبهتان ، قد حدث لمن قبله من الأنبياء وأولى العزم من الرسل ، لذلك نجد كثراً من قصصِ الأنبياءِ قد وردتْ فى سِور العهد المكي وآياته من أجل هذه الغاية النبيلة : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(١) أفواجاً : أمما .. أو جماعات مختلفة ، فكانت سرابا : أى مثل السراب الذى لا حقيقة له ـ مرصاد : موضع ترصد وترقب للكافرين ـ مآبا : مرجعا ـ أحقابا : دهورا ، لا نهاية لها (ج حقبة) بردا : روحا وراحة. ـ حميما : ماء شديد الحرارة ـ غساقا : صديدا يسيل من جلودهم ـ جزاء وفاقا : أجرا موافقا لأعمالهم ـ كذابا : تكذيبا شديدا ـ أحصيناه كتابا : عددناه وحفظناه مكتوبا ـ مفازا : فوزا وظفرا ـ كواعب (ج كاعبة) فتيات ناهدات ـ أترابا : متساويات فى السن والحسن ـ دهاقاً : مليئة ـ لغوا : كلاما لا فائدة له ـ عطاء حسابا : إحسانا كافيا ـ مآبا : مرجعا بالإيمان والطاعة ـ كنت ترابا : لم أبعث فى هذا اليوم الذى كتب على العذاب والشقاء فيه .

[هود : ١٢٠] وظلت الآياتُ الكريمةُ تترى ، لتكونَ للرسول ومن آمن معه موعظة في قصص السابقين ، حتى يزدادوا إيماناً على إيمانهم ، بما يضفيه عليهم القرآن الكريم من سكينة وطمأنينة .. وثقة في نصر الله إيّاهم :

﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴾ [طه: ٩٩ _ ١٠٠] [١].

القوة المادية : التى دعّمتْ موقف الرسول (ﷺ) ، وجعلتْه صامداً لما يُلاقى من كوارثَ وحوادثَ أن عمّه أبا طالب وزوجه خديجة كانا يحوطانه برعاية قوية وهيبة راسخة ، يضاف إلى هذا فرحة الرسول بأن عدد المؤمنين كان يزيد يوما بعد يوم ، فقد أسلم فى هذه الفترة :

« أبو سلمة بن عبد الأسد ، والأرقم بن أبى الأرقم [٢] ، وعثمان بن مظعون وأخواه قدامة وعبد الله ، وعبيدة بن الحارث ، وسعيد بن زيد بن عمرو ، وامرأته فاطمة (أخت عمر بن الخطاب) وأسماء ... وعائشة [٣] ابنتا أبى بكر ، وخبّاب ابن الأرتّ ، وعُمير بن أبى وقّاص ، وعبد الله بن مسعود ، ومسعود بن القارىّ ، وسليط بن عمرو ، وعياش بن أبى ربيعة وامرأته أسماء بنت سلامة ، وهنيس ابن حذافة ، وعامر بن ربيعة ، وعبد الله بن جحش ، وأخوه أبو أحمد ، وجعفر بن أبى طالب ، وامرأته أسماء بنت عميس ، وحاطب بن الحارث وامرأته فاطمة بنت المجلل ، وأخوه خطاب ، وامرأته فكيهة بنت يسار ، ومعمر بن الحارث ، والسائب ابن عثمان بن مظعون ، والمطلب بن أزهر ، وامرأته رملة بنت أبى عوف ، ونعيم ابن عبد الله النحام ، وعامر بن فهيرة ، وخالد بن سعيد بن العاص ، وامرأته أمنية بنت خلف ، وحاطب بن عمرو ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وواقد بن عبد الله ، وخالد وعامر وعاقل وإياس بنو البكير بن عبد ياليل ، وصهيب بن سنان الرومى» [٤].

معنى ذلك أن عدد المسلمين _ فى أثناء مرحلة الدعوة السرية التى استمرت حوالى ثلاث سنوات _ كان يتكون من اثنين وخمسين فردا : فيهم الرجال والنساء

(١) وزر : جريرة ، ذنب .
(٢) صاحب دار الدعوة التى كان يجتمع فيها الرسول والمسلمون .
(٣) كانت السيدة عائشة طفلة صغيرة فى هذه الفترة .
(٤) عبد السلام هارون : تهذيب سيرة ابن هشام ، ص ٥٦ .

والأطفال . وهذا العددُ ليس بالأمر الهيِّن .. ولا يُقلل من الجهد الجهيد الذى بذله الرسول (ﷺ) ، لأن الإيمان بدعوة روحية جديدة أمر صعب خاصة فى مجتمع مثل المجتمع المكى ، الذى كان التعصب الأعمى للقديم فيه ، يحولُ دونَ أن يقبلوا على ما جاء به الرسول الكريم .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٠ ـ ١٧١](١) .

والقرآن الكريم يذكر فى أكثر من موضع هذا الموقفَ المتعصِّبَ لما وجدوا عليه أسلافهم .. ثم يسخر منهم ، لأنهم يتبعون آباءهم وهم على ظلالٍ مبين :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ [المائدة : ١٠٤] ثمة آية أخرى تشير إلى هذا العناد من الكافرين وهى : ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٤] (٢) .

ازداد الرسولُ إيمانًا بضرورة أن يمضيِ إلى حيثُ أمره الله ـ كما ازداد كفارُ مكة تعصبًا لعاداتهم الوثنية . وبدأ الصراع غير المتكافىء بين جماعة النور والحق... وقُوى الظلم والظلام ، وأخذوا يحاولون بأكثر من طريقة أن ينالوا من محمد والمؤمنين معه، وجربُّوا مع الرسول : الإغراءَ بالمال والمنصب ـ التفاوض والصلح ـ السبِّ والشتم ـ الضرب والأذى ـ محاولةَ القتل ، بل ساوموه على أنْ يعبد دينهم فترةً ، ويعبدوا دينهً فترة ثانية . لكنها كانتْ قسمةَ ضيزى ، لذلك نزل قوله تعالى :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون] (٣) .

يذكر النيسابورى أن هذه السورة الكريمة « نزلتْ فى رهْطٍ من قريش ، قالوا :

(١) ألفينا : وجدنا ـ ينعق : يصوت ويصيح ـ صم : لا يسمعون ـ بكم : خرس ، لا يتكلمون .
(٢) أمة : طبيعة ، هيئة .
(٣) الكافرون .. سورة مكية .

يا محمد هلمّ اتبعْ ديننا ، ونتبع دنيك ، تعبدُ آلهتنا سنةً ، ونعبدُ إلهك سنة . فإنْ كان الذى جئتَ به خيراً مما بأيدينا فقد شركناكَ فيه ، وأخذنا بحظّنا منه ، وإنْ كان الذى بأيدينا خيراً مما فى يدك ، فقد شركْتَ فى أمرنا وأخذتَ بحظك . فقال: معاذَ الله أن أُشْرِكَ به غيره ، فأنزل اللهُ تعالى قوله : ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ** .. ﴾ فغدا الرسول إلىَ المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش ، فقرأها عليهم ، حتى فرغ من السورة » (١) .

❁ ❁ ❁

موقـف أبي طالـب

لما ضاقتْ قريش بمحمد (ﷺ) « مشى قوم من أشراف قريش إلى أبى طالب ، فقالوا : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وسفّه أحلامنا ، وضلل آباءنا . فإما أنْ تكفَّه عنّا ، وإما أنْ تُخْلى بينْنا وبينه ؟

فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقا ، وردهم ردًا جميلا ، فانصرفوا عنه .

ويبدو أن أبا طالب لم يذهبْ إلى ابن أخيه ولم يناقشه فى الأمر ، لأنه كان يدرك ـ دون أن يصرح ـ أنه على صواب . فعادوا إليه مرة أخرى، « فقالوا :

ـ يا أبا طالب إن لك سنًا وشرفًا ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيْناك من ابن أخيك فلم تنهه عنَّا ، وإنَّا والله لا نصبرُ على هذا من شَتْم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيْبِ آلهتنا ، حتى تكفَّه عنَّا ، أو ننازله وإيَّاكَ فى ذلك ، حتى يهلك أحدُ الفريقيْن .

فبعث إلى رسول (ﷺ) فقال له : يا ابن أخى ، إن قومك قد جاءونى ، فقالوا لى كذا وكذا .. فأبق علىَّ وعلى نفسك ، ولا تّحملنى من الأمر ما لا أُطيق . فقال الرسول : **يا عمّ ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أنْ أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يظهره اللهَ أو أهلك فيه** (٢) .

ثم استعبر رسولُ الله (٣) فبكى ثم قام . فناداه أبو طالب قائلا :

---

(١) النيسابوري : أسباب النزول ، ص ٣٠٧ .
(٢) فى رواية أخرى « أهلك دونه .. » أى أموت فى سبيله .
(٣) استعبر : بكى .

ـ اذهب يا ابن أخى ، فقل ما أحببت ، فو الله لا أسلمك لشىء أبدا . » .[1]

أيَّةُ قوة روحية كان يمكلها ذلك النبى الكريم (ﷺ) فى مثل تلك اللحظات الحاسمة؟! لقد آمن أنه صاحب رسالة مقدسة ، ينبغى أن يضحى من أجلها لا بالمال والولد فحسب ، بل بالروح والجسد أيضا . ولا شك أن التضحية بالروح غاية التضحية . ما أقوى هذه العبارة البليغة الحاسمة التى قالها محمد أمام عمه الذى رعاه ورباه : «والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمرَ ، ما تركتُه ، حتى يظهره الله أو أهلكَ دونه . » !!

❁ ❁ ❁

مضى محمد (ﷺ) يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، لكنه تعرض لكثير من أساليب الإيذاء والسخرية والضرب والشتم وإلقاء القذى على ملابسه .. ثم محاولة قتله فى أثناء إقامته للصلاة فى ساحة المسجد الحرام .

نشبتْ الحرب واشتدت رحاها ماديا ومعنويا ، وأخذوا يطلبون منه أن يؤيد بمعجزات مادية .. فرد عليهم بثقة المؤمن : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : ٩٣] .

لما فشلتْ وساطةُ أبى طالب أجمع كفار قُريش على أن يكونوا عصابةً من ساداتهم لمواجهة محمد (ﷺ) والتفاوضِ معه ، فقالوا : « يامحمد ، إنا قد بعثنا إليك لنكلمك ، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلتَ على قومك : لقد شتمت الآباء ، وعبْتَ الدين ، وشتمتَ الآلهة ، وسفَّهتَ الأحلامِ ، وفرقتَ الجماعة ، فما بقى أمرٌ قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك ، فإن كنتَ تريدُ مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نُسوّدك علينا ، وإن كنت تريدُ ملكا ملكناك علينا . وإنْ كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك بذلنا أموالنا فى طلب

(١) تهذيب سيرة ابن هشام : ص ٥٨ ، ٥٩ .

الطب لك ، حتى نبرئك منه أو نُعذرَ فيك .

فقال لهم رسول الله (ﷺ) : ما بى ما تقولون ، ماجئتُ بما جئتكم به أطلبُ أموالكم ، ولا الشرفَ فيكم ، ولا الملكَ عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا ، وأنزل علىَّ كتابا ، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا . فبلغتكم رسالات ربىّ، ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منّى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على ، أصبرْ لأمرِ الله ، حتى يحكم الله بينى وبينكم..»[١] .

❁ ❁ ❁

(١) تهذيب سيرة ابن هشام : ص ٦٦ .

مغزى الصراع ودلالته

إن المعركة بين الرسول (ﷺ) ومن آمن معه ، وبين قريش والكافرين ، ليست إلا صورة من صور الصراع الأزلي بين الخير والشر ، بين الحق والباطل ، بين الإيمان والكفر . هذه المعركة واجهها الأنبياء والرسل من قبل .. ولن تنتهي حتى يرث الله الأرض ومن عليها . مصيبة كثير من البشر أن السلطان أو الثروة أو الأثرة أو عدم الرغبة في معرفة الحقيقة ، تجلعهم يفقدون الذاكرة . وتأخذهم العزة بالإثم، فينسون الله والحق والأخلاق ، وتموت ضمائرهم قبل أن تموت أجسادهم. أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .. ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ [سورة الانفطار : ٦ ـ ١٩] .

يزيد من قداسة هذه المعركة وأهميتها أن الرسول (ﷺ) كان يقودها بمنتهى التعقل والحكمة ـ بعيدا عن الانفعال وحميا الغضب . إن حكمة الرسول (ﷺ) وقوة إدارته للمعارك كانت عاملا مهما من عوامل انتصاره في كل المعارك التي خاضها .

بأبي وأمي أنت يارسول الله .. طبت حيا وميتا ، فقد تحملت من آلام النفس والجسد ، ما يعجز عنه أشجع الأبطال ، وأعظم الرجال ، من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا ، ومن أجل نشر راية التوحيد ، إنقاذا للبشرية ، حتى يعم الحق والخير والعدل في هذه الحياة الدنيا .. وينعم الفائزون في الدار الآخرة بجنات عرضها السماوات والأرض ، أعدت للمتقين .

نعم لم تكن معركة الرسول (ﷺ) من أجل عرض من أعراض الدنيا الزائلة ، وإنما كانت معركة من أجل القيم السامية والمبادىء العليا . لو آمنا برسالة الرسول

السلام أرجاء العالم ، لأن الإسلام دين السلام ، كما أن السلام اسم من أسماء الله الحسنى ، وكل أرض مقدسة هى أرض السلام ، لأنه يحرم فيها الظلم والقتل. **إن الصراع يشتعل نارا تلظى فى كثير من بقاع الأرض ، لأنهم لم يقتدوا بسيرة الرسول (ﷺ) ولم يتبعوا سنته ، ولم يعرفوا حقيقة رسالته** . نعم من أراد السلام ـ لنفسه وللعالم ـ فعليه بالإسلام ، دين الفطرة السليمة والقلوب الصحيحة والعقول الراجحة . من رغب أن يعرف مبادىء الدين القيم وأن يعيش في أمان وسلام، فعليه باتباع رسالة محمد ـ ﷺ ـ ، لأنه ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ** ﴾ [سورة القيمة: ٢ ـ ٥]

لقد خلق الله الإنسان فى أحسن صورة ، وأرسل إليه رسولا يهديه إلى الدين القويم . فلماذا يتفرق الناس بعد أن جاءت البينة فى صحف مطهرة ؟! إن رسالة الإسلام قد اشتملت على كل ما كان موجودا في الكتب السماوية السابقة قبل أن تتحول وتتبدل . ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ** ﴾ [المائدة : ٤٨] .

نعم لقد كان محمد (ﷺ) المحارب النبيل من أجل إنقاذ البشرية من ظلام الشرك والشقاق والنفاق ، وهدايتها إلى نور الإيمان والأمان والعرفان . إن معركة محمد (ﷺ) كانت من أجل الخلاص البشرى ، من أجل أن يؤمن الناس ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . الإيمان الحقيقى بدلالات هذه الشهادة إيمان بمبادىء الإسلام وقواعد السلام . اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، فحينا ربنا بالإسلام ، وأدخلنا الجنة دار السلام . تباركت وتعاليت ياذا الجلال والإكرام .

اللهم إيمانا بك ، وتصديقا بكتابك ، ووفاء بعهدك ، واتباعا لسنة نبيك وحبيبك محمد ﷺ، اجزه عنا وعن الخلق أجمعين خير الجزاء ـ عدد ما أحصاه علمك ، ووسعه كتابك ، ياخير من سئل وأفضل من أعطى .

❁ ❁ ❁

عـام الحـزن ... بدء الفـرج

استمرت المعركة بين المسلمين والكافرين ، وزادت خلالها مقاطعة قريش للنبى والمسلمين وحبسهم فى شعاب جبل أبى قبيس ، فقد أقسموا ألا يتعاملوا معهم بيعا أو شراء أو مصاهرة .. ومنعوا عنهم الماء والزاد ، بل لقد منعوهم من الاتصال ببقية أهلهم وذويهم ، ومن التعامل مع القادمين إلى مكة إلا فى الأشهر الحرم ، ومع ذلك فإن الرسول (ﷺ) والذين آمنوا معه تحملوا ما لا طاقة لبشر به ، لكن الله ثبتهم وصبرهم ، وهيأ لهم من أمرهم رشدا .

ظل الرسول (ﷺ) فى ابتلاء دائم ، فقد مات عمه أبو طالب ، ثم لحقت السيدة خديجة رضى الله عنها بالرفيق الأعلى تاركة زوجها وحيدا ومعه منها أربع بنات : زينب و رقية وأم كلثوم ... وفاطمة الزهراء التى كانت طفلة صغيرة آنذاك. من أجل ذلك سمى هذا العام عام الحزن ، لأنه مات فيه أعز اثنين منزلة إلى قلب الرسول (ﷺ) : هما عمه وزوجه ، حيث فقد بفقدهما الرعاية والحماية ، وكثرت محاولات التحرش به . وكان أبو جهل ينهى الرسول عن الصلاة فى الكعبة، إذ رأى فى ذلك ـ كما نظن ـ دعاية صريحة للإسلام ، ورفضا قاطعا للأصنام، فقال للرسول ذات مرة : ألم أنهك عن هذا ؟ فأغلظ له الرسول (ﷺ) القول وهدده.[1] فقال أبو جهل : أتهددنى وأنا أكثر أهل الوادى[2] ناديا ؟! فنزل قوله تعالى :

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (١٠) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ [سورة العلق : ٦ ـ ١٩] .

من الإساءات البالغة أيضا للرسول (ﷺ) وهو قائم يصلى فى ساحة البيت الحرام

(١) كان ذلك قبل عام الحزن .
(٢) الوادى : وادى مكة .

« ما حكاه عبد الله بن مسعود من رواية البخارى ، قال : كنا مع رسول الله فى المسجد وهو يصلى ، فقال أبو جهل : ألا رجل يقوم إلى فرث جزور ، فيلقيه على محمد وهو ساجد ؟

فقام عقبة بن أبى معيط ، وجاء بذلك الفرث ، فألقاه على النبى (ﷺ) وهو ساجد ، فلم يقدر أحد من المسلمين الذين كانوا بالمسجد على إلقائه عنه ، لضعفهم عن مقاومة عدوهم . ولم يزل عليه الصلاة والسلام ساجدا ، حتى جاءت فاطمة بنته، فأخذت القذر ورمته » [1] .

أى تَبَجُّحٍ على الله ورسوله ذلكم الذى فعله كفار قريش ؟ يريدون أنْ يقتلوا رجلا لا لشىء إلا أن يقول ربى الله. ثم يمتهنون حرمة الصلاة ، ويلقون عليه روث ذبيحة فى ساحة الكعبة المشرفة .. على بعد خطوات من مقام إبراهيم وحجر إسماعيل، ويطيل الرسول الكريم سجوده ، ولا يخرج عن صلته بربه. ولعله فى هذه اللحظة كان يدعو لهم قائلا : « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون ». كان ذلك أيضا على مرأى ومسمع من المسلمين ، وهم يومئذ قليلو العدد ضعفاء القدرة تمنوا أن يفدوا الرسول بأرواحهم . ولا ريب أن الإحساس بالعجز عن رد العدوان عن الرسول (ﷺ) أدمى قلوبهم قبل عيونهم ، فدعوا رب المستعضفين أن ينتقم لهم من الكفرة الجبارين .

ترى ما الذى جاء بطفلة فى حوالى الخامسة من عمرها فى تلك اللحظة القاسية ، لترى أباها الحبيب وهو على هذا المنظر الذى يقطع نياط قلب طفلة صغيرة ، أم هل كانت صغرى البنات البريئة تلعب مع بعض لداتها ، فسمعت الغَلط واللغط ، أم أن قلبها الطاهر النقى أحسَّ كرب أبيها ..؟! أياما كان السبب فقد جاءت تبكى مثلما بكت يوم وفاته صارخة : واكرباه عليك يا أبتاه !! ثم مدت الزهراء ـ رضى الله عنها ـ كفيها الطاهرتين ، لتبعد الروث القبيح شكلا ومضمونا من على كاهل جسده الشريف .

حقا .. لا يفعل القذارة إلا كائن قذر .. ولا يقدم على عمل قبيح إلا من كانت نفسه أشد نتانة من الروث . كما أنه فى المقابل لا يصبر على أمثال تلك

(١) محمد الخضرى : نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين ، ص ٤٢ .

المواقف القاسية المرة نفسيا إلا أولو العزم من الرسل ... ومحمد (ﷺ) أشرفهم مقاما، وأعظمهم درجة !!

❁ ❁ ❁

كان أشد الكافرين عداوة وإيذاء للرسول (ﷺ) : أبو لهب ، وأبو جهل ، وعقبة بن أبي معيط الذى ألقي الروث علي الرسول ، وحاول خنقه فدفعه أبو بكر قائلا : **﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾** [غافر : ٢٨] .

ومن أولئك الضالين المستهزئين أيضا : العاص بن وائل (١) السهمى ، وكان يقول : غرّ محمد أصحابه أن يحيوا بعد الموت ، والله ما يهلكنا إلا الدهر ، فنزل قوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ [الجاثية : ٢٤] .

ويصعب أن نحصى أسماء الذين تعرضوا للرسول (ﷺ) والمسلمين بالأذى والاستهزاء (٢) ، كما أنهم لم يتركوا وسيلة إلى ذلك إلا اتبعوها ، وهم ظالمون. فالنضر بن الحارث كان يحاول أن يصرف الناس عن الرسول (ﷺ) إذا رآه يدعو قومه إلى الهدى أو يفقههم فى الدين ، قائلا : هلموا يامعشر قريش ، فإنى أحسن منه حديثا ، ثم يكلمهم عن أخبار ملوك فارس .. وغيرها من قصص التاريخ، ويحاول أن يفهمهم أن محمدا لا يحكى إلا بعض أساطير الأولين ، كما يحكى هو أخبار سهراب ورستم وغيرهما من ملوك الفرس ، فنزل فيه قوله عز من قائل :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لقمان : ٦ ـ ٧] (٣) .

❁ ❁ ❁

---

(١) والد عمرو بن العاص .

(٢) منهم أيضا : الأسود بن عبد يغوث من بنى زهرة ، والوليد بن المغيرة ، والنضر بن الحارث ، والأسود بن عبد يغوث ، وأم أنمار مولاة خباب بن الأرث ، وامرأة أبى لهب ، وهند بنت عتبة ، وأبى بن خلف وأخوه أمية، والأسود بن المطلب ، وعدى بن حمراء الثقفى ، وابن الأصداء الهذلى ـ عصماء بنت مروان .

(٣) لهو الحديث : الكلام الباطل الذى يلهى عن الحق والخير ـ هزوا : سخرية ـ ولى مستكبرا : أعرض متكبرا ـ وقر : صمم ، خرس .

ويصعب أن نحصى أسماء من عذب واستهزىء بهم من المؤمنين الأولين والمؤمنات الصابرات مثل :

بلال بن رباح ـ أم عنيس [كانت أمة لبعض بنى زهرة] ـ عمار بن ياسر وأبوه وأمه ، وقد عذبهم أبو جهل عذاباً لا طاقة لبشر به ، لدرجة أن أبا عمار وأمه ماتا من قسوة التعذيب ـ خباب بن الأرت .

لم يلحق الأذى بالفقراء والمستضعفين من المسلمين فحسب ، بل إن رجلا ذا شأن مثل أبى بكر الصديق فكر فى أن يهاجر من مكة إلى الحبشة ، فمنعه ابن الدغنة ، وأجاره وحماه من أذى قريش إلى حين ، لأنه رد عليه جواره بعد ذلك . كما أن عثمان بن عفان وجعفر بن أبى طالب هاجرا ضمن الهجرة الأولى إلى الحبشة .

لم يكن الأمر متقصرا على التعذيب الجسدى الوحشى ، وإنما تجاوزه إلى منع الماء والطعام والملبس ، حتى إن بعض المسلمين كانوا يأكلون أوراق الشجر ، ويمتصون الزلط والحصا من قسوة الجوع والعطش .

❁ ❁ ❁

مخـــرج صـــدق :

أحس الرسول الكريم (ﷺ) أن قلوب كفار مكة أشد خشونة من صخور جبالها الصلدة، وعز عليه أن يلقى هو وأصحابه ما لا طاقة لمخلوق عليه . فماذا يصنع .. وهو صاحب رسالة وراعى أمة وقائد جماعة ؟ كما أنه كان يدرك تماما أن هذه العصبة القليلة إن تهلك .. فقد يهلك الرسول والرسالة ، ويعود طغاة قريش إلى ضلالهم يمرحون !!

إذن ينبغى أن يفكر فى مخرج صدق لرسالته ولمن اتبعه من المؤمنين. ويبدو أن الرسول الذى لا ينطق عن هوى ، فكر فى معنى هذه الآيات الكريمة قبل أن يتخذ قراره :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩) وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ٩٧ : ١٠٠] (١) .

بإلهام من الله ـ سبحانه وتعالى ـ كانت الفكرة العظيمة التى اهتدى إليها الرسول (ﷺ) تسير فى خطين متوازيين ، يكمل أحدهما الآخر :

الأول : هجرتا الحبشة الأولى والثانية : ليعيش المسلمون هناك آمنين مطمئنين، يعبدون الله ، حتى يأتى بالفرج. وكان عدد المهاجرين فى الأولى حوالى عشرة رجال وخمس نساء ـ كانت فيهن رقية بنت الرسول (ﷺ) وزوجها عثمان بن عفان. وفى الهجرة الثانية كان عددهم يربو عن ثمانين رجلا وامرأة، وهو عدد ليس بالقليل ، وبقى هناك بعضهم إلى ما بعد هجرة الرسول (ﷺ) إلى المدينة مثل جعفر بن أبى طالب الذى عاد بعد الانتصار فى خيبر ، لذلك كان الرسول (ﷺ) يقول : « هل نفرح بنصر خيبر أم بعودة جعفر ؟! » .

الثانى : أن يستبدل بقومه غلاظ القلوب مغلقى الأفئدة قوما آخرين: ومن ثم

(١) مرغما : مهاجرا ، متحولا ، أرضا بديلة .

بدأ يعرض نفسه على وفود بعض القبائل ـ فى أسواق مكة والطائف ـ التى ترد للتجارة أو زيارة الكعبة. وقد عرض نفسه على وفد من نصارى نجران .. وجماعة من قبيلة دوس ، ثم رهط من قبيلة بنى حنيفة ، وآخر من بنى عامر .. ثم بعض عرب يثرب من قبيلتى الأوس والخزرج. وقد استقر رأيه على الهجرة بعد بيعتى العقبة الأولى والثانية إلى يثرب التى سوف يعيش فيها بقية حياته ، ويدفن فيها جثمانه ، لذلك سميت فى البداية: مدينة الرسول، ثم المدينة المنورة ـ بعد ذلك .

وقد تجمع الخطان : حظ الهجرة إلى الحبشة .. وخط عرض نفسه على القبائل: إما أن يجيروه (ﷺ) ويستقبلوه ، ويحموه مما يحمون منه أنفسهم وحرماتهم أو يدخلوا فى الإسلام ، فيعتز بهم ويعتزوا به، ولله العزة ولرسوله ولرسالته والمؤمنين.

التقى الخطان ليشكلا معا حدث الهجرة العظيم ـ هجرة الرسول والمسلمين إلى يثرب ـ التى تعد بدء مرحلة جديدة فى حياة الرسول (ﷺ) وانتقال رسالة الإسلام من إطار الواقع المحلى إلى الأفق العالمى .

هنا يرد تساؤل منطقى وجيه ينبغى طرحه :

هل كان الرسول (ﷺ) فى أمر هذه الهجرة الداخلية والخارجية يريد أن ينقذ حياته وحياة المسلمين فقط .. أم أنه كان يرمى إلى غاية أبعد وهدف أسمى ؟!

أغلب الظن .. أرجح الرأي ، يجعلنا نذهب إلى أن رسول الله (ﷺ) بنظره الثاقب، ورؤيته المستشرفة لأفق بعيد، وغد جديد، أراد أن ينشر دعوته .. ويؤذن بمولد رسالته فى أماكن أخرى غير شعاب مكة ، حتى يكسب الدين الوليد أرضا جديدة، وفى هذا السبيل دعاية كبيرة لدين الله ، الذى يرغب الرسول (ﷺ) فى أن يظهره فى كل البلاد، ولدى جميع العباد ، حتى يكون الدين كله لله. وقد كان يؤمن ـ كما علمه ربه ـ أن أشد الناس قربا للمسلمين النصارى ، لذلك أرسل أتباعه إلى الحبشة ، لأنهم سيكونون أقرب مودة لأصحابه من كفار مكة ، الذين أعمى الله أبصارهم وبصائرهم **﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾** [المائدة : ٨٢] .

وسط هذه الظروف الضارية الصعبة التى مرت بالرسول وأصحابه ـ أراد رب العزة

أن يقدم لرسوله بعض ضوء ، يثبت فؤاده ، ويقوى إيمانه ، فقد وهب الله رسوله معجزة ، لم تعط لأحد من أولى العزم قبله ، تلك هى **حادثة الإسراء والمعْراج** ـ التى ورد ذكرها فى سورة تسمى باسم هذه الواقعة « الإسراء » ، وهى سورة مكية تبدأ بهذه الآية الكريمة :

﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الإسراء : ١] .

كما ورد ذكر هذه الحادثة مرة أخرى في سورة « النجم » وهى مكية أيضا :

﴿ **وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ** ﴾ [النجم: ١ ـ ١٨] (١) .

الحديث عن الإسراء والمعراج حديث عذب، يطول شرحه، وتتبع من تناولوه من رجال التفسير ورواة الحديث وكتاب السيرة وعلماء التاريخ، وهل كان الإسراء والمعراج بالجسد .. أم بالروح ... أم بهما معا ؟ أم كان مجرد رؤيا صادقة ؟! (٢) وكل رأي من هذه الآراء له سند ودليل عند من قالوا به (٣) .

ما يتصل بقضايا قصة الإسراء والمعراج .. وموقف المؤمنين والكافرين منها ، أمر يطول شرحه وتفسيره !! إنما الذى يعنينا بالدرجة الأولى ـ لأننا لا نكتب تاريخا

---

(١) هوى : غرب وسقط ـ ما ضل صاحبكم : (ما : نافية) ما عدل عن الحق ـ ماغوى : ما اعتقد اعتقادا باطلا قط ـ ذو مرة : خلق حسن ـ فاستوى : فاستقام على صورته الخلقية ـ دنا : قرب ـ قاب : قدر ـ أفتمارونه : أتجادلونه وتشكون فيما قال ـ نزلة أخرى : مرة أخرى ـ سدرة المنتهى : التى تنتهى عندها علوم الخلائق أجمعين ، وبعدها يكون علم الله سبحانه وتعالى ـ جنة المأوى : مقام أرواح الشهداء ـ يغشى السدرة: يغطيها ويسترها ـ مازاغ البصر : ما مال عما أمر برؤيته دون سواه ـ ما طغى : ما تجاوز ـ آيات : علامات القدرة والألوهية .

(٢) راجع ما تناوله هيكل فى هذا الموضوع فى : حياة محمد ، ص ٢٠٢ وما بعدها .

(٣) الذي نميل إليه هو أن الإسراء والمعراج كانا بالجسد والروح فى آن واحد ، لأن فى ذلك دلالة أكبر على تشريف الله لرسوله، وتثبيت قلبه وتأكيد نصرته له ـ والله تعالى أعلم .

للسيرة العطرة ـ هو التحليل .. والتعليل لسيرة الرسول (ﷺ) فى ضوء آيات الرسالة السامية ، التى أنزلها الله عليه .

إن دلالة الأحداث هى الغاية النبيلة لهذه الدراسة الدينية / الأدبية / المتواضعة ـ التى هدانا الله إليها ، وكشف سبيل الوصول إليها .

لقد وقعت معجزة الإسراء بعد وفاة أبى طالب وخديجة وكثرة مساءات قريش للنبى (ﷺ) والمسلمين، وحصارهم فى شعاب الجبال ومقاطعتهم اقتصاديا واجتماعيا ، وتعذيبهم بوحشية ضارية، بالإضافة إلى رد ثقيف غير الكريم على الرسول حين ذهب إليهم فى الطائف ، مما دفع النبى (ﷺ) إلى أن يرسل بعض أتباعه وفيهم ابنته رقية ـ رضى الله عنها ـ إلى الحبشة مع زوجها عثمان .

ومع أن صحيفة المقاطعة قد أكلتها الأرضة[1] ورغم اعتزاز المسلمين وتماسكهم بإسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب ، والزيادة المطردة فى عدد المسلمين عاما بعد آخر ، فإن ذلك لم يخفف من إحساس الرسول (ﷺ) بالحزن والخوف ؛ ومن ثم أراد رب العزة ـ سبحانه وتعالى ـ أن يشعر رسوله وحبيبه بأنه يحوطه برعايته ، ويشمله بكرمه، لذلك خصه بهذا الحدث المعجز العظيم، حتى يرى بعض آيات ربه الكبرى . وقد وقعت حادثة الإسراء والمعراج بعد عودة الرسول (ﷺ) من الطائف ، وما لقيه هناك من آلام واستهزاء .

❁ ❁ ❁

(١) حشرة تأكل الأخشاب والأوراق .

إلا تنصروه .. فقد نصـره الله

ضاقت شعاب مكة بأحب خلق الله إلى الله ، فمضى يبحث عن أرض جديدة ، ينشر منها رسالته ويحمى فيها جماعته . يا سبحان الله كان حبيب الله كالمستجير من الرمضاء بالنار. **تبا لكم يا أهل الطائف أهكذا تصنعون بأشرف خلق الله..؟!**

فى رحلة البحث عن مستقر جديد للدعوة خرج النبى المختار من مكة إلى الطائف وحيدا (١) . ويجب أن ندرك وعورة الطريق وقسوته بين القريتين ، فالطائف تقع على بعد حوالى مائة كيلو متر من أم القرى، كما أنها تقع على جبال عالية يبلغ ارتفاعها عن سطح الأرض حوالى ألف متر ، والطريق إليها متعرجة ملتفة(٢) . بيد أن زعماء الطائف أساءوا استقبال الرسول (ﷺ) . أكثر من هذا سلطوا عليه سفهاءهم وغلمانهم يسبونه ويقذفونه بالحجارة ، ففر منهم وجلس إلى حائط لا بنى ربيعة فاحتمى به . العجيب أنه لم يلن للرسول الكريم (ﷺ) فى الطائف إلا قلب عداس النصرانى . جلس الرسول بجوار الحائط يشكو إلى ربه والدماء تسيل منه ، والكرب يملأ نفسه ، ويوجع قلبه ، فلم ير ضوءا إلا فى السماء، فأخذ يشكو للخالق ما فعله الخلق :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى .. ؟! إلى بعيد يتجهمنى، أم إلى عدو ملكته أمرى . إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى، ولكن عافيتك أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو تحل على سخطك . لك العتبى حتى ترضى . ولا حول ولا قوة إلا بك » (٣) .

ويعلق السيد سليمان الندوى على موقف أهل الطائف من الرسول (ﷺ) فيقول: « إن ما لقيه من أذى أهل الطائف لم ينسه طوال حياته . ولقد سألته عائشة بعد ذلك بتسع سنين عن أشد ما لقيه من بلاء ، فأخبرها بأنه يوم الطائف.

(١) راجع ما كتبه د. هيكل عن الطائف فى : منزل الوحى ، ص ٣١٠ .
(٢) ثمة روايات تذكر أن الرسول (ﷺ) صحب معه ابنه بالتبنى زيدافى رحلة الطائف .
(٣) هوان : ذل ـ تكلنى : تتركنى ـ يتجهمنى : يعبس فى وجهى ، كناية عن سوء المقابلة والمعاملة ـ العتبى: العفو والسماح .

وكـان بعـد ذلك أن زحف المسلمـون على الطائف فى السنة الثـامنة للهـجـرة وحاصروها ، فأطالوا حصارها واستعصى عليهم حصنها الحصين الذى قتل فيه كثيرون منهم . فهم الرسول أن يرجع عنها ، لكن أصحابه أبوْا إلا الفتح ، وسألوا النبى (ﷺ) أن يدعو على أهل الطائف، فرفع يديه إلى السماء يدعو فقال :

« اللهم اهد أهل الطائف ، اللهم ألن قلوبهم للإسلام ، ومكنه فيها » .

هذه هى رحمة الرسول وسعة صدره وسماحة خلقه وكرم نفسه . يدعو بالخير للذين آذوه بالشر أشد الأذى . وأبوا أن يجيروه حين استجار بهم ، ثم قاتلوه أشد القتال . ومع كل هذا لم يسأل الله لهم إلا أعظم ما يعلمه من الخير وهو الهدى . أرأيتم رجلا آخر فى الدنيا بلغت الرحمة من قلبه هذا المبلغ ؟ » (١)

❁ ❁ ❁

لم تحل التجربة القاسية للرسول ﷺ مع أهل الطائف دون أن يكرر المحاولة مثنى وثلاث ورباع . إنه لا يبحث لنفسه عن خلاص فردىّ .. وإنما يبحث عن سبيل لخلاص أمة ونشر رسالة . ومازال يحاول ... ويحاول ، حتى تمت بيعتا العقبة الأولى والثانية ، فاتفق مع أهل يثرب بحضور عمه العباس بن عبد المطلب على أن يهاجر إليهم بعد أن أخذ منهم عهد الله وميثاقه . وقد أمر الرسول أتباعه بأن يهاجروا قبله ، بينما بقى هو ينتظر أمر ربه .

إن هذه البيعة المباركة بيعة العقبة الثانية : تدل دلالة بينة على ظهور ملمح جديد من ملامح شخصية الرسول العظيمة ، فقد بدأ يعنى **بمجال تأسيس الدولة** بعد أن قام بتثبيت الدعوة . ولكم تبذل الدول الحديثة من الجهد والوقت حتى تبرم معاهدة مثل هذه المعاهدة الميمونة .. !! لكن عبقرية الرسول التى تشكلت بتوفيق الله وهداه ساعدته على أن يعقد هذه المعاهدة، لتكون يثرب النواة الطيبة لتأسيس دولة إسلامية ، تنافس دولتى الفرس والروم ، بل إنها سوف تصل إلى مالم تصل

(١) السيد سليمان الندوى : الرسالة المحمدية ترجمة محمد ناظم الندوى ـ ط دار الفتح ـ دمشق ـ ١٤٠١ ـ ١٩٨٢ ، ص ١٩٢.

إليه أيٌّ منهما . إذْ يكفى الدولة الإسلامية ـ فخراً ـ أنها غرس محمد وثمرة جهاده فى سبيل الله ، حيث بايعهم على وحدة المصير فى السلم والحرب ، فقد قال ردا على من تخوف من الأنصار : « الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم»[١] .

يارعاك الله يارسول الله بقدر ما تحملت فى تبليغ الرسالة وتبثيت معالم الدولة ـ دولة الإسلام ، التى سيظل ضوؤها منيرا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فرسولنا محمد (ﷺ) مبعوث رحمة للعالمين كافة : ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ٧٩] .

كما أن الله قد وعد ـ ووعده الحق ـ أن الأرض يرثها الصالحون من عباده ، المؤمنون برسالة خاتم رسله : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٥] [٢] .

❁❁❁

لم تغفل أعين طغاة قريش عن متابعة مسيرة الرسول المظفرة ، ووجدوا أن كل ما فعلوه قد ذهب هباء جفاء . فما زال محمد (ﷺ) يمضى فى دعوته .. والدعوة تزداد أنصارا كل يوم . وقد جاءت الكفار الفتوى من كبيرهم المغرور أبى جهل عمرو بن هشام : « والله إن لى لرأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد . قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ قال : نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جلدا، ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارما، ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد ، فيقتلوه ، فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فرضوا منا بالعقل ، فعقلناه » [٣] .

﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٤] .

فى تلك الليلة التى تجمعتْ فيها هذه العصبةُ المسلحة للفتك بالرسول (ﷺ) ..

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ، ص ١٠٦ ـ الهدم : إهدار الدم .
(٢) الزبور : الكتب الدينية المنزلة على الرسل والأنبياء ـ الذكر : اللوح المحفوظ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١١٢ ـ العقل : الدية .

خرج ـ مهاجراً ـ آمناً مطمئناً ، بينما غشيهم النعاسُ جميعاً . مضى الرسولُ ـ تحرسه عناية الله ـ وهو يتلو قوله تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴾ [يس : ٩] .

هكذا نصر الله عبده .. وأتم فضله . وبدله قوما أفضل من قومه . لم يأت النصر إلى الرسول (ﷺ) من أحد ، وإنما من عند الله الواحد الأحد :

﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٤٠] (١) .

ثلاث عشرة سنة قضاها الرسول (ﷺ) فى مكة ، يدعو إلى عبادة الله سبحانه ، وتحمل العذاب ، حتى تمت المرحلة الأولى من سيرة الرسول ومسيرة الرسالة ، وكان عدد الذين أسلموا فى هذه المرحلة المكية زهاء ثلاثمائة شخص فقط . لقد خرج الرسول (ﷺ) من مكة مكرها بعد أن نشر الدعوة فى أم القرى وما حولها ، ووصلت أصداء رسالته إلى الحبشة ، ثم بعد ذلك إلى يثرب ، حيث يبدأ عهد جديد، عهد ثبت دعائمه أفضل الدعاة وأعظم القادة فى تاريخ البشرية جمعاء .

❁❁❁

(١) سكينة : طمأنينة .

المبْحَثُ الرابع

مـن المدينـة .. إلى العـالم

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٨]

مـن المدينـة .. إلى العـالم

أدوار مـتعددة

شخصية الرسول (ﷺ) ـ كما تتضح معالمها من خلال آيات الذكر الحكيم والأحاديث الشريفة المروية عنه .. وكتب السيرة ـ شخصية إنسان عبقرى ، أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وصقلته التجارب الصعبة ، التى تعرض لها منذ المولد حتى الوفاة . والوعى بتاريخ هذه الشخصية العظيمة ليس درسا دينيا فحسب ، لكنه فى المقام الأول : **درس فى عظمة الإنسان ، وقدرته على النجاة من كل ما يتعرض له من مخاطر وعقبات ، والنجاح فى كل ما يضطلع منه من أعمال ومسئوليات ـ بإذن الله تعالى** .

تلك ـ لعمرى ـ حقيقة شهد بها الخصوم قبل الأنصار ، فالنجاشى ملك الحبشة حين جاءته الجماعة الأولى المهاجرة من ظلم قريش ـ واستمع إلى كلام جعفر بن أبى طالب ـ اطمأن إلى أن محمدا (ﷺ) رسول صادق مثل عيسى ابن مريم ، فأقر له بالفضل والعظمة ، ومن أجل ذلك قبل أن يجير المؤمنين به فى بلاده، أو بتعبير أم سلمة: « وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار » [١] .

وتوماس كارليل T. KARLIEL مؤلف كتاب « الأبطال » لم يجد نموذجا لشخصية (النبى البطل) أفضل من شخصية محمد (ﷺ) ، ومع أنه فيلسوف مسيحى ، لكنه لم يختر شخصية موسى أو عيسى ـ رغم كونهما أقرب عاطفيا إليه.

نود أن نشير ـ باختصار شديد ـ إلى أن مراحل حياة الرسول الكريم محمد بن عبد الله (ﷺ) كانت متنوعة .. خصبة ، محتشدة ، تفيض بخلال نبيلة وأعمال جليلة ، لذلك ما أحرانا فى هذا العصر المادى ـ الذى يندر أن نجد فيه مثالا للإنسان الفاضل والقائد الكامل ـ أن نلتمس منه المثل الأعلى الذى تطمح البشرية فى جميع مراحلها إلى الاقتباس من نوره والسير على خطاه . إن كل صفحة نتلوها فى مسيرة محمد (ﷺ) معجزة . لكنها معجزة صادرة من إنسان .

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ، ص ٧٥ وما بعدها .

وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ [الأحزاب : ٢١] (١) .

نعود بعد هذا لنوضح الحقائق الباهرة التالية :

أولاً : شخصية الرسول فى المرحلة الأولى من حياته ـ قبل الزواج ـ تعد **مرحلة إعداد نموذج الإنسان الصادق الأمين** : الذى لا يفقد قومه ـ حتى وهم فى حالة ألد الخصومة ـ الثقة فى صدقه وأمانته . هكذا ينبغى أن تكون سيرة من يطمح إلى القيام بدور مؤثر فى حياة أمته نقيةً طاهرة ، لأن جمال السيرة يؤدى إلى جلال الصورة . ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

هكذا لا نستطيع أن نثنى على الرسول الكريم بأكثر مما قاله رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

ثانياً : شخصية الرسول فى مرحلة ما بين الزواج إلى الوحى .. تمثل **مرحلة الاستقرار الاجتماعى والأسرى** ، لكنها من زاوية أخرى أهم وأعم ـ فى تقديرنا ـ تمثل **مرحلة التأمل والتفكير فى أمر الخالق والكون** : بحثا عن بعث جديد لأمة، تقطعت أوصالها ، وعميت بصائرها ، تسير مثل الشياه الضالة أو الإبل النافرة فى انتظار راع يقودها إلى طريق الصلاح والفلاح . كان الرسولُ مثل جده إبراهيم عليهما السلام ، يستنطق المخلوقات بحثا عن الخالق ، الذى خلق الإنسان من علق ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك : ١ ـ ٤] (٢) .

تأمل الرسول وفكر .. وأدرك أن فى السماء لعبرا ، وإن على الأرض لخبرا . وأخيرا توصل بنور البصيرة ونقاء الفطرة إلى أن وراء الكون إلها عظيما ﴿ يَعْلَمُ مَا

---

(١) أسوة : قدوة ومثال .

(٢) تبارك : تعالى ـ الملك : الأمر والنهى والسلطان ـ ليبلوكم : ليختبركم ـ طباقا : كل سماء مقببة على الأخرى ـ تفاوت : اختلاف وعدم تناسب ـ فطور : صدوع وخلل ـ خاسئا : صاغرا ـ حسير : كليل ومجهد.

يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [الحديد: ٤ ـ ٦] (١) .

ثالثاً : مرحلة النبى الهادى : الحريص على إنقاذ قومه من ضلال الكفر وظلام الجهل إلى نور الإيمان .

كانت تلك مرحلة بداية البعث برسالة الإسلام الغراء . لقد رأى الرسول ما رأى من آيات ربه الكبرى فى الكون ، فأخذ يبشر قومه بثواب التوحيد والإيمان ، ويحذرهم من عقاب الجهل والشرك . وكان فى ذلك حريصا عليهم غاية الحرص، حتى يخرجهم من الظلمات إلى النور ، وظل يدعو فى كل ركعة : اللهم ... ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة : ٥ ـ ٧].

ومرحلة النبى الهادى الحريص على إنقاذ أمته نستدل عليها من آيات كثيرة ، منها قوله ـ عز من قائل : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨] .

﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد : ٧] (٢) .

رابعاً : مرحلة السياسى الحكيم : الذى يرعى مصالح أتباعه ، ويفكر فى مصير أمته ، ويبحث لهم عن مخرج لحل أزماتهم الروحية والاجتماعية .

وقد بدأت هذه المرحلة فى حياة الرسول (ﷺ) بعد أن ضاقت به وبأنصاره صدور أهل مكة ـ قبل أن تضيق بهم شعابها :

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ... ولكن أخلاق الرجال تضيق

ومن ثمّ بدأ يفكر فى البحث عن مستقر آمن للدعوة ، حتى يستطيع أن يؤسس الدولة ، لذلك بعث بهجرتين إلى الحبشة ، وأخذ يقابل زعماء القبائل فى المواسم، أو يسعى هو إليهم فى أماكنهم ـ كما فعل مع بعض زعماء الطائف . وأخيرا

(١) يولج : يدخل ـ يعرج : يصعد .
(٢) هادى : رسول يهديهم إلى الطريق المستقيم .

استطاع أن يعقد : (بيعة) العقبة الكبرى .. أو بلغة عصرنا سياسيا (معاهدة) سياسية. وقد حرص علـى أن يحضرها عمه العباس ـ رغم أنه لم يكن قد أسلم بعد ـ حتى يكون شاهدا وضامنا لصدق التنفيذ . وهذه المعاهدة .. أو المبايعة تنص على ما قاله عبادة بن الصامت :

« بايعنا رسول الله (ﷺ) بيعة الحرب على السمع والطاعة فى عسرنا ويسرنا ، ومنشطنا ومكرهنا ، وأثرة علينا ، وألا ننازع الأمر أهله ، وأن نقول الحق أينما كنا، لا نخاف فى الله لومة لائم » [1] .

وقد أيد القرآن العظيم رأى السياسى الحكيم ، حين حاول أن ينتصر لأتباعه المظلومين :

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج : ٣٩ـ٤٠] .

النبى الكريم (ﷺ) لم يكن رسولا هاديا فحسب ، وإنما هو أيضا مؤسس دولة، وراعى أمة ، وقد بدأت هذه المرحلة بوضوح مع الانتقال إلى المدينة ، التى تعد العاصمة السياسية لأول دولة إسلامية بقيادة محمد ﷺ. وكان بعض صحابته المقربين بمثابة الوزراء والمستشارين فى كافة شئون الدولة ، كما كان حكمه يقوم على مبدأ الشورى . وثمة سورة قرآنية تسمى « سورة الشورى » وهى سورة مكية رقمها (٤٢) ، وذلك يدل دلالة واضحة على أهمية مبدأ الشورى فى الإسلام :

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى : ٣٨] .

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

خامساً : مرحلة القائد العسكرى المظفر ـ الذى يعرف كيف يخطط معاركه،

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ، ص ١٠٨ ـ المنشط : المحبوب عكس المكروه ـ أثرة علينا : نؤثرهم أو نفضلهم على أنفسنا .

خامساً : مرحلة القائد العسكرى المظفر ـ الذى يعرف كيف يخطط معاركه، ويحقق النصر لجنده ، فقد انتصر جيش الرسول فى كل الغزوات . وما أصاب المسلمين من هزيمة فى « غزوة أحد » كان بسبب أنهم خالفوا أمر الرسول (ﷺ) وشغلوا بالغنائم قبل أن تنتهى المعركة .

كما أن ما حدث فى غزوة حنين كان بسبب دخول عدد كبير من حديثى عهد بالإسلام ضمن جيش المسلمين . وقد أدت هذه الكثرة إلى قدر من الغرور والاختيال وعدم الامتثال لأوامر القائد العظيم (ﷺ) .. ﴿ **وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا** ﴾ [التوبة : ٢٥ ـ ٢٦] .

كان الرسول (ﷺ) قائدا مظفرا من طراز فريد ، وقاد جنوده من نصر إلى نصر ، حتى نشر الرسالة وبلغ الأمانة . وقد انتقل الرسول (ﷺ) إلى الرفيق الأعلى ، وهو يجهز جيشا بقيادة الشاب الصغير أسامة بن زيد ـ كان مقدراً أن يكون فيه أبو بكر وعمر وخالد بن الوليد وغيرهم ـ لمحاربة الروم فى جنوب الشام .

وعبقرية الرسول (ﷺ) الحربية تعكس عنصرا مهما من عناصر تكوين هذه الشخصية العظيمة فى كل مجال .. وفى كل مرحلة ، فقد كان محمد رجلا واحدا ، لكنه استطاع أن يفتح قلوب العباد وحدود البلاد بكلمة التوحيد . وكيف يضل قائد يستلهم فكره من نبع القرآن العظيم ؟! القرآن خلق محمد (ﷺ) ودستوره .. ومعجزته الخالدة ـ كما سنوضح فيما بعد . وسورة محمد توضح بعض مبادىء الحرب والقتال ومنها :

﴿ **فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** ﴾ [محمد : ٤ ـ٧] .

وقد اشتملت « سورة الأنفال » بالإضافة إلى « سورة محمد » على كثير من مبادىء الحرب والجهاد والاستعداد للعدو ، وما ينبغى أن يكون بشأن الأسرى وتقسيم الغنائم ، ومن أهم هذه المبادىء :

١ ـ ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ** ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

٢ـ ﴿ **وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ [الأنفال : ٦١] .

٣ ـ ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ** ﴾ [الأنفال : ٦٥] .

٤ ـ اختلف المسلمون فى شأن أسرى غزوة بدر ، وكان رأى الفاروق عمر ـ رضى الله عنه ـ فيهم القتل ، حتى يصيروا عبرة لغيرهم ، وزجرا لمن يحاول أن يتجرأ على قتال المسلمين .

لكن الرسول الرءوف الرحيم (ﷺ) بما طبع عليه قلبه من رحمة وشفقة آثر عدم القتل ، وأخذ الفداء . وقد نزل القرآن مؤيدا رأى عمر ومعاتبا الرسول (ﷺ) فيما مال إليه : ﴿ **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [الأنفال : ٦٧ ـ ٦٩] .

✿ ✿ ✿

سوف نحاول ـ بفضل من الله ـ أن نركز على المرحلتين الاخيرتين : الرابعة والخامسة ، لأنهما تشكلان عنصرين مهمين فى هذه الفترة الأخيرة من حياته (ﷺ) التى هى محور هذا الفصل .

الواقع أن سيرة الرسول (ﷺ) رغم كل ما كتب فيها من منظور إسلامى أو عالمى .. ومن خلال منهج تاريخى أو تحليلى ـ لا تزال نبعا ثرا لمن يدرسها فى

أى مجال من مجالات هذه الشخصية الكاملة الفاضلة ـ شخصية محمد (ﷺ) عبد الله ورسوله .

إن أعظم جانب فى حياة الرسول .. هو جانب كونه إنسانا بشرا مثل كافة خلق الله ، وهو يقر بهذا فى آيات بينات كثيرة منها :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ [الكهف : ١١٠] .

﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء : ٩٣] .

فى تأكيد البشرية يكمن مفتاح العبقرية ، إذ استطاع هذا الرسول الإنسان ، الذى نشأ عائلا ، يتيما ، لطيما ـ لا أب ... لا أم ... لا أخت ـ أن يكتب أنصع صفحة فى تاريخ البشرية ، هذه الصفحة لم تسجلها أقلام المؤرخين والمؤلفين ، وإنما سطرت فى صحف مطهرة ـ فى كتاب مكنون ، لا يمسه إلا المطهرون .

❁ ❁ ❁

القائد المظفر

وصل الرسول (ﷺ) إلى يثرب ـ التى سيتغير اسمها بعد ذلك إلى المدينة المنورة ـ بصحبة صديقه ووزيره الأول وخليفته فيما بعد أبى بكر الصديق ، وفى نيته أن يؤسس دولة لخير أمة . وحتى يتحقق له ما يريد ، بدأ خطوةً ضرورية .. وهى المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين ، وعقد معاهدة مع اليهود ، تضمن لأصحاب كل شريعة حرية العقيدة ـ شريطة ألا يخون أى منهم الآخر .

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٤] (١) .

نظم الرسول (ﷺ) مجتمع المدينة ، فآخى بين المهاجرين والأنصار ، ودون معاهدة لحفظ الحقوق بين المسلمين واليهود ، وبنى لنفسه بيتاً ، وللمسلمين مسجدا يعبدون الله فيه جهرة ، يدعوهم فى كل فرض صوت بلال ـ أول مؤذن فى الإسلام . ومع بداية عهد الاستقرار والراحة تزوج الرسول (ﷺ) من السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ، التى ستكون أحب أزواجه إليه بعد خديجة ـ رحمها الله رحمة واسعة .

هكذا استقرت حياة الرسول (ﷺ) والمسلمين ـ فى يثرب ـ وكان ذلك وعدا من الله الذى لا يخلف وعده . وهذا ما تنص عليه الآية الكريمة :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور : ٥٥] .

أقام الرسول فى مكة ثلاث عشرة سنة .. وفى المدينة عشر سنوات ، لكن الأحداث والوقائع فى المدينة كانت أكثر وأعقد وأصعب ، لأن المرحلة المدنية تعد مرحلة تأسيس الدولة وتطبيق مبادىء الإسلام ، حتى ينتشر ضوء الرسالة إلى الخلق أجمعين فى مشارق الأرض ومغاربها ، من تلك المدينة المنورة بنور الإسلام وبركة

(١) كلمة سواء : كلام عدل لا تختلف فيه الشرائع ـ أرباب : ج رب .. إله .

فى المدينة بدأ يبرز جانب عظيم من جوانب شخصية الرسول (ﷺ) وهو جانب القائد المظفر الذى يعرف كيف ومتى وأين يخوض المعارك : انتصارا للدين ، وتثبيتا لأركان الدولة ، وتخويفا للأعداء والمنافقين .

❁ ❁ ❁

الغزوات ... وأسباب النصر

بعد شهور قليلة لا تتجاوز الستة من الإقامة فى يثرب ، أخذ الرسول (ﷺ) يرسل مجموعة من السرايا [1] الحربية ، تستطلع أخبار قوافل قريش التجارية التى تأتى من الشام ، وتمر فى طريق عودتها إلى مكة على يثرب ، ومن أهم هذه السرايا :

١ ـ سرية عبيدة بن الحارث بن المطلب .
٢ ـ سرية حمزة بن عبد المطلب .
٣ ـ سرية سعد بن أبى وقاص .
٤ ـ سرية عبد الله بن جحش .

كانت هذه السرايا تهدف إلى أخذ الثأر من قريش التى طردت المسلمين بغير الحق ، واستولت على أموالهم وديارهم . ومن جانب آخر غير مباشر كانت تهدف إلى إخافة اليهود والمنافقين ، الذين بدءوا يثيرون بعض الفتن والقلاقل ضد الرسول والمسلمين . أخيرا فإن هذه السرايا كانت إعدادا لجيش الإسلام حتى يقود أول حرب مظفرة له ، وهى غزوة بدر الكبرى ، التى حدثت فى يوم ١٧ من رمضان فى السنة الثانية من هجرته الشريفة (ﷺ) إلى يثرب .

بدأ القائد ينظم جنده من المهاجرين والأنصار ، ويذكرهم بما وعد ربهم ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ۝٨ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٧ ـ ١٠] .

وقد تعاهد الأنصار والمهاجرون على نصرة الله ورسوله ، وحين استشارهم الرسول

---

(١) السرايا : جمع سرية : وهى مجموعة صغيرة من الجنود . ولا يزال هذا المصطلح العسكرى متسخدما حتى اليوم .

(ﷺ) في أمر الحرب ـ قام المقداد بن عامر ـ رضى الله عنه فقال : « يارسول الله امض لما أمرك الله ، فو الله لا نقول لك ما قالت بنو إسرائيل لموسى : « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون » ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، والله لو سرت بنا برك الغماد ، لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه » (١)

والمقداد بن الأسود (ت ٣٣ هـ)(٢) واحد الفرسان الأبطال الذين تخرجوا فى إطار عبقرية محمد (ﷺ) الحربية . وهو فى هذا المجال الحربى يشبه : حمزة بن عبد المطلب ، وعلى بن أبى طالب ، وعبد الله بن جحش ، والزبير بن العوام ، وسعد بن معاذ ، وطلحة بن عبيد الله بن الجراح ، وسعد بن أبى وقاص ، وزيد بن حارثة(٣) ، وابنه أسامة ، والحباب بن المنذر ، وعبد الله بن رواحة ، وعبيدة بن الحارث بن المطلب ، وجعفر بن أبى طالب ، وخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص...

فهؤلاء الأبطال ـ وغيرهم كثيرون ـ تعلموا فى مدرسة محمد الحربية ، وتتلمذوا على يديه الكريمتين ، حتى صارت بطولاتهم مضرب الأمثال .

ومع أن أى قائد من حقه أن يأمر فيطاع ، لكن الرسول الكريم (ﷺ) كان قائدا رحب الصدر، يعتمد على الشورى فى اتخاذ القرار الحربى ـ وغير الحربى.

إن جيش المسلمين عندما توجه لانتظار قافلة قريش، ونزل عند أدنى ماء بدر «قال له الحباب بن المنذر الأنصارى، (٤) وكان مشهورا بجودة الرأى : يارسول الله أهذا منزل أنزلكه الله ، ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الحرب والرأى والمكيدة . فقال : يارسول الله : ليس لك هذا بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم ، فإنى أعرف غزارة مائه

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ، ص ١٠٢ .
برك الغماد : موضع وراء مكة بخمس ليال مما يلى البحر .
(٢) المقداد بن الأسود : صحابى من السبعة الذين كانوا أول من أظهر الإسلام ، وهو أول من قاتل على فرس فى سبيل الله . وفى حديث شريف : « إن الله عز وجل أمرنى بحب أربعة وأخبرنى أنه يحبهم ، على ، والمقداد، وأبو ذر ، وسلمان » وقد سكن فى المدينة وتوفى بالقرب منها سنة ٣٣ هـ = ٦٥٣ م .
(٣) زيد بن حارثة : كان عبدا عند السيدة خديجة ، فاستوهبها الرسول إياه ، ثم اعتقه وتبناه ـ قبل البعثة ، لوفاة أبنائه الذكور .
(٤) الحباب بن المنذر : صحابى من الشجعان الشعراء . قال الثعالبى هو صاحب المشورة يوم بدر ، أخذ النبى (ﷺ) برأيه ، وكانت له فى الجاهلية آراء مشهورة . مات فى خلافة عمر سنة ٢٠ هـ ـ ٦٤٠ م .

وكثرته ، فتنزله ونغور ما عداه من الآبار، ثم نبنى عليه حوضا فنملأه ماء ، فنشرب ولا يشربون.

فقال الرسول عليه السلام : لقد أشرت بالرأى (١) ».

ثم قال له سعد بن معاذ سيد الأوس : يانبى الله ألا نبنى لك عريشا تكون فيه ونعد عندك ركائبك ، ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله تعالى وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن ورءنا ، فقد تخلف عنك أقوام يا نبى الله ما نحن بأشد حبا منهم ، ولا أطوع لك منهم رغبة فى الجهاد ونية ، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك ، إنما ظنوا أنها العير ، يمنعك الله بهم ، ويناصحونك ويجاهدون معك . فقال عليه الصلاة والسلام: أو يقضى الله خيرا من ذلك ؟!

ثم بنى للرسول عريش فوق تل مشرف على ميدان الحرب ، ولما اجتمعوا (٣) عدل عليه الصلاة والسلام صفوفهم ، [وجعل] مناكبهم متلاصقة ، فصاروا كأنهم بنيان مرصوص . ثم نظر لقريش فقال :

اللهم هذه قريش أقبلت بخيلائها وفخرها ، تحادك (٤) وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى به » (٥) .

كذلك فإن الرسول (ﷺ) فى غزوة الأحزاب بنى (خندقا) فى الجهة الشمالية من المدينة المنورة ، وكانت تلك الجهة هى الجهة الوحيدة المكشوفة للأعداء . وقد تم حفر هذا الخندق بمشورة سلمان الفارسى . وعلى هذا فقد كان الرسول القائد (ﷺ) يحسن التخطيط لمعاركه ، ويستشير أصحابه فى أساليب الكر والفر، ويشرف بنفسه على الجيش قبل أن يدخل المعركة ، بالإضافة إلى هذا **قام بدور مهم جدا اهتم به الفكر العسكرى فى العصر الحديث وعنى به عناية فائقة ـ وهو الحرب النفسية ورفع الروح المعنوية للجنود، لأن السلامة النفسية أساس نجاح البشر فى السلم وانتصارهم فى الحرب .**

حين التقى الجمعان فى أثناء غزوة بدر ترك الرسول العريش الذى كان يحتمى

(١) بالرأى : بالرأي الصواب ، وكان تنفيذ رأيه من أهم أسباب النصر .
(٢) أظهرنا : نصرنا .
(٣) اجتمعوا : تجمعوا استعدادا للحرب .
(٤) تحادك : تتحداك وتعاندك .
(٥) تهذيب سيرة ابن هشام ، ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

فيه ، ونزل إلى صفوف الجنود يحرضهم ، ويقوى إيمانهم ويشجعهم على القتال قائلاً : والذى نفس محمد بيده لايقاتلهم اليوم رجل ، فيقتل صابرا محتسبا ، مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة .

فقال عمير بن الحمام ـ أخو بنى سلمة ـ وفى يده تمرات يأكلهن : بخ بخ ، أفما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء . ثم قذف التمرات من يده ، وأخذ سيفه ، فقاتل القوم حتى قتل .. !!

ثم إن رسول الله (ﷺ) أخذ حفنة من الحصباء ، فاستقبل قريشا بها ثم قال : شاهت الوجوه . ثم نفحهم بها ، وأمر أصحابه فقال : شدوا . فكانت الهزيمة. فقتل من قتل من صناديد قريش ، وأسر من أسر من أشرافهم » [1] .

إن ما حدث من الرسول فى غزوبة بدر (ﷺ) مثال لعبقريته الحربية فى المعارك ، التى خاضوها باستثناء « غزوة أحد » التى لم يلتزم فيها بعض جنود المسلمين بأوامر القائد العظم محمد (ﷺ) الذى كان يقف فى طليعة رجاله حين تحتدم نار الحرب ، ويهاب شواظها من لا يهاب ، وكان على فارس من الفرسان أن يقول فى حقه :

« **كنا إذا حمى البأس اتقينا برسول الله (ﷺ) .. فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه** » [2] .

❁ ❁ ❁

يدخل فى إطار الحرب النفسية التى عنى بها الرسول (ﷺ) فى أثناء معاركه الحربية والمعنوية مع الكفار واليهود ـ **توظيف الشعر باعتباره سلاحا مؤثرا وسيفا بتارا** فى حياة القبائل العربية ، ولا يعنينا ذكر شعراء معسكر الأعداء ، وإنما يعنينا ذكر أهم شعراء الرسول (ﷺ) .. وهم : حسان بن ثابت الخزرجى ، وعبد الله بن رواحة الفارس الشاعر الذى أبلى بلاء حسنا فى الجهاد فى سبيل الله ، حتى قتل فى غزوة مؤتة فى السنة الثامنة من الهجرة ، وكعب بن مالك . وقد اشتعلت المعارك الشعرية بين شعراء المسلمين وشعراء الكفار فى الوقت الذى دارت فيه رحى الحرب بينهم ، إذ يروى أن الأنصار قالوا « ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ، ص ١٤٧ ـ صناديد : فرسان .
(٢) عباس العقاد : عبقرية محمد ، ص ٥١ ـ البأس : الحرب ـ اتقينا : احتمينا .

فقال حسان بن ثابت : أنا لها ، وأخذ بطرف لسانه ، ثم قال : والله ما يسرنى به مقول بين بصرى وصنعاء » (١) .

وقد أذن الرسول (ﷺ) لشعرائه أن يهجوا الكافرين الذين كانوا يصدون عن سبيل الله ، ويهجون الرسول (ﷺ) والذين آمنوا معه ، من ذلك ما قاله حسان فى رده على هجاء أبى سفيان بن الحارث :

هجوت محمدا فأجبت عنه — وعند الله في ذاك الجزاء

أتهجوه ولست له بكفء — فشركما لخيركما الفداء

فإن أبي ووالده وعرضي — لعرض محمد منكم وقاء

ومما قاله أيضا عبد الله بن رواحة فى معرض الدفاع عن الرسول (ﷺ) : (٢)

نجالد الناس عن عرض فنأسرهم — فينا النبي وفينا تنزل السور

وقد علمتم بأنا ليس غالبنا — حي من الناس إن عزوا وإن كثروا

يا هاشم الخير إن الله فضلكم — علي البرية فضلا ما له غير

فثبت الله ما آتاك من حسن — تثبت موسى ونصرا كالذي نصروا

وكان بعض المسلمين يرتجل فى المعارك مقطوعات من الرجز ، يحدو بها، ويكررها بعض الجنود المسلمين خلفه من أجل إثارة روح الحماسة فى نفوس المجاهدين ، من ذلك هذا الرجز الذى ينسب إلى عامر بن الأكوع :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا — ولا تصدقنا ولا صلينا

فاغفرْ فداء لك ما اتقيْنا — وثبت الأقدام إن لاقينا

وألقين سكينة علينا — إنا إذا صيح بنا أبينا

وبالصياح عولوا علينا(٣)

(١) د. شوق ضيف : العصر الإسلامى ، ص ٤٧ .
(٢) إبراهيم العلى : صحيح السيرة النبوية ، ط . دار النفائس ـ الأردن ١٤١٥ ـ ١٩٩٥ ، ص ٣٣٩ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٤٨ ، ٤٩ ـ الصياح : طلب النجدة والمساعدة .

الحديث عن توظيف الرسول (ﷺ) للشعر فى معاركه الحربية باعتباره سلاحا ماضيا من أسلحة النصر ، يحتاج إلى وقفة خاصة ـ ليس هنا مجالها ـ وإنما حسبنا أن نشير إلى اهتمامه (ﷺ) بكل ما يمكن أن يحقق النصر لجنوده فى الحرب .

✿ ✿ ✿

نحيل من يريد أن يقرأ الكثير عن غزوات الرسول (ﷺ) ودوره البطولى فيها إلى مجموعة الكتب المهمة ، لأننا لا نعنى بالأحداث التاريخية ، وإنما نعنى فى المقام الأول باستشفاف مغزى المواقف والأحداث فى ضوء آيات القرآن الكريم . إنه لا اجتهاد مع النص ، والقرآن هو الدستور الذى نسير فى ضوء هديه ، وندرس فى إطار نهجه، وما نقدمه ليس إلا اجتهادا متواضعا لنبين أهم أحداث سيرة الرسول (ﷺ) فى ضوء آيات الذكر الحكيم ، وهذه الكتب هى :

١ ـ سيرة سيدنا محمد رسول الله : المعروفة بسيرة ابن هشام .

٢ـ تهذيب سيرة ابن هشام : عبد السلام هارون .

٣ ـ تاريخ الرسل والملوك : أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ـ ج ١ ، ٢ .

٤ ـ البداية والنهاية فى التاريخ : ابن كثير الدمشقى .

٥ ـ فجر الإسلام : أحمد أمين .

٦ ـ حياة محمد (ﷺ) : محمد حسين هيكل .

٧ ـ عبقرية محمد : عباس محمود العقاد .

٨ ـ نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين : محمد الخضرى .

٩ ـ الإشارة إلى سيرة المصطفى : الحافظ مغلطاى بن قليج .

١٠ ـ صحيح السيرة النبوية : إبراهيم العلى .

١١ ـ الرحيق المختوم : صفى الرحمن المباركفورى .

✿ ✿ ✿

وقد نجحت خطة القائد العظيم (ﷺ) من وراء هذه الغزوات كلها ، فقد دانت قرى الحجاز ، وخضعت صحراء نجد لجيش الرسول (ﷺ) وسياسته العسكرية

الحكيمة . وقبل أن ينتقل (ﷺ) إلى الرفيق الأعلى بدأ يحاول استكمال مسيرة الغزوات من أجل نشر الرسالة خارج حدود الجزيرة . فرسالة الإسلام لم يخص بها الله سبحانه وتعالى العرب وحدهم ، وإنما هى رسالة للبشر كافة . تلك هى الدلالة الناصعة لغزوة مؤتة ، التى استشهد فيها ابنه بالتبنى زيد بن حارثة ، لذلك فكر الرسول القائد (ﷺ) فى أن يرسل حملة جديدة بقيادة ابنه أسامة ـ رغم كونه شابا صغيرا فى حدود العشرين من عمره .

❁ ❁ ❁

هكذا كانت المدينة المنورة .. نقطة الانطلاق الكبرى ، التى فتحت الباب لنشر الدعوة فى العالم كله . وبعد وفاته ﷺ بسنوات معدودات تصل رسالة الإسلام إلى حدود الصين شرقا .. وإلى حدود روسيا وفرنسا شمالا .. وإلى حدود المغرب والأندلس غربا .. وإلى حدود وسط إفريقيا .. وجزر أندونسيا والملايو والفلبين جنوبا.

والقرآن الكريم يشيد ـ فى آيات كثيرة ـ بدور أهل المدينة فى نشر رسالة الإسلام، ويبشر بما أعده الله سبحانه لهم من ثواب عظيم :

﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ١٠٠]

فى آية أخرى من السورة نفسها يقول سبحانه وتعالى : **﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾** [التوبة : ١١٧] [١].

ثمة آيات أخرى تؤكد هذه الدلالة ، ومنها ـ أيضا ـ قوله جل من قائل :

﴿ مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً

(١) العسرة : الشدة ـ يزيغ : يميل إلى التخلف عن الجهاد .

وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٠ ـ ١٢١] .

وقد بشر القائد المظفر أتباعه وجنوده فى أكثر من مناسبة بأنهم سوف يفتحون مشارق الأرض ومغاربها. روى مسلم أن النبى قال : « إن الله زوى لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها » (١) .

❁ ❁ ❁

نختم حديثنا فى هذا المجال الخاص بالجانب العسكرى فى شخصية الرسول (ﷺ) بقولنا: كان رسول الله (ﷺ) نبيا هاديا بشيرا نذيرا فى المقام الأول ، والجانب العسكرى يأتى فى درجة تالية ، لأن الحرب فى شريعة الإسلام السمحة ليست غاية فى حد ذاتها ، وإنما هى رد فعل للعدوان ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٠] .

يرى العقاد فى معرض حديثه عن « عبقرية محمد العسكرية » : أن محمدا (ﷺ) قائد بغير نظير .. وأنه عندما تنعقد المقارنة بين المعارك القديمة والمعارك العصرية ، ينبغى أن ننظر إلى فكرة القائد قبل أن ننظر إلى ظواهر المعارك أو إلى أشكالها وأحجامها .. وهذه الفكرة هى التى ترينا محمداً عليه السلام قائدا حربيا بين أهل زمانه بغير نظير فى رأيه ، وفى الانتفاع بمشورة صحبه، وتبرز لنا قدرته النادرة بين قادة العصور المختلفة فى توجيه كل ما يتوجب على يدى قائد قوى الرأى والسلاح والكلام » (٢) .

لقد كان محمدا قائدا فردا فريدا ، لكنه قاد أمة بأسرها إلى نشر رسالة التوحيد والنصر على الأعداء .

لم يتعلم محمد فى أية مدرسة عسكرية .. لكنه كان أفضل القادة وأعظم الأبطال ، وأعطاه الإيمان قوة لم تؤت لغيره من البشر . من هنا فإن الإسلام الحنيف إذا كان قد شرع الجهاد وأوجبه فرض عين ، لدرجة أن بعض الفقهاء يعده الركن السادس من أركان الإسلام ـ فقد صار من المحتم أن يكون الرسول إمام

(١) زوى : طوى ، عرض .
(٢) عبقرية محمد : ص ٥٠ .

المجاهدين فى سبيل الله .

« أمرت أن أقاتل الناس ، حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » .

هذا الأمر بالجهاد قد جاءه من لدن حكيم عليم مخاطبا إياه :

﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً ﴾ [النساء : ٨٤] (١) .

هكذا استطاع القائد الملهم (ﷺ) أن يوحد شبه الجزيرة العربية ـ لأول مرة فى التاريخ ، كما استطاع أن يجعل من هؤلاء البدو المتخلفين طلائع الجنود الفاتحين لنشر رسالة رب العالمين فى مشارق الأرض ومغاربها .

تلك كانت لمحة سريعة عن عبقرية الرسول الحربية ، الذى حارب لنشر راية التوحيد ـ لا من أجل مصالح مادية ، وإنما من أجل نشر رسالة سامية، هى الدعوة إلى الإيمان بربّ العالمين، لذلك نصره الله ، وأيده بروح من عنده فى كل معاركه.

❁ ❁ ❁

---

(١) بأسا : قوة وشدة ـ تكيلا : تعذيبا وعقابا .

نود أن ننتقل إلى مجال آخر من مجالات عبقرية الرسول (ﷺ) .. وهو الخاص بالجانب السياسى ، **فقد كان المصطفى المختار** (ﷺ) « **رجل دولة** » (State Man) بالمصطلح المتداول المعروف فى الفكر السياسى المعاصر . وفى كل مواقفه حتى ما كان منها قبل بعثته الشريفة يصدر عن حنكة إنسان لبيب ، وحكمة سياسى أريب. فحين تنازعت القبائل فى أيها أحق بوضع الحجر الأسعد مكانه فى جدار الكعبة ، قال قائلهم : « يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد ، يقضى بينكم فيه . ففعلوا ، فكان أول داخل عليهم رسول الله (ﷺ) ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، رضينا [بحكمه] ، هذا محمد .

فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر ، قال (ﷺ) : هلم إلى ثوبا ، فأخذ الركن فوضعه فيه بيديه ، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم أرفعوه جميعا، ففعلوا حتى إذا بلغوا موضعه ، وضعه هو بيديه ، ثم بنى عليه » (١) .

حدث هذا الموقف الذى يدل على قدر عال من السياسية والكياسة والفطنة والحكمة قبل البعثة بخمس سنوات ، ولولا هذه السياسية الحكيمة لتجاوز الأمر مسألة الخلاف بين قبائل قريش إلى القتال والعداء .. وربما إلى تأخير بناء الكعبة. لكن سياسية محمد (ﷺ) الرشيدة قبل أن يبعث هى التى أطفأت نار الفتنة بين القبائل القرشية .

ثمة موقف آخر من مواقفه العظيمة – بعد الإسلام – يؤكد مدى حكمة الرسول وحسن معاملته لأصحابه ، متبعا فى ذلك « مبدأ الشورى » حتى فى أهون الأمور وأبسطها .

«روى أنه كان (ﷺ) فى سفر مع بعض أصحابه ، ولما حل موعد الطعام فكروا فى طهى شاة ، « فقال رجل : يارسول الله على ذبحها . قال آخر : على سلخها، وقال آخر : على طبخها ، فقال عليه السلام : وعلى جمع الحطب .

فقالوا : يارسول الله نكفيك العمل .

قال : علمت أنكم تكفوننى ، ولكنّى أكره أن أتميز عليكم ، إن الله سبحانه

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ، ص ٤٧ .

وتعالى يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه »[1] .

بمثل تلك المواقف الحكيمة تتبدى حنكة الرسول القائد ، وسعة صدر السياسى الحاكم ، الذى نادى بالشورى والعدالة والمساواة قبل أن تنادى بها أية حضارة فى العصور القديمة والحديثة ، فكثيرا ما قال وأكد :

« لا يحسن إسلام المرء ، حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

« مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكي منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمي »

كان الرسول نعم القائد المظفر والحاكم العادل وفى هذا يقول شوقى[2] :

فرسمت بعدك للعباد حكومةً ... لا سوقة فيها ولا أمراءُ

الله فوق الخلق فيها وحده ... والناسُ تحت لوائها أكفاءُ

الدين يسرٌ ، والخلافة بيعة ... والأمر شورى ، والحقوق قضاء

الاشتراكيون أنتَ إمامُهم ... لولا دعاوي القوم والغلواء

كيف لا يكون النبى محمد إنسانا عبقريا وحاكما عادلا ، وقد أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وآتاه من لدنه حلما وفضلا ، وعلمه الحكمة وفصل الخطاب ، لذلك كان يأمره خالقه ومودبه بأن يعفو عمن ظلمه ، وأن يدعو إلى عمل المعروف ، ويبتعد عن مخالطة الجاهلين والسفهاء :

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] .

وفى سياق آخر يأتيه الأمر الإلهي الكريم بالعدل بين الناس :

﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١٥] .

فالله سبحانه يأمر رسوله الكريم بالاستقامة وألايتبع الهوى وأن يعدل بين الناس ،

(١) العقاد : عبقرية محمد ، ص ٩١ .

(٢) أحمد شوقى : الشوقيات ، ج ١ ، ص ٢٧ ـ حكومة : نظاما للحكم ـ سوقة : عامة الناس ـ أكفاء : متساوون ـ بيعة : انتخاب ـ الأمر شورى : الحكم بالتشاور والتحاور ـ الحقوق قضاء : الحق يؤخذ عن طريق القضاء والمحاكم ـ إمام : قائد ـ الغلواء : التطرف والمبالغة .

لأن الله الذى أنزل الكتاب بالحق ووضع الميزان لقياس الأعمال ، سوف يجمع بين الخلق ،لأن مصيرهم جميعا إليه ، وهو العادل يحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون. حقا .. إن هدى الله هو الهدى .. ومن يهد الله فلا مضل له ، لذلك كان الرسول (ﷺ) مهديا إلى طريق الحق وسبيل العدل بأمر كريم من الله العظيم، الذى خصّ رسوله بأن يكون خاتم الرسل أجمعين ، وأن تكون رسالته للناس كافة؛ ومن ثم **كانت شخصيته نموذجا للإنسان الكامل الذى هداه ربه إلى صراط مستقيم** ، لذلك كان الخالق يدعوه إلى العفو والمغفرة والحكمة والرحمة والشورى والتقوى ، حتى يؤلف بين أتباعه ، ويجمعهم حول راية « لا إله إلا الله محمد رسول الله » :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩]

لقد كان الرسول (ﷺ) بشراً ، لكنه بشر .. لا ينطقُ عن هوى ، ولايصدرُ إلا عن وحيٍ يوحى : **﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾**[النساء : ٤٧] .

معنى ذلك أن الرسول (ﷺ) كان ملهما، يبلغ ما أمر به ، كما أن الله سبحانه وتعالى كان يعصمه من الزلل ، ويحميه من شر الناس فى كل ما مر به من مواقف دينية أو سياسية :

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة : ٦٧] .

ومع أن النبى (ﷺ) رسول رب العالمين فإنه إنسان معرض لكل ما يتعرض له البشر ، عليه ما حمل وعلى غيره من الناس ما حملوا ، لذلك يأمرنا الله سبحانه وتعالى بطاعته ، لأن من يطع الرسول فقد أطاع الله :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ [النور : ٥٤] [١] .

✿✿✿

(١) حمل : تحمل ـ البلاغ : تبليغ ما أمره الله به .

الحكمة فى اتخاذ القرار السياسى

ذكرنا من قبل أن شخصية الرسول (ﷺ) منذ أقامت فى مدينته المنورة فى السنة الأولى من هجرته الشريفة (٦٢٣ م) بدأت تأخذ أبعادا مختلفة وأدوارا متعددة، منها على سبيل المثال .. لا الحصر :

* النبى الهادى .
* القائد العسكرى .
* الحاكم السياسى .
* المخطط الإدارى للدولة .
* المشرِّعُ للمجتمع الجديد .
* الزوج .. والأب .
* الإنسان الصادق البار .

لقد كان الرسول (ﷺ) عظيما فى كل أمر ، فاضلا فى كل مجال ، إنه نموذج رفيع للإنسان الكامل والنبى المرسل :

كان أشجع الناس ، يقول على بن أبى طالب ــ رضى الله عنه : « كنا إذا حمى البأس ، ولقى القوم القوم ، اتقينا به » . وكان أسخى الناس : « ما سئل شيئا قط فقال : لا » . وكان أحلم الناس : وعندما سئل أن يدعو على قوم من الكفار رفض وقال : « إنما بعثت رحمة، ولم أبعث عذابا » .

وكان (ﷺ) : « أشد حياء من العذراء فى خدرها ، لا يثبت بصره فى وجه أحد» . وكان لا يحقر فقيرا لفقره ، ولا يهاب ملكا لملكه ، ويكثر الذكر ويقل اللغو، ويطيل الصلاة ، ولا يستنكف أن يمشى مع الأرملة والعبد . إنسان عظيم مثل النبى الكريم ــ أفضل الناس حسبا وأشرفهم نسبا ــ يصعب على أى باحث أن يخيط خبرا بكل جوانب عبقريته ، وعناصر تكوين شخصيته ، لأنها شخصية أفضل خلق الله وأشرفهم عند الله . وقد أعطاه الله منزلة رفيعة ودرجة محمودة ، يصعب على أى دارس أن يحصى ثناءً عليه ، وأن يعرف كل أفضاله وأعماله .

يارب أحسنت بدء المسلمين به   فتمم الفضلَ وامنح حُسنَ مختتم

❁ ❁ ❁

وسوف نختار بعض الأمثلة ـ التى أدارها النبى (ﷺ) بحكمة القائد السياسى الملهم ، وعظمة الحاكم الرحيم ذى الأفق البعيد والصدر الرحيب ، ليضع اللبنات الأولى فى تأسيس دولة الإسلام والتمهيد لقيام حضارته السامية النقية ، التى توازن بين مطالب الجسد والروح ، وبين سعادة الدنيا والآخرة . أكثر من هذا تهدف إلى نشر السلام بين شعوب العالم ، حيث لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، ومن يرد الله به خيرا يشرح صدره للإيمان ، ومن ثم يأتى النداء كثيرا فى القرآن الكريم موجهاً إلى الناس كافة :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

❁ ❁ ❁

الموقف من اليهود

أدرك النبى (ﷺ) أن مجتمع يثرب لن يكون بيئة صالحة لدولة جديدة ، ما لم تتم المؤاخاة بين المهاجرين من مكة والأنصار من يثرب ، كذلك ينبغى أن يقيم معاهدة صلح واتفاقية حسن جوار مع الجماعات اليهودية ، حتى يقيم بناء دولة الإسلام الوليدة الجديدة على وحدة، تضمن الاستمرار، وتحالف يؤكد الاستقرار ، خاصة بالنسبة لليهود الذين كانوا يشكلون جالية كبيرة ، ولهم مصالح مادية كثيرة. من أجل هذا أخذ منهم العهد. ومما ورد فى صحيفة المعاهدة :

« إن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين ، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين . لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يوتغ [1] إلا نفسه وأهل بيته ... وإن بطانة يهود كأنفسهم ، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ ، وإنه لا ينحجز على ثأر جرح ، وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته ، إلا من ظلم. وإن الله عل أبر هذا [2] [شاهد] .

وإن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصح والنصحية والبر دون الإثم ، وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه ، وإن النصر للمظلوم ، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين. وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة. وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم . ولا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد (ﷺ) . وإن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره .

وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها ، وإن بينهم النصر على من دهم [3] يثرب. وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه . وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين . على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم . وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما

(١) يوتغ : يهلك .
(٢) الله شاهد على صدق هذا العهد .
(٣) دهم : هاجم .

لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة . وإن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلاعلى نفسه . وإن الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره [شاهد]، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم. وإنه من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم . وإن الله جار لمن بر واتقى و [إن] محمدا رسول الله» (١) .

✿ ✿ ✿

هذه المعاهدة فى نصها الكامل ـ كما أوردها ابن هشام وغيره من كتاب السيرة النبوية ـ فى حاجة إلى ضليع من علماء القانون الدولى ، ليكشف عن مدى قدرة محمد (ﷺ) على الصياغة الماهرة المحكمة لبنودها ـ رغم أنه لم يسبق له القيام بمثل هذا العمل إلا فى بيعة العقبة الثانية قبل أن يهاجر إلى يثرب بفترة قليلة .

وقد أفاد الرسول من هذه المعاهدة عدة أمور مهمة منها : أنه انتزع من اليهود ـ وهم ألد خصومه عداوة فى يثرب ـ اعترافا صريحا بالدين الجديد : « لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم » .كما أخذ منهم العهد والميثاق على عدم الخيانة .. وأن زمام الحكم فى المدينة بيده وحده : « وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ » ، وأنه إذا هو جمت المدينة فيجب عليهم الدفاع عنها مع المسلمين .. « وإن اليهود ينفقون [يسهمون فى تكاليف الحرب] مع المؤمنين ماداموا محاربين » .

كذلك فإنه ألزمهم بعدم إجارة قريش ونصرتها ، لأن قريشا كانت تمثل العدو الأول والأكبر للرسول والمسلمين . كما أن هذه المعاهدة تؤكد بعد نظر الرسول فى ضرورة إبرام هذه المعاهدة معهم ، حتى يؤاخذهم إن خرجوا عليها ، فهنا يكون قد أعذر من أنذر .. !!

رغم شروط المعاهدة الواضحة المحكمة فإن اليهود ـ كعهدهم أبدا ـ خانوا العهد، ونقضوا الصلح ـ ليس بشكل صريح مباشر ، وإنما عن طريق الغدر والنفاق وإثارة الفتن والشقاق . وسورة البقرة وهى أول ما نزل من القرآن فى المدينة تدور معظم معانيها الكريمة حول تحذير الرسول والمسلمين من اليهود و من المنافقين، لأن النفاق وسوء الأخلاق صفة أصيلة فيهم بنص القرآن الكريم:

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ، ص ١٢٦ .

مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٤] .

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٤٤] [١].

لم يكف اليهود عن إثارة الفتن والقلاقل ، بل إنهم تحالفوا مع قريش ـ سرا ـ ضد المسلمين خاصة فى غزوة الخندق التى تسمى أيضا غزوة الأحزاب فى السنة الخامسة من الهجرة . كما نقضوا عهدهم مع النبى والمسلمين فى غزوة بنى قريظة فى السنة نفسها . وحين نصر الله رسوله والمؤمنين على اليهود قال الرسول (ﷺ) :

« ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيكم رجل منكم ؟

ـ قالوا : بلى .

ـ قال الرسول (ﷺ) : فذاك إلى سعد بن معاذ .

قال سعد : فإنى أحكم فيهم : أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذرارى والنساء .

قال رسول الله (ﷺ) لسعد : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة »[٢] .

ما حدث لليهود كان برأى أحد زعمائهم السابقين . وقد أحسن الرسول (ﷺ) صنعا بطرد اليهود من المدينة إلى خيبر ، وتلك كانت توطئة لطرد عمر بن الخطاب إياهم من الجزيرة العربية كلها ، فتطهرتْ الأرض المقدسة من دنسهم إلى الأبد .

الرسول (ﷺ) لم يظلم اليهود ، لكنهم هم الذين كانوا ـ ولا يزالون ـ أنفسهم يظلمون. وهذا الطرد من المدينة يقره الله ورسوله، لأنه جزاء وفاقا لسوء أعمالهم :

﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلا قَلِيلاً ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب:٦٠ ـ ٦٢] [٣].

---

(١) البر : الخير والطاعة ـ تتلون الكتاب : تقرأون التوراة .
(٢) تهذيب سيرة ابن هشام ، ص ١٩٨ ـ ٢٠٧ ـ أرقعة : سماوات
(٣) المرجفون : المشيعون للأخبار الكاذبة ـ لنغرينك بهم : لنسلطك عليهم ـ ثقفوا : وجدوا .

على أى أساس إذن يعاتب بعض المستشرقين الرسول (ﷺ) على موقفه من اليهود ؟! **إن طرد اليهود لم يكن من أجل كفرهم ، وإنما هو طرد سياسى ،** والذى حكم به واحد من زعمائهم السابقين .. فبأى منطق على الله ورسوله يكذبون ؟! إن الرسول فى هذا الموقف كان سياسيا بعيد النظر حاسم القرار ، لأن اليهود مشغولون ـ دوما ـ بإثارة الفتن ضد كل من عاداهم من المسلمين والمسحيين وغيرهم .

إنهم يتوهمون أنهم شعب الله المختار . كبرت كلمة تخرج من أفواههم، إن يقولون إلا زورا وبهتانا عظيما . كما أنهم ـ من فرط تبجحهم لا يكذبون على الرسل والأنبياء والبشر فحسب، بل يكذبون على الله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة : ٨٠] .

❁ ❁ ❁

يوم خرج النبى (ﷺ) مهاجرا من مكة إلى يثرب ، نظر إليها نظرة حنين وحزن - وما أصعب أن يجتمع الحنين والحزن على قلب رجل رءوف رحيم مثل محمد (ﷺ) - واغرورقت عيناه الكريمتان بالدموع .. وهو يناجى بلده الأمين :

« والله إنك أحب بلاد الله إلىّ ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت » .

كيف ينسى المصطفى مكة وفيها المسجد الحرام أول بيت وضع لعبادة الله على الأرض ، وجعله الله مثابة للناس وأمنا ؟! وفيها أيضا مسقط رأسه الكريم ومواطن ذكرياته الأولى

كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبدا لأول منزل

وفيها أيضاً رفات خديجة الودود الولود ، وأبنائه ، وعمه أبى طالب ، وجده عبد المطلب ، وبها غار حراء ، الذى كان يتبتل فيه أناء الليل وأطراف النهار ، ونزل عليه فيه جبريل أمين الله بآية من ربه الرحمن الرحيم، تؤكد أن القرآن الكريم - آخر الكتب المنزلة - أوحى به الله إلى خاتم رسله وأشرف خلقه ، ليكون دستورا خالدا لخير أمة أخرجت للناس .

فى مكة المكرمة كذلك صدع المدثر ، ينذر عشيرته وقومه إلى عبادة الحى القيوم، وترك عبادة أصنام لا تحس ولا تسمع، ولا تضر ولا تنفع . وفيها تعرض للأذى والموت، وهو يدعو إلى عبادة الله ، حتى وهو فى صحن الكعبة - نادى قريش ومقر عبادتهم آنذاك .

من مكة أيضا جاء معه المهاجرون السابقون إلى الإسلام .. ولا يزال فيها المشركون الذين عذبوه وآذوه وفكروا فى قتله وصد من آمن معه . لكنه رغم ذلك كله لم يغضب قلبه الرحيم عليهم ، بل كان دائما يدعو لهم بالهداية والإيمان .

« اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون .. !! » .

كما أنه كان يؤمل أيضا أ يخرج من أصلابهم من يعبد الله ويصدق رسوله، وتلك حقا رؤية النبى الإنسان .. !!

خرج الهادى الأمين من مكة المكرمة ، لكنه لم ينسها ولم تغب عن خلده .. وظل الحنين يراوده إليها عاما بعد عام ، بل يوما بعد يوم ، لأنه يدرك أنها العاصمة

المقدسة لأمته ، وأنها ـ نتيجة لهذا ـ لابد أن تتطهر من دنس الجاهلية ورجس الوثنية، كما أن الحج أصبح ركنا من أركان الإسلام في السنة السادسة من الهجرة زمن الحديبية ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ [البقرة ـ ١٩٦] .

ولا ريب في أن الغزوات المظفرة التى قام بها النبى (ﷺ) والذين آمنوا معه ، كانت تهدف ـ ضمن ما تهدف إلى إشعار كفار مكة ـ غلاظ الأكباد قساة القلوب ـ أنه يدعو إلى الحق والعدل .. وأنه لم يكذب عليهم يوما ، فكيف يكذب على الله سبحانه ؟!

نتوقف بعد ذلك عند غزوة الحديبية [١] والصلح الخاص بها ، لنوضح أن هذا الموقف يعد من المواقف الدالة على عظمة الرسول (ﷺ) باعتباره قائدا مظفرا وحاكما حازما بعيد النظر ثاقب الرؤية .

❁ ❁ ❁

رأى النبى (ﷺ) وكل رؤى الأنبياء حق وصدق ـ أنه دخل مع أصحابه المسجد الحرام حالقين رءوسهم ومقصرين ، وهذه أمور تتعلق بالعمرة والحج . فأخبر المسلمين أنه يريد العمرة ، وخرج يقصد مكة ومعه ألف وخمسمائة جندى وزوجه أم سلمة ، وأخذ الهدى، ليعلم الناس أنه لم يأت غازيا .

عندما وصلت الأخبار إلى كفار قريش وثقيف ، حاولوا صد الرسول والمسلمين رغم علمهم بأن المسلمين جاءوا معتمرين ـ لا محاربين ، فبعث الرسول إليهم عثمان بن عفان ومعه عشرة من جنود المسلمين للتفاوض ، فحبسهم الكفار، وشاع عند المسلمين أنهم قتلوا ، وحينما سمع النبى (ﷺ) ذلك شق عليه ما فعلوا، وقال: « لا نبرح حتى نناجزهم الحرب » .

وهنا حدثت بيعة الرضوان تحت الشجرة . عندئذ خاف المشركون وأرسلوا سهيل ابن عمرو للمكالمة فى أمر الصلح بعد أن أطلقوا سراح عثمان ومن معه . وبدأ على ابن أبى طالب يكتب معاهدة الصلح ، فأملاه الرسول (ﷺ) : بسم الله الرحمن الرحيم . فاعترض سهيل وقال : اكتب باسمك اللهم .

فوافق الرسول (ﷺ) ثم أملاه : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، فقاطعه

(١) الحديبية : قرية قريبة من مكة ، وسميت باسم بئر ماء عند مسجد الشجرة التى بايع فيها رسول الله (ﷺ) أصحابه تحتها.. وقد حدث صلح الحديبية فى السنة السادسة من الهجرة (= ٦٢٨ م) .

سهيل مرة ثانية : لو كنّا نعرف أنك رسول الله ما خالفناك ولم نصدك عن البيت ، اكتب اسمك واسم أبيك . فثارت ثائرة ابن الخطاب وقال قولته الشهيرة :

ـ علام نرضى الدنية فى ديننا .. ؟!

لكن ذلك لم يغيِّر من حزم النبى وعزمه . وقال لعمر : أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعنى . وقال لعلى اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ـ مدة سنتين فى رأى الواقدى . وهى تنص على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه ، رده عليهم ، ومن جاء قريشا من رجال محمد لم يردوه عليه . وأنه من أحب من العرب محالفة محمد فلا جناح عليه ، ومن أحب محالفة قريش فلا جناح عليه. وأن يرجع محمد وأصحابه عن مكة عامهم هذا على أن يعود إليها فى العام الذى يليه ، فيدخلوها ويقيموا بها ثلاثة أيام، ومعهم من السلاح السيوف فى قرابها ، ولا سلاح غيرها » (١) .

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الواقعة فى سورة الفتح الآيات من ١٨ إلى ٢٩ ومنها قوله تعالى : ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا** (١٨) **وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا** ﴾ [الفتح ١٩ ـ ١٩] .

يرى العقاد أن صلح الحديبية يعد بمثابة « عهد مهادنة، أو عهد « إيقاف أعمال العداء إلى حين » كما يسمى فى اصطلاح العصر الحاضر .. فلا يعوزه شيء من الأصول المرعية فى أمثال هذه العهود من إثبات صفة المندوبين التى لا إرغام فيها لأحد الطرفين ، ولا مخالفة لدعوى الفريقين من حفظ كل [منهما] لحقه فى تجديد دعواه واستئناف مسعاه . فلو أن النبى عليه السلام شرط على قريش أن ترد إليه من يقصدها من رجاله ، لنقض بذلك دعوة الهداية الإسلامية ونقض الوصف الذى يصف به المسلمين . فإن المسلم الذى يترك النبى باختياره ليس بمسلم ، ولكنه مشرك يشبه قريشا فى دينها ، وهى أولى به من نبى الإسلام . أما المسلم الذى يرد إلى المشركين مكرها فإنما الصلة بينه وبين النبى الإسلام وهو

(١) راجع فى هذا الموضع الكتب التالية : تهذيب سيرة ابن هشام ، ص ١٧١ ـ ١٧٤ ـ الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ـ ج ٢ ، ص ١٥٢ ـ هيكل : حياة محمد ، ص ٣٧١ ـ ٣٨٦ .

شيء لا سلطان عليه للمشركين ، ولا تنقطع الصلة فيه بالبعد والقرب .. فإن كان الرجل ضعيف الدين ففتنوه عن دينه فلا خير فيه ، وإن كان وثيق الدين فبقى عل دينه فلا خسارة فيه للمسلمين .

وما انقضت فترة وجيزة حتى علمت قريش أنها هى الخاسرة بذلك الشرط الذى حسبته غنما لها وخذلانا لمحمد صلوات الله عليه ، فإن المسلمين الذين نفروا من قريش ـ ولم يقبلهم محمد فى حوزته رعاية لعهده ـ قد خرجوا إلى طريق القوافل يأخذونها على تجارة قريش ، وهى أمان فى عهد الهدنة بين الطرفين ، فلا استطاع المشركون أن يشكوهم إلى النبى ، لأنهم خارجون من ولايته بحكم الهدنة ، ولا استطاعوا أن يحجزوهم فى مكة ـ كما أرادوا يوم أملوا شروطهم فى عهد الحديبية. ولو قضى العهد بولاية النبى على من ينفر من مسلمى مكة لجاز للمشركين أن ينقضوه أو يطالبوا النبى بالمحافظة عليه » (١) .

يعلق هيكل وهو أستاذ القانون الدستورى على هذا الصلح بقوله :

« وقد أثبتت الأيام أن هذا العهد حكمة سياسية وبعد نظر ، كان لهما أكبر الأثر فى مستقبل الإسلام وفى مستقبل العرب كله . فقد كانت هذه أول مرة اعترفت قريش فيها بمحمد (ﷺ) لاعلى أنه ثائر بها خارج عليها، ولكن على أنه ندها وعدلها : فاعترفت بذلك بالدولة الإسلامية وقيامها .

ثم إن إقرارها للمسلين بحق زيارة البيت وإقامة شعائر الحج اعتراف منها بأن الإسلام دين مقرر معترف به من أديان شبه الجزيرة . وهذه الهدنة قد جعلت المسلمين يطمئنون من ناحية الجنوب ولا يخشون غارة قريش ، ومهدت للإسلام أن يزداد انتشارا . أفليستْ قريش ألد أعدائه وأشد محاربيه قد انتهت بالإذعان لما لم تكن تذعن له من قبل قط . وقد انتشر الإسلام بعد هذه الهدنة انتشارا أسرع أضعافا من انتشاره من قبل . كان الذين جاءوا إلى الحديبية ألف وأربعمائة (٢) فلما كان بعد عامين اثنين جاء محمد لفتح مكة فى عشرة الآف .. وكذلك صدقت الحادثات حكمة محمد (ﷺ) وبعد نظره ودقة سياسته ، وأثبتت أنه إذ

(١) العقاد : عبقرية محمد ، ص ٦٣ .
(٢) ثمة رواية أخرى تذكر أنهم كانوا ألف وخمسائة جندى .

عقد عهد الحديبية وضع حجرا، لا ينقض فى سياسة الإسلام وانتشاره . وهذا هو الفتح العظيم[1] » .

هكذا انتهى الرسول (ﷺ) بسياسته الحكيمة من عداوة قريش واستراح من شرورها ، وتفرغ لليهود ليطهر المدينة وخيبر من شرهم ومكرهم . كما بدأ يفكر فى نشر الرسالة خارج حدود الجزيرة ، وأخذ يبعث برسله إلى حكام بعض البلاد المجاورة فى الشام ومصر والحبشة ، يدعوهم إلى عبادة الله والدخول فى زمرة الإسلام، لأنّ من يبتغ غير الإسلام دينا فلن يتقبل منه .

معنى ذلك أن الرسول بدأ بعد هذا الصلح المظفر يتطلع نحو تحقيق عالمية الإسلام خارج حدود الجزيرة العربية . وقد حدث هذا بتوفيق من الله سبحانه وتعالى، ونتيجة للسياسة الحكيمة التى نفذها محمد (ﷺ) . ولن نجد وصفا لهذا الصلح أفضل مما وصفه الله سبحانه وتعالى من أنه « **فتح مبين** » . ذلك أن الرسول والمسلمين في طريق العودة نزل الوحي .. وبلغهم الرسول ما أوحى إليه من ربه :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ [الفتح:١ :٣] .

ننتهى إلى أن هذا الصلح كان مقدمة لفتح مكة .. والتطلع لنشر الإسلام فى البلاد المجاورة ، حتى ينصر الله عبده ، ويعز جنده ، وينشر دينه فى كافة أرجاء الأرض . وكان هذا العهد المدنى فى حياة الرسول (ﷺ) هو الذى أرهص بمرحلة (العالمية) فى حياة الإسلام والمسلمين، التى بدأها الرسول (ﷺ) فى آخر حياته .. وحصد ثمارها المسلمون بعد رحيله إلى الرفيق الأعلى ــ وقد قرت عيناه بإكمال الرسالة ونشر الدعوة إلى الناس كافة .

---

(١) هيكل : حياة محمد ، ص ٣٨٣ وما بعدها .

تعقيب

لا ريب فى أن كل ما حققه المسلمون من نصر وفتح وتقدم سواء فى حياة النبى (ﷺ) .. أو بعد وفاته ـ كان بفضل سياسة الرسول (ﷺ) وحسن تصريفه لكافة توجهات الحياة ، فقد قضى أجله بعد أن قال ما أشار إليه المولى من قوله الكريم :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة :٣] .

جزاك الله خيرا يا أفضل خلق الله ـ على ما تحملت من جهاد وأذى من أجل نشر رسالة التوحيد . الذى لا ريب فيه أن عبقرية محمد (ﷺ) .. هى التى صنعت كل ما تحقق للإسلام والمسلمين من عزة وقوة .. وهى التى أدت إلى أن يخرج الناس من ظلمات الشرك والشقاق إلى نور الإسلام وضوء التوحيد بفضل الله الواحد القهار ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

ورغم عظمة محمد (ﷺ) فى كل ما قال وما فعل، وما أجاز من قول أو عمل، فإنه كان حريصا على التواضع أمام الخالق ومع الخلق . عن ابن عباس عن عمر ابن الخطاب قال : « قال رسول الله ﷺ : **لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله** » (١) .

وصدق الصديق حين قال بعد وفاته :

« **أيها الناس : من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت** » .

ثم تلا أبو بكر بعد ذلك هذه الآية الكريمة :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] .

(١) تطرونى : تبالغوا فى مدحى ـ والحديث منقول عن كتاب : الشمائل المحمدية ، ص ٢٦٢ .

جزاك الله خير الجزاء عن أمتك يارسول الله .. ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ [الفجر:٢٧ــ ٣٠] .

لقد مات محمد الإنسان ــ كما يموت غيره من البشر ، فلكل أجل كتاب ، وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله . ولكن بقيت وستظل باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها رسالته السمحة وديانته الغراء . تهدى البشرية جمعاء إلى طريق الهدى والحق والعدل ، فمن آمن وصدق فقد كسب الدنيا وربح الآخرة ، أما من كذب وتولى، وأعرض عن ذكر ربه ، فسوف يحاسب حسابا عسيرا ، ولن يظلم ربك أحداً من خلقه ، لأنه كتب على نفسه الرحمة وخص ذاته بالعدل ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾[الزلزلة : ٧ ــ ٨] .

اللهم اكرم أمة رسولك .. ووحد صفوفهم .. واجمع كلمتهم يارب :

يارب هبتْ شعوبٌ من منيتها ... واستيقظت أمم من رقدة العدم

سعدٌ ونحسٌ وملك أنت مالكه ... من نعم فيه ومن نقم

رأي قضاؤك فينا رأيَ حكمته ... أكرم بوجهك من قاضٍ ومنتقم

ألطفْ لأجل رسول العالمين بنا ... ولا تزد قومه خسفا ولا تسم

يارب أحسنتَ بدءَ المسلمين به ... فتتمم الفضلَ وامنح حسن مختتم

❁ ❁ ❁

---

(١) الشوقيات : ج ١ ، ص ١٩٠ المنية : الموت ــ رقدة العدم : نومة الفناء ــ تديل : تحول وتغير ــ خسف : ظلم ــ الفضل : المعروف والخير ــ لاحظ التوريه فى تعبير « حسن مختتم » ، لأنها تدل على ختام عهد المسلمين كما تعبر عن خاتمة القصيدة .

المَبْحَثُ الخامس

القرآن ... الرسالة المعجزة

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ
أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ
وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)
وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن
كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا ﴾
[الإسراء : ٨٨ ـ ٨٩]

الدين أهم مشكل للضـمير

يؤيد الله سبحانه وتعالى الذين يصطفيهم، ليكونوا دعاة هداة بصحف مطهرة وكتب منزلة ، تعلم شعبوهم حقوق الرب وكيفية التعامل مع الناس ، فالخالق الرازق يقول :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُون (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات : ٥٦ ـ ٥٨] .

الدين أمر أساسى فى حياة البشر ، لأنه يعد أهم مشكل للضمير وأفضل منور للعقل ، فشعوب الأرض قاطبة ـ حتى فى عصور ما قبل التاريخ ـ كانت لكل منها عقيدة معينة لها شعائر وطقوس خاصة، أما تلك الشعوب التى أكرمها الله بنبى مرسل فقد هداها إلى صراط مستقيم ، وتظل دعوة النبى أو رسالة الرسول سارية المفعول إلى أن ينساها البشر ويتحولوا عنها ، فيرسل الله سبحانه وتعالى من يجدد الدعوة ويحيى الرسالة .

هكذا يمكن أن نقول : إن تاريخ البشرية ـ فى حقيقته ـ تاريخ للأديان والرسالات ، وإذا نسخ الله رسالة من صدور العباد ، جددها برسالة أفضل ودعوة أشمل ، لأن الشعوب تزداد عددا ، والحضارات تتطور صعدا ، لذلك **لا ينبغى أن نغفل النظرة التطورية فى تاريخ الأديان** ، وهذا ما يمكن أن نستدل عليه من الآية الكريمة التالية :

﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ١٠٦] (١) .

معنى ذلك أن ما يزول ويمحى من آيات الله ورسلاته ، فإنه ـ بقدرته وعظمته ـ يأتى بخير منها .. أو مثلها .

❁ ❁ ❁

(١) ننسخ : نزل ونبطل ـ ننسها : نمحوها من القلوب .

الـرسالة .. معجـزة الرسـول

كان محمد (ﷺ) .. أفضل خلق الله وخاتم أنبيائه ورسله ، كذلك كانت ـ ولا تزال ـ رسالته أشمل الرسالات تعريفا بحقوق الله وواجبات البشر . إن رب العزة ـ جل وعلا ـ قد أيد معظم رسله وبعض أنبيائه بمعجزات ساطعة وآيات ظاهرة ، حتى يؤمن الناس بهم ، ويسلموا بما جاءوا به . لكن معجزة كل رسول أو نبى كانت مؤقتة .. تأتى فترة ، وتغيب أخرى ، وأقصى دوام لها مرهون ببقاء صاحبها حيا يرزق ، وهاديا يرشد . ينطبق هذا على: سفنية نوح - عدم إحراق النار لإبراهيم- حوت يونس - ناقة صالح - عصا موسى - قدرة يوسف على تفسير الأحلام - حكمة لقمان - كلام سليمان للطير والحيوان - صبر أيوب - إبراء عيسى للمرضى وإحياء الموتى.

كل هؤلاء الأنبياء العظام عليهم السلام انتهت معجزاتهم بانتهاء حياتهم على الأرض، لكن الله سبحانه وتعالى شرف محمدا عبده ورسوله، وصفيه من خلقه وخليله، بأن جعل معجزته الباهرة ـ وهى القرآن الكريم ـ تظل خالدة إلى أبد الآبدين ، باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، لأن القرآن إذا رفع من صدور حفاظه كان ذلك آية على قيام الساعة .

القرآن معجز ـ لأنه ليس بكلام شاعر أو ساحر أو كاهن أو من به جنة ـ كما ادعى كفار قريش ، وأنما هو ﴿ **تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ** ﴾ [يس : ٦ ـ٧]، القرآن كتاب حكيم ، أى محكم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وهو تنزيل من رب العزة رأفة بعباده ورحمة ، وقد خص به الله العرب الذين لم يبعث فيهم نبى قبل محمد (ﷺ)، وإن كان هذا لا ينفى أنه موجه إلى الناس جميعا [١] .. على ضوء قوله سبحانه .. ﴿ **وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً** ﴾ [الإسراء : ١٠٥ ، ١٠٦] [٢] .

وقد ذكر الطبرى فى تفسير آيتى الإسراء السابقتين ما يلى :

(١) الحافظ ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ح ٣ ، ص ٥٧١ بتصرف
(٢) فرقناه : بيناه وأحكمناه وفصلنا به بين الحق والباطل ـ مكث : تؤدة وتأن .

« يقول تعالى ذكره : وبالحق أنزلنا هذا القرآن ، نأمر فيه بالعدل والإنصاف والأخلاق الجميلة . والأمور المستحسنة الحميدة ، وننهى فيه عن الظلم والأمور القبيحة ، والأخلاق الردية ، والأفعال الذميمة ، وبذلك نزل من عند الله على نبيه محمد (ﷺ) . وما أرسلناك يا محمد إلا مبشرا بالجنة من أطاعنا فانتهى إلى أمرنا ونهينا ، ومنذرا لمن عصانا وخالف أمرنا ونهينا .

وهذا القرآن (فرقناه) بتخفيف الراء .. بمعنى أحكمناه وفصلناه وبيناه ، وذكر عن ابن عباس أنه كان يقرأ بتشديد الراء بمعنى نزلناه شيئا بعد شيء ، آية بعد آية ، وقصة بعد قصة .

وأولى القراءتين عندنا الأولى ، لأنها القراءة التي عليها الحجة مجتمعة . ومعنى قوله تعالى : لتقرأه على الناس على مكث ، أي : أنه لم ينزل جميعا دفعة واحدة ، وكان بين أوله وآخره نحو عشرين سنة ، لتقرأه على الناس على تؤدة وبينة ، ولا تعجل في تلاوته، فلا يفهم عنك، بناء على أن الله يقول لنبيه في موضع آخر ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ [المزمل : ٤] [1]» .

❁ ❁ ❁

---

(١) أبو جعفر الطبري : جامع البيان في تأويل القرآن ، ج ٨ ، ص ١٦٣ .

الأسماء التي تطلق على رسالة محمد

وردت فى كتاب الله ـ سبحانه وتعالى ـ عدة تسميات مختلفة تطلق عليه ، سوف نعرضها ـ بإيجاز ـ بعد أن نتعرف على بعض فضائله ، التى لا تعد ولا تحصى:

ورد فى حديث قدسي : « من شغله القرآن عن ذكرى ومسألتى ، أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » .

وقال رسول الله (ﷺ) « **خيركم من تعلم القرآن وعلمه** » .

وقال أيضا : « **أهل القرآن هم أهل الله وخاصته** » (١) .

وعن فضل المعلمين فى تعليم القرآن يقول المصطفى (ﷺ) :

« **خير الناس وخير من يمشى على وجه الأرض ـ المعلمون ، فإنهم كلما خلق الدين جددوه . أعطوهم ولا تستأجروهم ، فإن المعلم إذا قال للصبى قل بسم الله الرحمن الرحيم فقالها ، كتب الله براءة للصبى ، وبراءة للمعلم ، وبراءة لأبويه من النار .** » (٢) .

ومن أحسن عملا ممن جعل القرآن ربيع قلبه ، وشغل فكره ، وهدى حياته . وفى هذا فليتنافس المتنافسون .

١ ـ القرآن الكريم :

قرأت الشىء قراءة وقرآنا : أى جمعت بعضه إلى بعض .

كلمة قرآن فى الأصل بمعنى الجمع فكل شىء جمعته فقد قرأته، وهو مصدر على وزن (فعلان) مثل غفران وكفران . وسمى القرآن قرآنا : لأنه جمع القصص، والأمر والنهى ، والوعد والوعيد ، والآيات والسور ، بعضها إلى بعض (٣) .

على هذا يكون الفعل قرأ بمعنى : جمع الشىء وضم بعضه إلى بعض. (٤)

---

(١) الزركشى : البرهان ، ج ١ ، ص ٤٣٣ .
(٢) الترمذى : الشمائل المحمدية ، ص ٣ ـ خلق : قدم .. أى صار قديما ـ براءة : عتق من النار .
(٣) لسان العرب ـ ج ١ ، ص ١٢٩ ـ مادة قرأ .
(٤) انظر : المعجم الوسيط ، ص ٧٢٢ ـ مادة قرأ .

والمعنى الاصطلاحى لكلمة قرآن : أنها اسم يطلق على الكتاب الذى يجمع ما أنزله الله ـ سبحانه ـ على محمد (ﷺ) . وقد وردت هذه الكملة فى الذكر الحكيم حوالى (سبعين) مرة تقريبا [1] وهى تعد أكثر الكلمات دلالة واستخداما فى الوقت ذاته .. وهى تستخدم ـ غالبا ـ متبوعة بالصفة مثل : الكريم ـ العظيم ـ المجيد .

ومن الآيات التى وردت فيها هذه التسمية ـ على سبيل المثال ـ ما يلى :

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر : ٨٧] .

﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة : ٧٧] .

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج : ٢١] .

❁ ❁ ❁

٢ ـ الكتاب :

مصدر مشتق من الفعل كتب بمعنى : جمع ، وسمى الكتاب كتاباً ، لأنه يجمع أنواعاً من القصص والآيات والأحكام والأخبار [2] .

وهذه الكملة تعد من أكثر الكلمات استخداما للدلالة على كلام الله ـ سبحانه وتعالى ـ سواء أكان التوراة أم الإنجيل أم القرآن .

وقد تأتى نكرة أو معرفة ، ومفردة أو جمعا ، ومضافة أو غير مضافة ، وحين يكون المقصود بالكلمة القرآن .. فإنها غالبا ما توصف بمثل : كتاب حكيم ـ مبارك ـ مبين ـ عزيز ـ مصدق ـ لا ريب فيه ، وغير ذلك من الصفات الواردة فى الآيات التالية على سبيل المثال :

﴿الم (١) ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة : ١ ـ ٢].

---

(١) راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ص ٥٣٩ ، ٥٤٠ .

(٢) الزركشى : البرهان ، ج ١ ، ٢٧٦ .

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران:٧] .

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ ﴾ [الأنعام : ١٥٥] .

﴿ الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ [يونس : ١] .

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ [النحل : ٨٩] .

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ [الشعراء : ٢] .

﴿ الَم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾[لقمان:١-٣] .

﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ [فصلت : ٤١].

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا ﴾ [الأحقاف : ١٢] .

❁ ❁ ❁

٣ ـ الذكـر :

وردت كلمة ذكر بمعناها المباشر والاصطلاحى ما يربو على خمسين مرةً فى القرآن الكريم . وبالطبع نحن لا نبحث هنا عن الدلالة اللغوية المباشرة .. وهى أن ذكر بمعنى تذكر أمراً ، واستحضره فى العقل وجرى على اللسان .. ولم ينس .

ولكن البحث يدور حول التوظيف الاصطلاحى للكلمة باعتبارها مرادفة لكلمة القرآن ، فالقرآن هو الذكر الذى يذكر الناس بضرورة عبادة الله وتوحيده .

ونظرا لأن القرآن يفسر بعضه بعضا ، فإن كلمة الذكر مرادفة لكتاب عزيز فى الآية (٤١) من سورة فصلت .

هذه بعض الآيات التى وردت فيها تلك اللفظة بالمعنى الذى أشرنا إليه :

﴿ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران : ٥٨] .

﴿ أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ [الأعراف: ٦٩] .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .

﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٥٠] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ [فصلت : ٤١] .

❁❁❁

٤ ـ التـنزيل :

كلمة تنزيل : مصدر للفعل نزل بتضعيف الوسط . وقد ورد هذا المصدر وفعله فى الآية الكريمة :

﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴾ [الإسراء : ١٠٦].

فالقرآن تنزيل من رب العالمين .. أى وحى من الله سبحانه نزل به روح القدس على الرسول (ﷺ) .

وقد ورد هذا المصدر فى القرآن الكريم محملا بهذه الدلالة فى حوالى (خمسة عشر) موضعا منها على سبيل المثال :

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩٢].

﴿ تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ [طه : ٤] .

﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الواقعة : ٨٠] .

❁❁❁

٥ ـ الفـرقـان :

الفعل المجرد فرق : مصدره فرقاً وفرقاناً ، وفرق بين الشيئين : فصل بينهما وميز أحدهما عن الآخر .

وسمى القرآن فرقانا ، لأنه يفرق بين الحق والباطل ، ويفصل بين الإيمان

والكفر .

وقد وصفت التوراة بهذه الصفة أيضا فى القرآن فى أكثر من موضع منها :
﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ٥٣] .

لكن أغلب استخدام الكلمة يأتى فى سياق يدل على أنها بدل مطابق فى المعنى لكلمة القرآن. وكون الكلمة تستخدم وصفا للتوراة والقرآن أمرا واردا ، لأنهما أنزلا من مصدر إلهى واحد .. على رسولين من أولى العزم .

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال : ٢٩] .

❁ ❁ ❁

كلماتُ ربى : [كلامُ الله]

كلماتُ الله ــ يفسرها ابن كثير على أنها أحكامه وآياته الدالة .. [(١)] وتعنى أيضا أوامر الله .. ﴿ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ [الشورى : ٢٤] .

كما أن هذا التركيب اللفظى يستخدم أيضا على أنه كناية عن القرآن الكريم . وهذا التعبير يرد أيضا فى القرآن بتركيب آخر هو « كلام الله » .. ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ... ﴾ [التوبة : ٦] .

﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [(٢)] [الكهف : ١٠٩] .

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان : ٢٧] .

❁ ❁ ❁

(١) تفسير ابن كثير : جـ ٣ ، ص ١١٤ .
(٢) المداد : ما يكتب به (الحبر) ــ نفد : انتهى وفرغ ــ مددا : عونا وزيادة .

خلاصة القول

إن هناك ست كلمات تستخدم للدلالة على كتاب الله الحكيم ، الذى يحتوى ما أنزل الله سبحانه على محمد (ﷺ) ، ويشتمل على أحكام رسالته السامية الخالدة .

ويتضح أن من هذه الكلمات **ما يحمل دلالة مباشرة** مثل :

القرآن ـ الكتاب ـ التنزيل .

ومنها **ما يحمل دلالة بلاغية** مثل :

الذكر ـ التنزيل ـ كلمات ربى [= كلام الله] .

وتلك هى الأسماء ـ مرتبة بحسب كثرة الاستخدام فى **المصحف الشريف** [1] :

١ ـ القرآن الكريم	٢ ـ الكتاب	٣ ـ الذكر
٤ ـ التنزيل	٥ ـ الفرقان	٦ ـ كلمات ربى

❁ ❁ ❁

(١) كلمة مصحف : من الكلمات المستخدمة ـ كثيرا ـ للدلالة على القرآن ـ رغم أنها لم ترد فيه . «وسمى المصحف مصحفا : لأنه أصحف ، أى جعل جامعا للحصف المكتوبة بين الدفتين » لسان العرب ج ٩ ، ص ١٨٦ . ويقال إن كلمة مصحف (مثل منبر) معربة .. وقد دخلت إلى العربية عن طريق الحبشية . كما ذكر ابن مسعود . [الزركشى : البرهان ـ ٢٨٢/١] .

أسمــاء أخــرى

ثمة أسماء وصفاتٌ أخرى ـ يُنعتُ بها القرآن الكريم ـ تقع فى مرتبة تالية من حيث كثرة الذكر ودرجة الشيوع ـ ذكرها بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى (ت ٧٩٤ هـ) مؤلف كتاب « البرهان فى علوم القرآن » (١) .. وسوف نختار بعضاً منها .. ونعرض عن بعضٍ ، لأنه قد توسع فيها بدرجة كبيرة. وما ذكرناه آنفا ... وما نقلناه عن الزركشى ـ ليس القول الأخير فى هذا المجال ، لأن كتاب الله محيطٌ زاخر ، لا يقدر أحدٌ على تفسير حقائقه وكشف أسراره .

١ ـ نور مبين :

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء : ١٧٤] .

٢ ـ هدى ورحمة :

﴿ الٓمٓ ① تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ② هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ [لقمان : ١ ـ ٣] .

٣ ـ هدى وبشرى :

﴿ طسٓ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ① هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل : ٢] .

٤ ـ موعظة وشفاء :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٥٧] .

٥ ـ عليٌّ حكيم :

﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف : ٤] .

٦ ـ حكمة بالغة :

﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾ [القمر : ٤] .

٧ ـ حبــل الله :

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

---

(١) البرهان ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ ج ١ ، ص ٢٧٣ .

٨ـ قول فصل:

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ [الطارق :١٣] .

٩ـ النبأ العظيم:

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ① عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ [النبأ : ١ ، ٢] .

١٠ـ الوحي:

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٤٥] .

١١ـ بصائر للناس:

﴿ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٠] .

١٢ـ بيان للناس:

﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٨] .

١٣ـ بلاغ للناس:

﴿ هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ ﴾ [إبراهيم : ٥٢] .

١٤ـ العروة الوثقى:

﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

١٥ـ أمر الله:

﴿ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ ﴾ [الطلاق : ٥] .

١٦ـ صحف مكرمة:

﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ⑬ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ [عبس : ١٣ ـ ١٤] .

هذه الأسماء تالية فى الأهمية بعد الأسماء الستة الأولى ، ولا ريب أن كثرة التسميات تدل على شرف المسمى ورفعة مكانته ، إن القرآن الكريم ـ وحى الله المنزل على رسوله الأمين (ﷺ) يتصف بكل ما ذكرناه من نعوت وأكثر ، لأنه دستور الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى خلقه ، وهو دستور جامع مانع ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد. كما أن القرآن الكريم ـ معجزة الرسول الخالدة ـ هو المصدر (الأول) للتشريع الإسلامى ، لأن ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٨].

وهو ـ كما يصفه رب العزة سبحانه : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة : ١٥] .

من أجل هذه المنزلة الرفيعة للقرآن الكريم كان مصدر تحد للإنس والجن. ولايزال هذا شأنه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء :٨٨] .

عن مكانة القرآن ومنزلته يقول المصطفى (ﷺ) :

« فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل . من تركه قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، وهو الذكر الحكيم، والصراط المستقيم، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد . ولا تنقضى عجائبه. من قال به صدق ، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل. ومن دعا إليه هدى صراط مستقيم» .

✿✿✿

استدراك .. لا بد منه

مع أن كلامنا فى هذا المبحث يدور حول القرآن الكريم ، فإن ذلك لا يحول دون أن نشير إشارة سريعة إلى أهمية « السنة النبوية الشريفة » باعتبارها (المصدر الثانى) للتشريع الإسلامى. ومن المعلوم أن السنة الشريفة هى : ما أثر عن النبى (ﷺ) من قول أو فعل ، أو ما أقره من أعمال الصحابة ـ رضوان الله عليهم ، أى ما شاهده منهم ولم يعترض عليه .

«يروى أن الرسول (ﷺ) حين بعث معاذا بن جبل إلى اليمن سأله :

بم تحكم يامعاذ ؟

قال : بكتاب الله .

فقال الرسولُ (ﷺ) : فإنْ لم تجدْ ؟

قال : بسنة نبيه .

قال الرسول (ﷺ) : فإنْ لم تجدْ ؟

قال : أجتهدُ برأيى » .

والرسول (ﷺ) يشير إلى أهمية السنة فى أكثر من مناسبة .. آخرها حجة الوداع بقوله :

« تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا : كتاب الله وسنتى » .

كما يؤكد الرسول (ﷺ) أهمية السنة الشريفة بقوله :

« قد أُوتيتُ القرآن ومثله معه » .

والقرآن الكريمُ نفسه يؤكد أن ﴿ **مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ** ﴾[النساء: ٨٠] .

﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا** ﴾ [الأحزاب : ٧١] .

﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله** ﴾ [النساء : ٤٠] .

من هذا يتضح أن السنة الشريفة جزء متمم لرسالة الرسول (ﷺ)، وتحتاج إلى بحث خاص مفصل .

لكن حديثنا فى هذا المجال يدور حول القرآن الكريم وحده ، لذلك وجب الاستدراك والتنبيه .. !!

التمهيد لنزول القرآن

ثمة مجموعة من الكتب الدينية تتناول قضية « أسباب النزول » الخاصة بسور القرآن وآياته .. والكلام عن هذه القضية موجود بكثرة وتوسع عند بعض المفسرين مثل : الطبرى والزمشخرى وابن كثير القرشي وأبي حيان وغيرهم .

تخفيفا من الله سبحانه وتعالى على رسوله وحبيبه المختار (ﷺ) لم يفجأه بأمر لقاء جبريل . إنما كان هناك إرهاص لهذا اللقاء ـ الذى راع الرسول وأرجف فؤاده أول مرة ، فعاد إلى أهله ترتعد فرائصه من هول الموقف ودهشة اللقاء . عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت :

« أول ما بدىء به رسول الله (ﷺ) من الوحى ـ الرؤيا الصادقة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح. ثم حبب إليه الخلاء ، فكان يأتى حراء يتحنث[1] فيه الليالى ذوات العدد ، ويتزود لذلك. ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها ، حتى فاجأه الملك فقال : اقرأ ـ فقال رسول الله : ما أنا بقارىء. قال : فأخذنى فغطنى[2] حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء . فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد، فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق : ١ ـ ٤] .

فرجع يرجف فؤاده حتى دخل على خديجة فقال : زملونى، فزملوه حتى ذهب عنه الروع. فقالت له : أبشر ، فوالله لا يخزيك الله أبداً. إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلّ ، وتعين على نوائب الدهر »[3].

بعد « سورة العلق » نزلت سور القلم ، فالمزمل ، فالمدثر ، فالفاتحة ... ثم توالى بعد ذلك نزول بقية سور العهد المكى. ومن المعروف أن القرآن الكريم نزل فى

(١) يتحنث : يتعبد .
(٢) غطنى : ضمنى .
(٣) أبو الحسن على بن أحمد النيسابورى: أسباب النزول ـ ط الحلبى ـ القاهرة ـ ١٩٦٨ = ١٣٨٨ ،ص ٦ .

حوالى ثلاث وعشرين سنة وينقسم إلى مرحلتين أو عهدين ... أو قسمين :

أولا : السور المكية :

وهى التى نزلت فى مكة المكرمة خلال ثلاث عشرة سنة .. وهى تشتمل على ست وثمانين سورة ـ يأتى بيانها بعد قليل .

ثانياً : السور المدنية :

وهى التى نزلت بالمدينة المنورة بعد الهجرة حتى وفاته (ﷺ) ، وتمتد إلى عشر سنوات . وتشتمل على ثمان وعشرين سورة .

❁ ❁ ❁

سوف نقدم ـ بإذن الله وتوفيقه .. بناء على ما وجدنا عليه إجماع المفسرين ومؤلفى كتب أسباب النزول ـ إحصاءين :

أ ـ إحصاء مرتب بحسب نزول السور الكريمة .

ب ـ إحصاء مرتب بحسب ترتيب السور فى المصحف مع ذكر أرقام بعض الآيات التى وردت فى عهد مغاير لما تنسب إليه بعض السور .

ترتيب نزول سور القرآن الكريم

أولاً : ترتيب نزول السور المكية (٨٦) :

١ ـ العلق	٢ ـ القـلم	٣ ـ المزمل	٤ ـ المدثر	٥ ـ الفاتحة
٦ـ المسد	٧ ـ التكوير	٨ ـ االأعلى	٩ ـ الليل	١٠ ـ الفجر
١١ـ الضحى	١٢ ـ الشرح	١٣ـ العصر	١٤ ـ العاديات	١٥ ـ الكوثر
١٦ ـ التكاثر	١٧ـ الماعون	١٣ـ الكافرون	١٩ ـ الفيل	٢٠ ـ الفلق
٢١ ـ الناس	٢٢ـ الإخلاص	٢٣ ـ النجم	٢٤ ـ عبس	٢٥ ـ القدر
٢٦ـ الشمس	٢٧ ـ البروج	٢٨ ـ التين	٢٩ ـ قريش	٣٠ـ القارعة
٣١ ـ القيامة	٣٢ ـ الهمزة	٣٣ـ المرسلات	٣٤ ـ ق	٣٥ ـ البلد
٣٦ ـ الطارق	٣٧ ـ القمر	٣٨ ـ ص	٣٩ـ الأعراف	٤٠ ـ الجن
٤١ ـ يس	٤٢ـ الفرقان	٤٣ ـ فاطر	٤٤ـ مريم	٤٥ ـ طه
٤٦ ـ الواقعة	٤٧ـ الشعراء	٤٨ ـ النمل	٤٩ـ القصص	٥٠ـ الإسراء
٥١ ـ يونس	٥٢ ـ هود	٥٣ ـ يوسف	٥٤ ـ الحجر	٥٥ ـ الأنعام
٥٦ـ الصافات	٥٧ ـ لقمان	٥٨ ـ سبأ	٥٩ ـ الزمر	٦٠ ـ غافر

٦١ـ فصلت	٦٢ـ الشورى	٦٣ـ الزخرف	٦٤ ـ الدخان	٦٥ ـ الجاثية
٦٦ـ الأحقاف	٦٧ـ الذاريات	٦٨ ـ الغاشية	٦٩ ـ الكهف	٧٠ ـ النحل
٧١ ـ نوح	٧٢ـ إبراهيم	٧٣ ـ الأنبياء	٧٤ ـ المؤمنون	٧٥ـ السجدة
٧٦ ـ الطور	٧٧ ـ الملك	٧٨ ـ الحاقة	٧٩ ـ المعارج	٨٠ ـ النبأ
٨١ـ النازعات	٨٢ ـ الانفطار	٨٣ـ الانشقاق	٨٤ ـ الروم	٨٥ـ العنكبوت
٨٦ ـ المطففين	—	—	—	—

❁ ❁ ❁

ثانياً : ترتيب نزول السور المدينة (٢٨) :

١ - نوح	٢ - الأنفال	٣- آل عمران	٤ - الأحزاب	٥ - الممتحنة
٦ - النساء	٧ - الزلزلة	٨ - الحديد	٩ - محمد	١٠ - الرعد
١١- الرحمن	١٢ - الإنسان	١٣- الطلاق	١٤ - البينة	١٥ - الحشر
١٦ - النور	١٧ - الحجر	١٨- المنافقون	١٩- المجادلة	٢٠- الحجرات
٢١ - التحريم	٢٢ - التغابن	٢٣ - الصف	٢٤ - الجمعة	٢٥ - الفتح
٢٦ - المائدة	٢٧ - التوبة	٢٨ - النصر	—	—

السـور المكيـة

١ ـ إحصاء بالآيات المدينة الواردة فى بعض السور المكية :

مسلسل	السورة	رقمها	عددها			الآيات المدنية	عددها	
١	الفاتحة	١	٧	٠	٠	—	—	
٢	الأنعام	٦	٥	٦	١	٢٠ ـ٢٣ ـ٩١ـ ٩٣ـ ١١٤ ـ	—	
						١٤١ـ ١٥١ـ ١٥٢ـ ١٥٣	٩	
٣	الأعراف	٧	٦	٠	٢	من ١٦٣ إلى ١٧٠	٨	
٤	يونس	١٠	٩	٠	١	٤٠ـ ٩٤ ـ ٩٥ ـ ٩٦	٤	
٥	هود	١١	٣	٢	١	١٢ ـ ١٧ ـ ١١٤	٣	
٦	يوسف	١٢	١	١	١	١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٧	٤	
٧	إبراهيم	١٤	٢	٥	٠	٢٨ ـ ٢٩	٢	
٨	الحجر	١٥	٩	٩	٠	٨٧	١	
٩	النحل	١٦	٨	٢	١	من ١٢٩ ـ إلى ١٢٨	٣	
١٠	الإسراء	١٧	١	١	١	٢٦ ـ ٣٢ ـ ٣٣ ـ ٥٧	—	
						من ٧٣ ـ إلى ٨٠	٢	١
١١	الكهف	١٨	٠	١	١	٣٨ + من ٨٣ إلى ١٠١	٠	٢
١٢	مريم	١٩	٨	٩	٠	٥٨ ـ ٧١	٢	
١٣	طه	٢٠	٥	٣	١	١٣٠ ـ ١٣١	٢	
١٤	الأنبياء	٢١	٢	١	١	—	—	
١٥	المؤمنون	٢٣	٨	١	١	—	—	
١٦	الفرقان	٢٥	٧	٧	٠	من ٦٨ إلى ٧٠	٣	
١٧	الشعراء	٢٦	٧	٢	٢	١٩٧ + من ٢٢٤ إلى ٢٢٧	٥	
١٨	النمل	٢٧	٣	٩	٠	—	—	
١٩	القصص	٢٨	٨	٨	٠	من ٥٢ إلى ٥٥ + ٨٥	٥	
٢٠	العنكبوت	٢٩	٩	٦	٠	من ١ إلى ١١	١	١
٢١	الروم	٣٠	٠	٦	٠	١٧	١	
٢٢	لقمان	٣١	٤	٣	٠	من ٢٧ إلى ٢٩	٣	
٢٣	السجدة	٣٢	٠	٣	٠	—	—	
٢٤	سبأ	٣٤	٤	٠	٠	٦	١	
٢٥	فاطر	٣٥	٥	٠	٠	—	—	

مسلسل	السورة	رقمها	عددها			الآيات المدنية	عددها	
٢٦	يس	٣٦	٣	٨	٠	٤٥	١	
٢٧	الصافات	٣٧	٢	٨	١	—	—	
٢٨	ص	٣٨	٨	٨	٠	—	—	
٢٩	الزمر	٣٩	٥	٧	٠	من ٥٢ إلى ٥٤	٣	
٣٠	غافر	٤٠	٥	٨	٠	٥٦ _ ٥٧	٢	
٣١	فصلت	٤١	٤	٥	٠	—	—	
٣٢	الشورى	٤٢	٣	٥	٠	٢٣ _ ٢٤ _ ٢٥ _ ٢٧	٤	
٣٣	الزخرف	٤٣	٩	٨	٠	٥٤	١	
٣٤	الدخان	٤٤	٩	٥	٠	—	—	
٣٥	الجاثية	٤٥	٧	٣	٠	١٤	١	
٣٦	الأحقاف	٤٦	٥	٣	٠	١٠ _ ١٥ _ ٣٥	٣	
٣٧	ق	٥٠	٥	٤	٠	٣٨	١	
٣٨	الذاريات	٥١	٠	٦	٠	—	—	
٣٩	الطور	٥٢	٩	٤	٠	—	—	
٤٠	النجم	٥٣	٢	٦	٠	٢٢	١	
٤١	القمر	٥٤	٥	٥	٠	من ٤٤ إلى ٤٦	٣	
٤٢	الواقعة	٥٦	٦	٩	٠	٨١ _ ٨٢	٢	
٤٣	الملك	٦٧	٠	٣	٠	—	—	
٤٤	القلم	٦٨	٢	٥	٠	من ١٧ إلى ٣٣ ومن ٤٨ إلى ٥٠	٩	١
٤٥	الحاقة	٦٩	٢	٥	٠	—	—	
٤٦	المعارج	٧٠	٤	٤	٠	—	—	
٤٧	نوح	٧١	٨	٢	٠	—	—	
٤٨	الجن	٧٢	٨	٢	٠	—	—	
٤٩	المزمل	٧٣	٠	٢	٠	١٠ _ ١١ _ ٢٠	٣	
٥٠	المدثر	٧٤	٦	٥	٠	—	—	
٥١	القيامة	٧٥	٠	٤	٠	—	—	
٥٢	المرسلات	٧٧	٠	٥	٠	٤٨	١	
٥٣	النبأ	٧٨	٠	٤	٠	—	—	
٥٤	النازعات	٧٩	٦	٤	٠	—	—	
٥٥	عبس	٨٠	٢	٤	٠	—	—	
٥٦	التكوير	٨١	٩	٢	٠	—	—	

تسلسل	السورة	رقمها	عددها			الآيات المدنية	عددها	
٥٧	الإنفطار	٨٢	٩	١	٠	—	–	
٥٨	المطففين	٨٣	٦	٣	٠	—	–	
٥٩	الانشقاق	٨٤	٥	٢	٠	—	–	
٦٠	البروج	٨٥	٢	٢	٠	—	–	
٦١	الطارق	٨٦	٧	١	٠	—	–	
٦٢	الأعلى	٨٧	٩	١	٠	—	–	
٦٣	الغاشية	٨٨	٦	٢	٠	—	–	
٦٤	الفجر	٨٩	٠	٣	٠	—	–	
٦٥	البلد	٩٠	٠	٢	٠	—	–	
٦٦	الشمس	٩١	٥	١	٠	—	–	
٦٧	الليل	٩٢	١	٢	٠	—	–	
٦٨	الضحى	٩٤	١	١	٠	—	–	
٦٩	الشرح	٩٥	٨	٠	٠	—	–	
٧٠	التين	٩٦	٨	٠	٠	—	–	
٧١	العلق	٩٧	٩	١	٠	—	–	
٧٢	القدر	١٠٠	٥	٠	٠	—	–	
٧٣	العاديات	١٠١	١	١	٠	—	–	
٧٤	القارعة	١١٠	١	١	٠	—	–	
٧٥	التكاثر	١٠٢	٨	٠	٠	—	–	
٧٦	العصر	١٠٣	٣	٠	٠	—	–	
٧٧	الهمزة	١٠٤	٩	٠	٠	—	–	
٧٨	الفيل	١٠٥	٥	٠	٠	—	–	
٧٩	قريش	١٠٦	٤	٠	٠	—	–	
٨٠	الماعون	١٠٧	٧	٠	٠	من ١ إلى ٣	٣	
٨١	الكوثر	١٠٨	٣	٠	٠	—	–	
٨٢	الكافرون	١٠٩	٦	٠	٠	—	–	
٨٣	المسد	١١١	٥	٠	٠	—	–	
٨٤	الإخلاص	١١٢	٤	٠	٠	—	–	
٨٥	الفلق	١١٣	٥			—	–	
٨٦	الناس	١١٤	٦			—	–	
٨٦			٣	١	٤٥		٢	١٥

من الجدول السابق تتضح الحقائق التالية :

أولاً : عدد السور المكية = ٨٦ سورة .

ثانياً : عدد الآيات الكريمة فيها = ٤٥١٣ آية .

ثالثاً : عدد الآيات المدنية فيها: ١٥٢ آية .

رابعاً : عدد الآيات المكية فى السور المكية = ٤٥١٣ _ ١٥٢ = ٤٣٦١ آية .

خامساً : عدد الآيات المكية فى السور المدنية = ١٥ آية .

سادساً : **مجمل الآيات المكية = ٤٣٦١ + ١٥ = ٤٣٧٦ آية .**

❁❁❁

السور المدنية

٢ ـ إحصاء بالآيات المكية في السور المدنية :

مسلسل	السورة	رقمها	عددها			الآيات المكية	عددها	
١	البقرة	٢	٦	٨	٢	—	—	
٢	آل عمران	٣	٠	٠	٢	—	—	
٣	النساء	٤	٦	٧	١	—	—	
٤	المائدة	٥	٠	٢	١	٣	١	٠
٥	الأنفال	٨	٥	٧	٠	من ٣٠ إلى ٣٦	٧	٠
٦	التوبة	٩	٩	٢	١	١٢٨ ـ ١٢٩	٢	٠
٧	الرعد	١٣	٣	٧	٠	—	—	
٨	الحج	٢٢	٨	٤	٠	من ٥٢ إلى ٥٥	٤	٠
٩	النور	٢٤	٤	٧	٠	—	—	
١٠	الأحزاب	٣٣	٣	٦	٠	—	—	
١١	محمد	٤٧	٨	٧	٠	١٣	١	
١٢	الفتح	٤٨	٩	٣	٠	—	—	
١٣	الحجرات	٤٩	٨	٢	٠	—	—	
١٤	الرحمن	٥٥	٨	١	٠	—	—	
١٥	الحديد	٥٧	٩	٧	٠	—	—	
١٦	المجادلة	٥٨	٢	٢	٠	—	—	
١٧	الحشر	٥٩	٤	٢	٠	—	—	
١٨	الممتحنة	٦٠	٣	٢	٠	—	—	
١٩	الصف	٦١	٤	١	٠	—	—	
٢٠	الجمعة	٦٢	١	١	٠	—	—	
٢١	المنافقون	٦٣	١	١	٠	—	—	
٢٢	التغابن	٦٤	٨	١	٠	—	—	
٢٣	الطلاق	٦٥	٢	١	٠	—	—	
٢٤	التحريم	٦٦	٢	١	٠	—	—	
٢٥	الإنسان	٧٦	١	٣	٠	—	—	
٢٦	البينة	٩٨	٨	٠	٠	—	—	
٢٧	الزلزلة	٩٩	٨	٠	٠	—	—	
٢٨	النصر	١١٠	٣	٠	٠	—	—	
٢٨			١٦٢٣				١٥	

من الجدول السابق تتضح الحقائق التالية :

أولاً : عدد السور المدنية = ٢٨ سورة .

ثانيـــاً : عد آيات السور المدنية = ١٦٢٣ آية .

ثالثــاً : عدد الآيات المكية فى السور المدنية = ١٥ آية .

رابعـاً : عدد آيات السور المدنية = ١٦٢٣ ـ ١٥ = ١٦٠٨ آية .

خامساً : مجمل الآيات المدنية = ١٦٠٨ + ١٥٢ = ١٧٦٠ آية .

سادساً : مجمل سور القرآن الكريم :

= ٨٦ (مكية) + ٢٨ (مدنية) = ١١٤ سورة .

سابعـاً : مجمل الآيات الكريمة التى يشتمل عليها القرآن العظيم :

= **٤٣٧٦** (مكية) + ١٧٦٠(مدنية) = **٦١٣٦** آية .

❁❁❁

القرآن الكريم .. معجزة النبى الأمى محمد بن عبد الله (ﷺ) ، وهذا الكتاب المعجز فيه تبيان وتوضيح لكل أمور الحياة والبعث ، وهو يهدى للتى هى أقوم ، لذلك يقول عنه من شرف رسولنا بالنزول عليه .. وخصّ أمتنا بالإيمان به والخشوع إليه :

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ٨٩] (١) .

فالمولى قدم لعباده فى هذا الدستور الجامع كل ما يحتاجون إليه .. ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : ٣٨] (٢) .

فالقرآن عصمة المؤمن فى الدنيا والآخرة: يقول الرسول (ﷺ): « ـ ستكون فتن. قيل : وما المخرج منها ؟

قال : كتاب الله : فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم »(٣) .

نظراً لأهمية القرآن الكريم ـ بالنسبة للبشرية جمعاء .. وليس بالنسبة للمسلمين فحسب .. كما سوف نوضّح فيما بعد ـ فقد نال هذا الكتاب المقدس من عناية المسلمين ـ منذ عصر الرسول (ﷺ) إلى اليوم ـ عناية لا تُعدُّ ولا تحد ، سواء من حيث حفظه والمحافظة عليه .. أم من حيث تلاوته وتفسيره .

قال الشافعى رضى الله عنه : « ليست تنزل بأحد فى الدين نازلة إلا فى كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها » .

وقال أيضا : « جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة ، وجميع السنة شرح للقرآن. » يؤيد هذا قوله (ﷺ) :

« إنى لا أحل إلا ما أحل الله ، ولا أحرّم إلا ما حرم الله فى كتابه » (٤) .

وسوف نقدم فيما يلى ـ باختصار شديد ـ بعض الحقائق الخاصة بالقرآن الكريم باعتباره رسالة نبينا محمد (ﷺ) ، وهذه الرسالة دستور للبشر أجمعين ،

(١) تبيانا : توضيحا .
(٢) فرطنا : أغفلنا وتركنا .
(٣) السيوطى : الإتقان فى علوم القرآن ـ ج ٤ ، ص ٢٨ .
(٤) الإتقان فى علوم القرآن : ج ٤ ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

ولن تهتدى الإنسانية إلى الصراط المستقيم والسبيل القويم إلا عندما تعرف حدود ما أنزل الله على رسوله :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ [النور : ٥٤] .

❁ ❁ ❁

نـزول القرآن مُنـجّما

قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ [سورة القدر : ٤ ـ ١] .

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

الذى عليه إجماعُ الفقهاء والمفسرين أن القرآن الكريم نزل من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا فى ليلة القدر جملة واحدة . ثم نزل بعد ذلك منجّما .. ومتفرقا حسب الأحداث والمناسبات التى تعرّضَ لها الرسول (ﷺ) والذين آمنوا معه خلال ثلاث وعشرين سنة . وهنا نشير إلى أمر غاية فى الأهمية بالنسبة لتفسير القرآن ، ومعرفة أسباب النزول الخاصة ببعض السور والآيات الكريمة :

معظم الكتب السماوية نزلت دفعة واحدة .. أما القرآن العظيم فقد نزل منجما متفرقا ، والسبب فى ذلك هو أن تكرار نزول الوحى على الرسول (ﷺ) يثّبتُ قلبه ، ويقوى عزمه ، ويجدد العهد معه ، حتى يواصل الطريق دون أن يحس بأن ربه قد ودعه أو قلاه : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان : ٣٢ ـ ٣٣] .

وقال تعالى أيضا : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود : ١٢٠] .

هذا النزول المتواصل واللقاء المستمر بين الرسول (ﷺ) .. وبين الروح الأمين ـ

جبريل عليه السلام ـ ميزة ، لم يهبها الله سبحانه لأحد من أنبيائه أو حتى رسله أولى العزم ، وإنما خص بها ـ فقط ـ عبده ورسوله محمدا (ﷺ) ، وقد أراد الله بهذه الصلة المتواصلة أن يقوّى عزيمة رسوله حتى يواصل الدعوة ونشر الرسالة ، لذلك يقال إن رسول الله (ﷺ) كان أجود ما يكون فى رمضان ، لكثرة نزول جبريل عليه.

سبب آخر لنزول القرآن منجماً : هو أن تكون الآياتُ البينات إجابة وتفسيراً لما يتعرّضُ له الدين والرسول والمسلمون من مواقف ومسائلَ ، ومن ثم يأتى الوحىُ الأمين ، ليحلّ المسألة ويشرحَ أبعادَ القضية ـ على أساس أن هذه القضايا والمواقف، لا تتصلُ باللحظة الزمانية الآنية الخاصة بسيرة الرسول (ﷺ) ومسيرة الدعوة فحسب ، وإنما على أساس أنها تفسيرُ وتفصيلٌ لكل المواقف المشابهة والقضايا المتجددة . « يروى أن عبد الله بن أمّ مكتوم أتى النبىّ (ﷺ) وهو يكلم عتبة ابن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب وأبيا وأمية ابنىْ خلف ، ويدعوهم إلى عبادة الله تعالى ويرجو إسلامهم ، فقام ابن أم مكتوم وقال :

ـــ يارسول الله علمنى مما علمك الله .

وجعل يناديه ويكرر النداء ، ولا يدرى أنه مشتغل مقبلَ على غيره ، حتى ظهرت الكراهية فى وجه الرسول (ﷺ) لقطعه كلامه . فعبس وأعرض عنه ، وأقبل على السادة الذين يكلمهم أملاً فى أن يهديهم الله . بعدَ ذلك مباشرة نزل الوحى الإلهىُ مُعاتبًا الرسولَ (ﷺ) .. الذى أقبل على الأغنياء والسادة ، وأعرض عن الفقراء الضعفاء » (1) والآيات الكريمة الدالة على ذلك هى :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ [عبس : ١ ـ ١٠]

ورغم حُبّ الله لرسوله ، فإنه عاتبه على ما بدرّ منه ، لأنه أراد أن يعلمه .. ويعلمَ أمته جميعا : أن أفضل الناس أتقاهم ، حتى لو كان عبداً حبْشيا ، وأننا ينبغى ألا

(1) راجع : النيسابورى : أسباب النزول ، ص ٢٩٧ .

نُقوِّمَ البشر بمقياس المادة وسعة الرزق ، وإنما على أساس طهارة الروح ونقاء السريرة . وقد أكرمه الرسول (ﷺ) بعد ذلك، وكان إذا رآه يقول مبتسمًا : «مرحبا بمن عاتبنى ربى فيه» .

فهذه الموعظة ليست للرسول (ﷺ) وحده .. وإنما هى درس لأمته على مر العصور والدهور .

يذكر الزركشى رأيًا فى قضية نزول القرآن ، يحاول فيه أن ينفى وجه الغرابة فى نزوله منجمًا « وقيل : معنى « لنثبت به فؤادك » لتحفظه ، فإنه عليه السلام كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ففرق عليه ، ليتيسر عليه حفظه .. فإن قلتَ : كان فى القدرة إذا نزل جملة أن يحفظه النبى (ﷺ) دفعةً ، قلتُ : ليس كل ممكنٍ لازمَ الوقوع . وأيضا فى القرآن أجوبة عن أسئلة ، فهو سبب من أسباب تفرق النزول ، ولأن بعضه منسوخ وبعضه ناسخ ، ولا يتأتى ذلك إلا فيما إذا أنزل مفرقا [1] » .

هناك أسبابٌ أخرى تبررُ نزول القرآن منجما بحسب المناسبات ، ويمكن الرجوع إليها فى الكتب الخاصة بأسباب النزول وبعض كتب التفسير وعلوم القرآن مثل : تفسير الطبرى ، والزمخشرى ، وابن كثير ، والإتقان للسيوطى ، والبرهان للزركشى، وأسباب النزول للنيسابورى ــ على سبيل المثال لا الحصر .

❁ ❁ ❁

ترتيب القرآن وتدوينُه

قبل أن يتوفى الرسول (ﷺ) كان القرآن الكريم قد اكتمل بنزول الآية قبل الأخيرة فيه .. وهي قوله تعالى :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

ورغم نزول القرآن مُنجمًا .. متفرقا ، فقد تعهد الرسولُ (ﷺ) بترتيبه وتلاوته

(١) الزركشى : البرهان ج ١ ، ص ٢٣١ .

حسب وحى من الله تعالى إليه. يقول ابن عباس الذى وصف بأنه ترجمان القرآن:

« كان رسول (ﷺ) يأتى عليه الزمان .. وهو ينزل عليه السور ذوات العدد ، فإذا نزل عليه الشىء دعا بعض من كان يكتب فيقول : « ضعوا هذه الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا » (١) .

معنى هذا أن الرسول (ﷺ) قد انتقل إلى الرفيق الأعلى بعد أن أتم نشر مبادىء رسالته ، ورضى لأمته الإسلام دينا ، وأكمل كل ما أراد الله أن يذكر به عباده . والذى عليه جمهور الصحابة والأئمة والمفسرين والفقهاء .. هو أن ترتيب القرآن بالنسق المعروف والشكل المألوف بالرسم العثمانى ، **كل ذلك كان توفيقيا بأمر الرسول بناءً على ما أوحى إليه من أمر ربه** . فقد كان جبريل يراجعه فى شهر رمضان من كل سنة . وفى السنة الأخيرة عرض الرسول عليه القرآن مرتين ؛ وعلى هذا فإن ترتيب سور القرآن وآياته أمر قدره رب العالمين منذ الأزل . يقول وهو خير القائلين : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ [الحجر : ٩] .

إن الذى أنزل القرآن هو الذى تولى أمر حفظه .. والله خير حافظا ، وهو المهمين على كل شئون خلقه ، فتبارك الله أحسن الخالقين والحافظين .

لقد كان جبريل هو الواسطة بين الله سبحانه ـ ورسوله ﷺ ، فأنزل القرآن على النحو الذى أمر به .. ﴿ **وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ** ﴾ [الشعراء : ١٩٣] .

مما يؤكد أن القرآن الكريم ظل محافظا عليه بعد أن رسخت كلماته ومعانيه فى صدور النبى وأصحابه ـ أنه لم يكن محفوظا ـ كما قرأه الرسول (ﷺ) فحسب، وإنما كان (مدونًا) عند بعض الصحابة من كتَّاب الوحى .. ومن أهمهم :

على بن أبى طالب ـ عثمان بن عفان ـ زيد بن ثابت ـ عبد الله بن مسعود ـ أبىّ بن كعب ـ حذيفة بن اليمان ـ أبو هريرة ـ أبو موسى الأشعرى ـ طلحة بن عبيد الله ـ أبو الدرداء ـ معاوية بن أبى سفيان ـ معاذ بن جبل .

ويجب أن نعلم أن كتابة القرآن وجمعه فى عصر أبى بكر ليست أمرا مستحدثا، فإن الرسول (ﷺ) نفسه كان يأمر بكتابته .. ولكن المكتوب منه كان

(١) الزركشى : البرهان ، ح ١ ، ص ٢٤١ .

مفرقا عند من يجيدون الكتابة من الصحابة الذين أذن لهم الرسول بذلك .

كما أن القرآن كان مكتوبا كله فى بيت النبى (ﷺ) ومجموعا ، لكنه غير مرتّب السور . لقد كان الرسول (ﷺ) أخبر خلق الله بكتاب الله .. وقد أمنه الله من النسيان بقوله : ﴿ **سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ** ﴾ [الأعلى : ٦] فلما مات (ﷺ) بعد أن أكمل رسالته ، ألهم الله خلفاءه بأ يجمعوا القران فى كتاب واحد ، حتى لا يختلفوا بعد رحيل رسولهم (ﷺ) .

« فى البخارى عن قتادة قال : سألت أنس بن مالك : من جمع القرآن على عهد الرسول (ﷺ) ؟ قال : أربعة كلهم من الأنصار : أبى بن كعب، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد الأنصارى » . [1] وهذا يؤكد أن القرآن الكريم كان مدونا منذ عصر الرسول (ﷺ) . وتلك مسئولية أقرها ربُّ العزة على نفسه حين قال: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ [الحجر : ٩] .

أما سببُ جمع القرآن وتدوينه بين دفتى كتاب : فيعودُ إلى موتِ بعض الحفظة فى حروب الردّة فى السنة الثانية من ولاية عبد الله بن أبى قحافةَ .. وهو أبو بكرَ الصديق ـ رضى الله عنه :

روى البخارى فى صحيحه عن زيد بن ثابت قال :

« أرسل إلىَّ أبو بكر بعد مقتل أهل اليمامة ، فإذا عمرُ عنده، فقال أبو بكر : إن عمر أتانى فقال : إن القتل قد استحرَّ يوم اليمامة بقراء القرآن [2] ، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالمواطن [3] ، فيذهب كثير من القراء . وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن .

قلت لعمر : كيف نفعل شيئا لم يفعله رسول الله (ﷺ) ؟

فقال عمر : والله إن هذا خير .

فلم يزل عمر يراجعنى حى شرحَ الله صدرى لذلك ، وقد رأيتُ فى ذلك الذى رأى عمر .

---

(١) الزركشى : البرهان ج ١ ، ص ٢٤١ .
(٢) استشهد فى معركة اليمامة من الصحابة حوالى أربعمائة وخمسين ، وجملة القتلى من المسلمين حوالى ألف شهيد .
(٣) المواطن : البلاد .

قال زيد .. وقال أبو بكر : إنك رجل عاقل لا أتهمك . وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله (ﷺ) فتتبع القرآن واجمعه .

قال زيد : فو الله لو كلفنى نقل جبل من الجبال، ما كان بأثقل عليَّ مما أمرنى به من جمع القرآن » (١) .

وقد مضى زيد فى مهمته المقدسة بجمعُ القرآن مما دون فيه من العسب (٢) ، واللخاف، (٣) وصدور الرجال . وبعد أن تمت كتابة (نسخة كاملة) ، أودعت عند أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنهما .

فلما كان عصر عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ قدم عليه حذيفة بن اليمان الذى شارك فى فتح بلاد أرمينية وأذربيجان، وقد أفزعه اختلاف بعض المجاهدين فى قراءة القرآن، فقال لعثمان :

ـ أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى .

فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلى إلينا الصحف ننسخها فى المصاحف ، ثم نردها إليك، فأرسلت بها إليه ، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعد بن أبى وقاص وعد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف. وكان عثمان قد قال للرهط القرشيين : إذا اختلفتم أنتم وزيد فى شىء من القرآن ، فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم » (٤) .

بعد ذلك رد عثمان ـ رضى الله عنه ـ النسخة الأولى إلى السيدة حفصة .. وأرسل نسخة إلى مكة والكوفة والبصرة ودمشق وبقيت نسخة عنده فى المدينة . ثم إنه أمر بإحراق كل صحيفة فيها شىء من القرآن ، حتى يجمع المسلمين على مصحف واحد .

بمثل هذا الحرص الشديد على جمع القرآن وتدوينه من أولئك المسلمين الأتقياء الذين كانوا يكتبون الوحى فى حياة الرسول (ﷺ) ، تم جمع القرآن وتدوينه جمعاً صحيحاً دقيقاً .. فالقرآن نزل بالحق ، ودُوِّنَ بالصدق ، ولم يكن

---

(١) الزركشى : البرهان ، ج ١ ، ص ٢٣٣ .
(٢) العسب : ج عسب ، وهى جريد النخل إذا نحى عنه خوصه .
(٣) اللخاف : ج لخفة ، وهى حجارة بيضاء عريضة رقيقة .
(٤) الزركشى : البرهان ـ ج ١ ، ص ٢٣٦ .

يجرؤ أى من هؤلاء الصحابة الأنقياء أن يزيد أو ينقص حرفاً واحداً ، إذ إن إيمانهم الصادق كان يحول بينهم وبين أى هوى .. أو ريبة. ولا شك أنهم كانوا يدركون تحذير الرسول ـ الذى قال فيه :

« من كذب عليّ متعمدا ، فليتبوأ مقعده من النار » .

وقد روعيت هذه الدقة فيما بعد حين تصدى علماء المسلمين لتفسير القرآن .. لأنهم كانوا يعون قول الرسول (ﷺ) :

« من قال فى القرآن برأيه فأصاب ، فقد أخطأ » .

وقد دوّنَ القرآن وكُتب بلسانِ قريش ، ومن ثم كانتْ قراءةُ الجمهور تتفق مع طبيعة لغة قريش، بل إن القراءاتَ التى حصرها ابن مجاهد فى سبع وكانت أشهر القراءات ، كانت فى الوقت نفسه أقرب إلى لغة قريش ، أى أن القرآن كتب بلسان قريش، وقرىء بلغتها أيضا. والقراء السبعة الذين اختار ابن مجاهد قراءتهم هم : ابن عامر ـ نافع ـ ابن كثير ـ أبو عمرو بن العلاء ـ عاصم ـ حمزة ـ الكسائى .

وعند كتابة القرآن بالخط العثمانى حدث مايلى :

قسم القرآن كله إلى : ← ٣٠ جزءاً

وكل جزء قسم إلى : ← حزبين

وكل حزب قسم إلى : ← أربعة أرباع

والهدف من هذا التقسيم هو : تسهيل التلاوة والحفظ لمن شرح الله صدره لقراءة القرآن وحفظه . وقد ظل هذا الرسم الإملائى وذلك التقسيم طوال العصور التالية .. وحتى اليوم .

❁❁❁

القرآن معـجز ...كيف وإلى متى ؟!

﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ ﴾ [سورة النحل : ٦٠] .

ما يقدمه القرآن الكريم من آياتٍ بينات ومعجزات باهرات ، يعدُّ مثلا أعلى للبشر في كل المجالات، فقد ذكر ربُّ العزة ـ سبحانه ـ فى كتابه العظيم صفاته الحسنى وأفضاله العظمى ، إذْ أرسل إلى عباده نبيا كريما برسالة سامية خالدة ، يخرجهم بها من ظلمات الكفر إلى أضواء الإيمان . القرآن إذن مصدر كل شيء بالنسبة للبشر أجمعين. يقول رب العالمين :

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر : ٢٧ ـ ٢٨] .

القرآن ـ إذن ـ يرسم طريق العبادة ، ويصور أسلوب الحياة ، ويوضح سبيل النجاة فى الدنيا والآخرة ، أى أنه دستور عبادة ومنهج حياة، وهو هدى ورحمة وشفاء لما فى الصدور .. وخُذْ من القرآن ما شئت لما شئتَ . فمن يتدبر آيات الفرقان تكشف عنه الحجب، وتدرأ عنه الكرب. وهو كتاب ليس خاصا بالمسلمين وحدهم .وإنما هو رسالة عامة للبشر أجمعين. ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يتقبل منه. يقول المولى عز وجل مخاطبا رسوله الكريم :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

القرآن العظيم ـ رسالة محمد (ﷺ) ـ رحمة للناس كافة. وإذا ما وحاولنا أن نتبين وجوه إعجازه ، فسوف نفكر طويلا ، ونتردد كثيرا .. ونقول قليلا ، لأن القرآن ـ باختصار شديد ـ معجز فى أى مجال نظرت منه إليه: إنه معجز بمعانيه الفاصلة ، ومضامينه الزاخرة ، ومعجز بطريقة ترتيب سوره ، وتنسيق آياته ، وتركيب مفرداته !!

دين يشـيـدُ آيةً فى آية ... لبناتهُ السوراتُ والأضواءُ
الحق فيه هو الأساسُ وكيف لا ... والله جل جلاله البنّاءُ (١)

---

(١) الشوقيات : ج ١ ، ص ٢٦ ـ يشيد: يبنى ويقام ـ لبناته: أحجاره ـ السورات والأضواء: السور والنور الذى يشع منها ـ البناء: البانى والمؤسس .

اعلم ـ هدانى الله وهداك .. وجعل القرآن ربيع قلبى وقلبك ـ أن الله جلت قدرته، وعظمت حكمته، قد جعل معجزة كل نبى مما اشتهر به قومه وأتقنه شعبه . ولما كانت العرب أمة (شاعرة) ، تجيد نظم الشعر ورواية القص .. فقد جعل ربنا معجزة القرآن الكريم ـ فى المقام الأول ـ معجزة لغوية بلاغية ، لذلك نجد أن معظم من سمعوه فى بداية عصر البعثة، انجذبوا نحو طلاوة العبارة وحلاوة الدلالة ـ وقال ـ مثل الوليد بن المغيرة : ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ [المدثر : ٢٤] .

كما أن عمر بن الخطاب حين قرأ صدر « سورة طه » عند سعيد بن زيد زوج أخته فاطمة، قال : « ما أحسن هذا الكلام وأكرمه .. ثم قال : دلنى على محمد ياخباب حتى آتيه فأسلم » [١] .

❁ ❁ ❁

يقول جلال الدين السيوطى :

« اعلم أن المعجزة خرق للعادة ، مقرون بالتحدى ، سالم عن المعارضة .. وإن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم . فلم يشاهدها إلا من حضرها. ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة ، وخرقه العادة فى أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات .

قال (ﷺ) : « ما من الأنبياء نبىّ إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا» .

والمعنى أن المعجزات الماضية كانت حسية تشاهد بالأبصار: كناقة صالح وعصا موسى ، ومعجزة القرآن تشاهد بالبصيرة ، فيكون من يتبعه لأجلها أكثر ، لأن الذى يشاهد بعين الرأس، ينقرض بانقراض مشاهده ، والذى يشاهد بعين العقل باق، يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمراً » [٢] .

وقد تحدى القرآن العرب ـ الذين لم يؤمنوا ـ أن يأتوا بحديث مثله .. أو بعشر سور .. أو على الأقل بسورة ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣] .

(١) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ـ ج ١١ ، ص ١٦٤ خباب : هو الذى كان يعلم سعيدا وزوجه قراءة القرآن .
(٢) السيوطى : الإتقان ـ ج ، ص ٤ .

والقرآن ليس معجزة تستعصي على البشر فحسب ، وإنما على الجن أيضا :
﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء :٨٨] .

من وجوه إعجازه ـ أيضا ـ الإخبار بقصص السابقين ، والحديث عن أمور غيبية سوف تقع وتتحقق في المستقبل، مثل قوله تعالى : ﴿ الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم : ١ ـ ٥] .

قال الإمام فخر الدين الرازي : « وجه الإعجاز الفصاحة وغرابة الأسلوب، والسلامة من جميع العيوب » .

قال الزملكاني : « وجه الإعجاز راجع إلى التأليف الخاص به بأن اعتدلت مفرداته تركيبا وزنةً ، وعلت مركّباته معنى بأن يوقع كل فن في مرتبته العليا في اللفظ والمعنى » .

قال ابن عطية : « الصحيح والذي عليه الجمهور والحذّاق في وجه إعجازه ـ أنه بنظمه وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه »[1] .

الرأي الأخير قريب من رأي عبد القاهر الجرجاني في كتابيه : دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة ، حيث يرى أن القرآن الكريم معجز بطريق نظمه وأسلوب تأليفه .

وهذا الرأي قريب مما ذهب إليه حازم القرطاجني في « منهاج البلغاء » : «وجه الإعجاز في القرآن الكريم من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها في جميعه »[2] .

ومما عدده السلف الصالح في مظاهر الإعجاز القرآني : تأثيره القوي في القلوب، حيث يجعل من يستمع إليه يخشع لذكر الله . ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ [الزمر : ٢٣][3] .

---

(١) السيوطي : الإتقان ـ ج ٤ ، ص ٩ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٠ .
(٣) متشابها : في إعجازه وهدايته وخصائصه ـ مثاني : مكررا فيه الأحكام والمواعظ وغيرها .

وقال آخرون : ما فيه من الإخبار عن الأمور الماضية .

وقال آخرون : ما فيه من علم الغيب والحكم على الأمور بالقطع .

وقال آخرون : كونه جامعا لعلوم يطول شرحها ، ويشق حصرها .

ومن وجوه إعجازه أيضا الروعة التى تلحق قلوب سامعيه ، والهيبة التى تعتريهم عند تلاوته . وقد أسلم جماعة من الصحابة عند سماع بعض آيات تتلى عليهم ـ كما حدث مع عمر بن الخطاب وجبير بن مطعم.. وغيرهما [1] .

❁ ❁ ❁

خــلاصة القــول

إن القرآن الكريم معجزٌ لكل البشر ـ ناهيك عن أمر الجنّ ، هذا الإعجاز وذلك التحدى قائمـان منذ تلاه الرسول (ﷺ) على العرب مسلمين وكافرين . وسوف يظلان إلى أبد الآبدين وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

فالقرآن معجز بكل فيه : مبنى ومعنى ، تركيبا ودلالة ، ومعجز بطريقة ترتيب سوره، وتنسيق آياته داخل السور. كما أنه معجز حتى بطريقة تلاوته ، التى لا تأخذ بمجامع قلوب البشر فحسب ، بل تجذب الجن ـ أيضا ـ بقوة تأثيره فى القلوب قبل الآذان :

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ [الجن : ١ ـ ٢] [2] . وإلى هذه الحادثة تشير آية أخرى هى قوله تعالى : **﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ﴾** [الأحقاف : ٢٩] .

والقرآن يتجاوز تأثيره الإيمانى قلوب البشر وأرواح الجن إلى صخور الجبال :

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [الحشر:٢١] [3] .

---

(١) راجع الإتقان : ج ٤ ، ص ١٧ وما بعدها .

(٢) راجع تفسير الطبرى : ج ١٢ ، ص ٢٥٨ .

(٣) متصدعا : متشققا كناية عن الخشوع والرهبة .

القرآن .. نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من شرح صدره للإيمان . اللهم اشرح صدورنا لكماتك التامات ، وآياتك البينات ، فى الدنيا وبعد الممات ، يابديع الأرض والسموات .

ننتهى من حديثنا المختصر عن إعجاز القرآن الكريم ـ إلى أن محاولة تحديد وجوه الإعجاز القرآنى ـ أيضا ـ أمر معجز . وهل يقدر إنسان ضعيف مهما أوتى من علم وحكمة أن يحيط بأسرار عظمة كتاب ، جعله رب العزة رسالة خاتم أنبيائه وأفضل رسله وخير خلقه ؟! ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان : ٢٧] .

﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [الكهف : ١٠٩] .

معنى هذا أن أشجار الأرض وبحارها لو تحولتا إلى أقلام وأحبار ... لنفدتا قبل أن تقدرا على تفسير كلمات الله وأوامره وأحكامه ، وشرح دلالات معانيها ، وبيان وجوه إعجازها .

وإذا عجزت الأشجار والبحار .. فمن باب أولى أن تعجز الأقلام والأوراق ... !!

فى النهاية نؤكد أن بعثة الرسول الكريم محمد (ﷺ) رحمة أهداها الله للبشر أجمعين ، وتنزيل القرآن هبة من العاطى الوهاب ، لينتفع بها أولو الألباب على مر العصور :

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران : ١٩٤] .

اللهم اجعل ذكرك مصباح حياتنا ، و القرآن ربيع قلوبنا ، وحب الرسول أنس نفوسنا . اللهم إيمانا بك ، وتصديقا بكتابك ، واتباعا لسنة نبيك ، وفق المسلمين إلى طاعاتك ، والاعتصام بكتابك وهدى رسولك ، حتى ينتشر نور الإيمان فى قلب كل إنسان ، فى كل زمان ومكان ..!!

❁❁❁

خـاتمـةُ

الإسـلام... ديـنُ السَّـلام

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت : ٣٣]

الإسلام دين الفطرة

على منبر مسجده الشريف جلس رسول الله (ﷺ) ـ قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى بأيام معدودات ـ وهو يعانى آلامَ المرض وسكرات الموت عاصباً رأسه . وبعد أن حمد الله ، وأثنى عليه بما هو له أهلٌ ، قال :

« أيها الناسُ أنفذوا بعث أسامة ، فلعمرى لئن قلتم فى إمارته لقد قلتم فى إمارة أبيه قبله ، وإنه لخليقٌ بالإمارة ، وإن أباه كان خليقاً لها » . ثم قال :

«إن عبداً من عباد الله خيّره الله بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ما عند الله » .

ففهمها أبو بكر وعرفَ أنه يعنى نفسه فبكى ، وقال : بل نحنُ نفديك بأنفسنا وأبنائنا . قال (ﷺ) :

« انظروا إلى هذه الأبواب اللافظة[1] فى المسجد ، فسدّوها إلا باب أبي بكر ، فإنى لا أعلمُ أحداً كان فى الصحبة أفضلَ عندى يداً منه . وإننى لو كنتُ متخذاً من العباد خليلاً ، لاتخذت أبا بكر خليلا . ولكن صحبةٌ وإخاء إيمان ، حتى يجمع الله بيننا عنده . » .

وبعد ذلك قال :

« يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيراً ، فإن الناس يزيدون وإن الأنصار على هيئتها لا تزيد ، وإنهم كانوا عيبتى [2]، التى آويت إليها ، فأحسنوا إلى محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم » [3] .

هذه العبارات السريعةُ الخاطفة التى قالها الرسول القائد (ﷺ) .. وهو فى آخر لحظات حياته أكدتْ عدة أمور ، كانتْ لها آثار بعيدة الغور فى توجيه سياسة الدولة الإسلامية ، وترشيد مسيرتها ، وتقوية روابط الوحدة بين صفوفها ـ بعد رحيل الراعى الهادى(ﷺ) .

---

(١) اللافظة : النافذة إليه أو المفتوحة عليه .
(٢) عيبتى : خاصتى والمقربين إلى وموضع أسرارى .
(٣) تهذيب سيرة ابن هشام ، ص ٣٤٠.

أهم تلك الأمور الجليلة ، التى تخرج بها من حديث القائد الحكيم ، الذى ظل حريصا على أمته ـ رءوفا عليها ، حتى اللحظات الأخيرة هى :

الأمـر الأول : إن المسلمين تأخروا فى تسيير حملة أسامة بن زيد ، التى أمر بإعدادها رسول الله (ﷺ) ، لتأمين الحدود الشمالية من الخطر الزاحف على الدولة الوليدة من حكام الروم على جنوب بلاد الشام . ويبدو ـ والله أعلم ـ أن البعض قد استنكف أن يكون أسامة ـ وهو الشاب الحدث ـ قائد جيش يكون من جنوده : أبو بكر وعمر وخالد وأبو عبيدة بن الجراح وغيرهم . وربما ساعدهم على هذا الاستبطاء الانشغال بمتابعة أخبار مرض المصطفى المختار (ﷺ) ، لينظروا ما الله قاضٍ فى رسوله الكريم (ﷺ) .

إن أهمَّ قاعدةٍ فى القانونِ العسكرى هى الطاعةُ التَّامة للقائد وحسن الضبط والربط . فإذا كانت الديمقراطية فى السلم مطلوبة ومرغوبة ، فإنها فى أثناء المعارك مرفوضة وممنوعة ، لذلك أصرِ القائد العظيم أن تنفذ أوامره . ولم تشغله غمرة المرض الذى يعانى منه ، والوجعُ الذى يشتدفى جسده الشريف ، لأنه لم يستطع الخروج من حجرة عائشة إلا بعد أن أطفأ حرارة الحمى بالماء .. وعصب رأسه بعصابة ، حتى يوقف صداع الرأس ، قائلا لآل بيته : « هريقوا علىَّ سبع قرب من آبار شتى ، حتى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم » (١) .

هكذا كان القائد العظيم حازمًا فى رأيه ، حاسمًا فى أوامره ، حتى وهو يُعانى أوجاعَ الموت . بمثل هذه القيادة الرشيدة استطاع الرسول أن يبلغ رسالته ، وعرف القائد كيف يؤسس دولته .. بالحق والقوة فى آن واحد مسترشدا بهدى من كلمات الله ـ عزّ وجل :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٠] (٢) .

❁ ❁ ❁

---

(١) هريقوا : أريقوا وصبوا الماء .
(٢) ما استطعتم : كل ما تقدرون عليه ـ رباط الخيل : الخيل المرابطة المعدة للجهاد فى سبيل الله ـ آخرين : المقصود بها هنا : المنافقين .

الأمر الثانى : إن الرسول الكريم والحاكم الملهم أشار إشارة اللبيب الحكيم دون أن يصرح أو يأمر بأن أبا بكر رضى الله عنه ينبغى أن يكون خليفته ، والقائم على أمر الأمة من بعده ، حين طلب منه أن ينوب عنه فى الصلاة بالناس . وحين تخلف أبو بكر مرة ، وسمع الرسول (ﷺ) صوت عمر رضى الله عنه ، استنكر ذلك قائلا : «يأبى الله ذلك والمسلمون» .

كما أمر (ﷺ) وهو فى لحظات الموت الأخيرة بأن تُغلق كلُّ الأبواب المؤدية إلى المسجد إلا باب أبى بكر ، وأثنى عليه قائلا : « فإنى لو كنت متخذا من العباد خليلا لاتخذت أبا بكر ، ولكن صحبة وإخاء إيمان .. » .

العجيبُ فى الأمر أن الصديق قبل تنفيذ أمر الرسول (ﷺ) على أنه تكيلف ومسئولية ، وربما أحسَّ بأن النبى على وشك الرّحيل ، فأحزنه أمر مرضه (ﷺ) أكثر مما أسعده أمر خلافته ، فقد أحس وهو الرجل الطيب النقى الحيى أن المسئولية أكبر من أن يتحملها ، إذ كيف يقدر على أن يخلف الرسول (ﷺ) فى أمور الدين والدنيا .

الرسول (ﷺ) بثاقب بصيرته أراد أن يجنب الأمة من بعده شر الفتن ، ما ظهر منها وما بطن ، فقد وكل أبا بكر رضى الله عنه فيما يرضى عنه الله ورسوله .. وترك لهم أمر اختياره خليفة فيما يرضى عنه عامة المسلمين استئناسًا بتزكية الرسول الكريم له . إذ لا ريب أن المسلمين أصحاب محمد وتلاميذه فهموا كناية « سدوا الأبواب » المؤدية إلى مسجده إلا باب أبى بكر ، حين قال :

« انظروا هذه الأبواب اللافظة فى المسجد ، فسدُّوها إلا باب أبى بكر ، فإنى لا أعلمُ أحداً ، كان أفضل فى الصحبة عندى يداً منه » . الرسول الحكيم بهذه الإشارة الذكية ،كنّى ولم يصرح، دل ولم يأمر ، زكى دون أن يحدد مسترشدا بقول الخالق سبحانه :

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى :٣٨] .

هكذا أسس الرسول (ﷺ) بنيان الأمة ، وأقام أركان الدولة ، على هدى وبصيرة، لأن الفطرة السليمة والطبيعة النقية ، توجب اجتماعَ أمرين لا غنى

لأحدهما عن الآخر وهما : الدين والعقل .. التقوى والرشاد . ولا ريب أن القدوة المثلى فى هذا هى النبى الكريم (ﷺ) ، الذى يقول عنه رب العالمين :
﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢١].

❁ ❁ ❁

الأمر الثالث : الإسلام دينُ الفطرة النقية التى فطر الله الناس عليها ، لذلك فقد طهَّر الإسلامُ قلوبَ المسلمين ، وجعلهم أبعد ما يكونون عن الانشغال بأمور الدنيا ومظاهر الحياة . كانتْ غايةُ جميع المسلمين الذين صحبوا النبيَّ (ﷺ) ، وتعلموا من هديْه ، وارتووا من نبعه ، هى أن يرضى عنهم الله ورسوله . لم يطمع أحد منهم فى سُلطان .. أو إمارة ... أو جاه .. أو إدارة .. أو زعامة ، وإنما كان هدفُهم الأسمى أن يتقوا الله ، ويطيعوا رسوله ما استطاعوا ، وإذا جاءتهم الدنيا ابتعدوا عنها ، ولسان حالهم يقول : « يادنيا غرى غيرى » . وهو منطق مستوحى من قول المعلم العظيم الذى أدبه ربه واصطفاه : « إن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ما عند الله » . هذا ما فعله الفاروق عمر ـ الوزير الثانى للرسول (ﷺ) بعد أبى بكر ـ فقد انتدبه عبد الله بن زمعة لإمامة المسلمين فى الصلاة نتيجة لغياب أبى بكر عن المسجد فى هذا الوقت . وحين علم عمر بأن الرسول (ﷺ) لم يرحب بهذا الأمر منه ـ لم يغضب .. ولم تثر ثائرته .. ولم يعترض .. ولم يعاتب .. ولم يدر بخلده أى ظنٍ سيىء ، بل أكثر من هذا أحسَّ الندمَ ، وشعر أنه تجاوز الحدَّ ، وفعل ما لم يؤمر به . وقال معاتبا عبد الله : «ويحك..!! ماذا صنعت بى يا ابن زمعة ؟ والله ما ظننت حين أمرتنى إلا أن رسول الله (ﷺ) أمر بذلك ، ولولا ذلك ما صليت بالناس » (١) .

ومما يؤكد أن هذا الرأى كان تعبيرا صادقا عن موقف عمر من أبى بكر رضى الله عنهما أنه أولُ من بايعه « يوم السقيفة » ، إذ كان أسبق من وعى ماكنى عنه

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ، ص ٣٣٩ .

الرسول (ﷺ) .. وما ألمح إليه ـ عندما صاح عمر بصوته الجهورى : ابسط يدك يا أبا بكر .. فبايعه ، وهو يقول : ألم يأمرك النبى بأن تصلى أنت يا أبا بكر بالمسلمين، فأنت خليفته . ونحن نبايعك ، فنبايعُ خيرَ من أحبَّ رسولُ الله منا جميعا .

هكذا كان صحابةُ الرسول الكريم ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ رجالا أنقياء أتْقياء ، لا يخافون فى الحق لومة لائم ، وينفذون كلّ ما يرضى المعلم العظيم (ﷺ) ، الذى استمدُّوا منه الأسوة الحسنة فى كل أمور دينهم ودنياهم .

❁❁❁

الأمر الرابع : إن أبا بكر الصديق رضى الله عنه حين صار أول خليفة للمسلمين.. لم تتعكر نفسه الصافية .. ولم يتخل عن تواضعه .. وإنما أحسَّ أن العبء أكبر من أن يتحمله كاهله ، خاصة أنه أول خليفة يخلف النبى الكريم (ﷺ) ، أو بتعبير آخر : **أول تلميذ يضطلع بالمسئولية بعدَ غياب أستاذه العظيم..!!**

وقد أكد المتعلمُ النجيبُ على عظمةَ المعلم الكبير حين أعلن فى أول خطبة له بعد أن حمد الله .. وصلى على رسوله :

« أيها الناسُ : إنى قد وليت عليكم ولستُ بخيركم ، فإن أحسنتُ فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى . الصدقُ أمانة ، والكذبُ خيانة . الضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح [1] عليه حقه إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى أخذ الحق منه إن شاء الله . لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل . ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء . أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم ... » [2] .

تُعرف عظمة الأب بنجاح أفراد أسرته ، وتعرف قدرة المعلم بتفوق تلاميذ مدرسته .

(١) أريح : أرجع وأرد .
(٢) تهذيب سيرة ابن هشام ، ص ٣٤٨ .

تلك قاعدة بدهية من قواعد الحياة ، إذْ لا شيء يأتي من فراغ أو عدم .. كل شيء بمقدار ، وكل خطوة بمعيار . فالبذر الطيب ـ ينتج نباتا طيبا ، والخلق الخبيث .. يفسد بحراً أبيض .

وقد غرس الرسول (ﷺ) فأحسن الغرس ، من هنا كان صحابته مظهرا جليلا من مظاهر إخلاصه لدعوته ، والقاعدة السابقة التى أشرنا إليها مستوحاة من قول رب العزة سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم : ٢٤ ـ ٢٧] .

نريد أن نصل إلى فكرة مهمة هى **أن النبى محمد (ﷺ) ، قد ربى أصحابه وتلاميذه تربية عظيمة**.. يؤكد ذلك أن الأساس الطيب الذى قامت عليه رسالته ، هو الذى زكى نفوس أصحابه ، وفتق مكامن عبقريتهم . فى حوالى مائة سنة بعد وفاة النبى (ﷺ) دون المصحف الشريف ، وكتبت السنة المطهرة ، وانتشرت الدعوة المقدسة شرقا وغربا ، وورث المسلمون دولتى فارس والروم، وتجاوزوا حدودهما شرقا وغربا وشمالا وجنوبا . ثم فتحت المدارس ، ونشأت العلوم ، وترجمت آثار اليونان والفرس والهند . وبدأ المسلمون يؤلفون فى كافة المجالات النظرية والعلمية والأدبية واللغوية .

كان كتاب الله الكريم هو المصباح المنير الذى أضاء ما حولهم، وأنار لهم سُبل العرفان. كل هذا النور غرس الرسول (ﷺ)، وهؤلاء النجباء ـ فى أمور الدين ... وشئون الحكم .. ومجالات العلم والمعرفة ... واتجاهات الفكر والفنّ ـ تلاميذ فى مدرسة محمد ، أضاء الإسلام بصيرتهم وهداهم إلى صراط مستقيم ، فالإيمان أن تقول لا إله إلا الله محمد رسول الله .. ثم استقم كما أمرت . ذلك هدى الله.. **﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴾** [الكهف:١٧] .

دلالة كل ما سبق .. وكل ما يمكن أن يلحق : هو أن الإسلام دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، لأنه دين العقل والمنطق والتفكير . ولا يكلف الله عباده أمرا من أمور الدين أو الدنيا ، إلا لهم فيه خير كثير وفضل عميم ، حتى العبادة .. فإنها ـ فى المقام الأول ـ تطهير للروح وتزكية للنفس ، و ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ** ﴾ [الأعلى : ١٤ ـ ١٥] (١) .

إن البشر إذا تركوا وشأنهم ، فسوف يدركون أن الإسلام هو الدين الذى يتلاءم مع الطبيعة البشرية ، الدين الذى يكرم بنى آدم ، ويأمرهم باستخدام العقل فى كل أمور الدنيا والآخرة . وقد أوضح الأديب الفقية الأندلسى « ابن طفيل » فى قصة رمزية له بعنون : « حيّ بن يقظان » .. أن الإنسان (الحى) لو ترك وشأنه لتوصل إلى عبادة الله (اليقظان) الذى لا تأخذه سنة ولا نوم . إذ إن ذلك الطفل الصغير (حى) الذى نشأ فى جزيرة مجهولة بعيدة عن الناس ، أخذ يتأمل ما حوله حتى توصل فى النهاية إلى التعرف على الله والإيمان به .

الإسلام دين الفطرة النقية والطبيعة الطاهرة التى خلق الله الناس عليها .. فاتباعُ الإسلام ـ هو فى حقيقة الأمر ـ استجابة لنداء الطبيعة وتحقيق لمطالب الفطرة :

﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الروم : ٣٠] (٢) .

دين الفطرة أول ما يوجب على البشر هو الإيمان بالله فاطر السموات والأرض.. وأن يقـولوا : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [فاطر : ١] (٣) .

الفطرةُ تقودُ ـ بالضرورة إلى الإيمان بالله الفاطر ـ ومنطق الفطرة هو الاستجابة الطبيعية للإيمان بالله الخالق الرازق :

﴿ **قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي**

(١) أفلح : فاز ـ تزكى : تطهر من الكفر والمعاصى .
(٢) الدين : الإسلام ـ فطرة : طبيعة ـ القيم : المستقيم .
(٣) فاطر : مبدع وخالق .

﴿أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[الأنعام : ١٤] .

نتيجة منطقية لكون الإسلام دين الفطرة .. أنه انتشر بين العرب فى حوالى عشرين سنة . كما انتشر فى العالم كله فى حوالى مائة سنة بعد انتقال الرسول (ﷺ) إلى الرفيق الأعلى ، وسرى مسرى البرق فى الظلم حتى وصل إلى حدود الصين شرقا .. وفرنسا غربا.

ولم يكن إسلام غير العرب إسلامًا شكليًا صُوريا ، وإنما كان إسلام المؤمن الحق ، لذلك برز منهم فى مجال الفقه والتفسير والسنة أئمة ورجال لا يقلون عدداً أو أهمية عن العرب المسلمين فى المجالات الدينية وغيرها ، ويكفى أن نتذكر أهمية رجال فى الفقه الإسلامى وبعض المعارف العربية أمثال :

الإمام البخارى - الإمام مسلم - ابن جرير الطبرى - جار الله الزمخشرى - سيبويه - أبو على الفارسى - أبو الفرج الأصفهانى - عبد الله بن المقفع - أبو تمام - ابن جنى - ابن الرومى - إسحق بن حنين - أبو بكر الصولى - الآمدى - أبو على الفارسى - التبريزى - الزوزنى - الجرجانى - الترمذى - ابن مضاء القرطبى - الخوارزمى - ابن سينا - ابن رشد .. الخ .

هذه الأسماء ... وغيرها الكثير - تدل دلالةً قاطعة على أن الشعوب غير العربية بعد أن دخلت فى رحاب الدين الحنيف حسن إسلامهم ، وتعربت ألسنتهم . ومن خلال نهج الحضارة الإسلامية ومنطق اللغة العربية قدموا إسهامات جليلة فى تاريخ الحضارة والعلم والدين .

معنى ذلك أن الإسلام دين البشر أجمعين ، وأنه صالح لكل زمان ومكان.

❁ ❁ ❁

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

نوجز تفسير هذه الآية كما أورده الطبرى فيما يلى :

« يا أيها الناس إن الله خلقكم من نطفة رجل وامرأة ، وجعلكم أقرباء على مستوى النسب البعيد (الشعوب) والقريب (القبائل) ، ليعرف بعضكم بعضا ، وتعلموا أن أكرمكم عند الله أشدكم اتقاءً له بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ـ لا أعظمكم بيتا ، ولا أكرمكم عشيرة . قال رسول الله (ﷺ) : « إن أنسابكم هذه ليستْ بمسابٍ على أحد ، وإنما أنتم ولد آدم كطفِّ الصاع [(١)] لم تملئوه، ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين أو عمل صالح » .

وإن الله أيها الناس ذو علم بأتقاكم وأكرمكم عنده ، وذو خبرة بكم وبمصالحكم ، وغير ذلك من أموركم ، لا تخفى عليه خافية » [(٢)] .

وقد ذكر ابن كثير ـ أيضا ـ في تفسير هذه الآية ما نوجزه فيما يلى :

« يقول تعالى مخبرا للناس أنه خلقهم من نفس واحدة وهما آدم وحواء ، وجعلهم شعوبا وهى أعم من القبائل .. فجميع الناس فى الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء سواء ، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية وهى طاعة الله تعالى ومتابعة رسوله (ﷺ)، ليحصل التعارف بينهم ،كلٌّ يرجع إلى قبيلته . وإنما تتفاضلون عند الله تعالى بالتقوى لا بالأحساب . قال (ﷺ) : **إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم** » .

وفى حديث آخر يقول :

« **المسلمون إخوة لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى**» .

وقال أيضا : « **كلكم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم ، أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان** » [(٣)] .

(١) طفّ الصاع : جزء من كوب ماء .
(٢) تفسير الطبرى : ج ١١ ، ص ٣٩٨ .
(٣) الجعلان : ج جعل ، حيوان مثل الخنفساء ، يكثر فى المواضع الطينية الرطبة .

وقال أيضا : « **خير الناس أقرؤهم وأتقاهم لله عز وجل ، وآمرهم بالمعروف ، وأنهاهم عن المنكر ، وأوصلهم للرحم** » .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ أى عليم بكم ، خبير بأموركم ، فيهدى من يشاء ، ويرحم من يشاء ، ويعذب من يشاء ، ويفضل من يشاء على من يشاء . وهو الحكيم العليم الخبير فى ذلك كله » (١) .

فهذه الآية الكريمة ـ كما يتضح من التفسير المذكور .. الذى يتضمن بعض أحاديث الرسول (ﷺ) توضح مبدءاً من أهم المبادىء السامية التى يقوم عليها الإسلام وهو **المساواة والعدل بين البشر** . إن الله خلق الناس أجمعين من أصل واحد، لذلك يذكر المولى عباده بأمر مهم ، هو أن آدم الذى ينحدرون من صلبه قد خلق من تراب ، فلا قيمة إذن لحسب ونسب .. أو مال وجاه ، لأنه سبحانه خلق الخلق، لكى يتعارفوا ويتعاونوا ويعمروا الأرض ، ويشكروا الله على ما آتاهم من فضله.

التقوى ـ إذن هى المعيار الوحيد الذى يحاسب به الخالق عباده . وهذا المبدأ العادل، يؤكده رسول الله (ﷺ) أيضا بقوله :

« الناس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

هذا العدل الإلهى يوضح لنا أن مبادىء الإسلام السمحة تنبع من دلالة أسماء الله الحسنى ﴿ **وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا** .. ﴾ وهذه الأسماء العلية تدل على صفاته الجليلة . ويصعب أن نتتبع دلالة هذه الأسماء الكريمة ، التى تبلغ تسعة وتسعين اسما . لكن هذه الأسماء ـ فى مجملها ـ توضح للخلق أجمعين أن الله بعباده رءوف رحيم .. عادل مقسط .. غافر الذنب .. قابل التوب . ومع عزته وجبروته وقدرته على أن يذهب من يكفر به من خلقه ، ويأتى بقوم آخرين ، مع هذا كله فإنه لا يرضى لعباده الكفر ، ولا يرغب فى أن يعيش البشر فى الحياة مثل الأنعام أو أضل سبيلا . وإنما يريد ـ رأفة بهم وشفقة عليهم ـ أن يؤمنوا به، ويشكروه ، لعلهم بهذا يحمون أنفسهم من عذاب يوم عظيم .

❁❁❁

(١) تفسير ابن كثير : ح ٤ ، ص ٢٣٣ .

ما أحرانا أن ننعم النظر فى الآيات البينات التى تدل على قدرة الله ، لندرك ـ بالبصيرة .. التى وهبنا الله إياها ـ **مدى رحمة الخالق البارىء بعباده** ، وحرصه ـ سبحانه وتعالى ـ على أن يخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويشرح صدورهم للإيمان .﴿ **قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١) قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (١٢) وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ** ﴾(1) [الأنعام ١١ ـ ١٥] .

سبحانك ربى سبحانك .. سبحانك ما أعظم شأنك .. القرآن الكريم رسالة محمد رسول الله (ﷺ) **يدعو الناس إلى عبادة الله بالدليل والبرهان** ، لأنه يحترم العقل ، ويحض على التفكير فى أمر الخالق والكون ، حتى يؤمنوا عن بينة ، ويسلموا عن حجة . والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى ، منها قوله تعالى:

﴿ **أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ (٢٢) إِلاَّ مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ** ﴾ [الغاشية : ١٧ ـ ٢٦] (2).

نظراً لأن الإسلام يُعلى من شأن العقل ، ويجعله حكما فى كل شىء ، فإنه يدعو أيضا إلى العلم ، ويرفعه إلى درجة الإيمان .

﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾ [المجادلة : ١١] .

والعلماء ليسوا على مستوى واحد ، لأن العلم فى الإسلام ذو درجات ومراتب، حتى يتنافس المتنافسون فى تحصيله وتعلمه :

(١) كتب : قضى وأوجب على نفسه تفضلا ورحمة بعباده ـ فاطر : خالق ، مبدع ـ يطعم : يرزق ـ أسلم : انقاد وخضع ـ يصرف : يبعد .

(٢) ينظرون : يتأملون ـ ذكر : ذكر الناس يا محمد بقدرة الله ـ بمسيطر : بمتسلط جبار ـ إيابهم : رجوعهم يوم القيامة ـ حسابهم : محاسبتهم على ما فعلوا يوم القيامة ، **﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾**

﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٧٦] .

والرسول (ﷺ) يوصى أتباعه بالعلم النافع ، حتى لو اضطرهم ذلك إلى السفر والرحلة : « **اطلبوا العلم ولو فى الصين** » . وقال (ﷺ) أيضا « **طلب العلم فريضة على كل مسلم** » . ويقول : « **من سلك طريقا يلتمس فيه علما ، سهّل الله به طريقا من طرق الجنة** » .

وقال: « **فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب** » .

« وجاء رجل من قبلية مراد إلى النبى (ﷺ) وهو فى المسجد ، فقال له يارسول الله : إنى جئت أطلب العلم ، فقال : مرحبا بطالب العلم ، إن طالب العلم لتحف به الملائكة وتظله بأجنحتها » .

كما جعل الرسول العلماء فى مرتبة فوق مرتبة الزهاد ، جعلهم فى منزلة فوق منزلة الشهداء فى سبيل الله قائلا : « **للعلماء على الشهداء فضل درجة** » . أكثر من هذا يقول الرسول الكريم : « **العلماء ورثة الأنبياء** » .

ويصعب فى هذه الخاتمة الموجزة أن نحصى عدد الآيات البينات التى وردت فى الذكر الحكيم .. والأحاديث الشريفة التى أثرت عن الرسول (ﷺ) فى بيان فضل العلم والعلماء. وننهى حديثنا عن العلم فى هذه الخاتمة المختصرة بهذا القول المأثور عن الرسول (ﷺ) :

« **من سلك طريقا يبتغى به علما ، سهل الله له به طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع** » صدق رسول الله .

❁ ❁ ❁

مع أن الله سبحانه ـ غافر الذنب وقابل التوب ، فإنه قادر على أن يخسف بمن كفروا به الأرض ... أو يسقط عليهم كسفا من السماء ، فإنه ترك لعباده حرية الاختيار ـ بعد أن وهبهم نعمة العقل وحكمة القلب . بعد ذلك يكون كل امرىء بما كسب رهينا ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** ﴾ [الزلزلة : ٧ ، ٨] .

تلك عدالة الله وهذه عظمة الإسلام .. فكيف يكذب المكذبون ؟!

الإسلام دين التأمل والفطرة، دين اليسر والسماحة . وهو كما أوضح الرسول

الكريم يقوم على أسس سهلة وأركان ميسرة لكل طوائف البشر : قال (ﷺ) :

« بنى الإسلام على خمس :

١ ـ شهادة ألا إله إلا الله محمد رسول الله .

٢ ـ إقام الصلاة .

٣ ـ إيتاء الزكاة .

٤ ـ صوم رمضان .

٥ ـ حج البيت لمن استطاع إليه سبيلا » .

هذه الأركان الخمسة فرضها الله سبحانه وهو يعلم أنها فى إطار طاقة البشر وقدرتهم . بل إن حسن أداء ركن واحد منها كفيل بأن يدخل من يقوم به الجنة ـ دار السلام .

قال (ﷺ) : « خمس صلوات كتبهنّ الله على العباد ، من أتى بهن بتمامهن كان له عند الله عهدٌ أن يدخله الجنة » .

وقال (ﷺ) : « من صام رمضان إيمانا واحتسابا لوجه الله الكريم ، غفر الله له ما تقدم من ذنبه » .

وقال (ﷺ) : « من حج ولم يرفث ولم يفسق ، خرج كيوم ولدته أمه » .

وقال أيضا : « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » .

حقا ما أعظمك ، وما أصدقك يارسول الله : « **إن هذا الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه** » .

❁❁❁

الإسلام دين الفطرة والسماحة والرحمة ـ كما بينه المولى فى القرآن الكريم .. والرسول فى السنة الشريفة . **إنه دين السلام ـ على كافة المستويات** :

السلام النفسى مع الذات: فالإسلام يجعل صاحبه من أصحاب النفوس المطمئنة الذين رضى الله عنهم، ورضوا عنه . وهذا ما بشر الله به المؤمنين بقوله ـ عز من قائل: ﴿ **وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ**

رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة : ١٠٠] .

السلام الأخوى مع الآخر : الإسلام يشترط على المسلم أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وهذه الأخوة فى الله هي التى تجعل المجتمع صفا واحدا ، غايته واحدة، ودستوره واحد : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ**﴾ [الصف : ٤] .

وقال (ﷺ) : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده .. والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » . هكذا نجد الإسلام دائما يدعو إلى المسالمة والبعد عن أذى الناس، لأن « الدين المعاملة » كما يروى أيضا عن صاحب الرسالة الغراء (ﷺ) .

قال سفيان بن حسين : ذكرت رجلا بسوء عند إياس بن معاوية فنظر فى وجهى وقال : أغزوت الروم ؟ قلت : لا . فقال : أغزوت السند أو الهند أو الترك ؟ فقلت : لا .

قال: أيسلم منك الروم والترك والسند والهند ، ولا يسلم منك أخوك المسلم..؟!!

السلام الإنسانى مع البشر : الإسلام لا يأذن للمسلمين بالحرب إلا إذا اضطروا لذلك ، دفاعا عن الدين أو العرض أو الأرض . ومع أنه يدعو إلى إعداد العدة للجهاد ، لكنه فى الوقت نفسه يحض على السلام ويدعو إليه . هذا ما تؤكده الآية الكريمة:

﴿ **وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ [الأنفال: ٦١] .

الإسلام ـ أيضا ـ دين الرحمة ، ويدعو إلى المسالمة والتعاون والمحبة ، لأن القاعدة الأساسية هى أنه ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ [البقرة : ٢٦٥]، وبالتالى فإن الإسلام يدعو إلى السلام وحسن المعاشرة مع جميع الناس .

❁❁❁

الإسلام لا يدعو أنصاره إلى قتال من يختلفون معهم فى العقيدة ، حتى لو كانوا كفارا أو وثنيين . كذلك الحال بالنسبة لأهل الكتاب من اليهود والنصارى. والرسول (ﷺ) حينما حارب حارب مضطرا ، حتى يرهب الكفار والمنافقين، ويكفّ أذاهم عن المسلمين . كما أن إعداد العدة للحرب يكون لمجرد الإخافة والحماية وزرع الهيبة فى نفوس الأعداء : **﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً﴾** [النساء: ٨٤] .

المسلمون إذن لا يميلون إلى الحرب إلا مضطرين ــ كما يوضح المولى جل جلاله : **﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾** [البقرة : ٢١٦] .

السلام بين شعوب الأرض كافة :

السلام اسم من أسماء الله الحسنى .. والجنة هى دار السلام ، وتحية أهلها السلام .. ومكة المكرمة أيضا دار السلام ، والمسلمون فى نهاية كل صلاة يسلمون مرتين ؛ من أجل هذا فهو يدعو إلى السلام مع شعوب الأرض قاطبة ، لكنه سلام من غير ضعف أو حيف .

كما أن الإسلام يجعل المسلم صاحب قلب سليم ، فيكون سمحا مسالما ، لأنه من عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا اخاطبهم الجاهلون قالوا : سلاما .

ومن يستقرىء كتاب التاريخ الإسلامى الذى فتح أولى صفحاته رسول السلام ، لا يجد أن المسلمين قد نقضوا عهداً أو خانوا صلحا ، لأن الإسلام طهر نفوسهم وأيقظ ضمائرهم .

❁ ❁ ❁

ثمة ملمح لغوى يقوى العلاقة بين الإسلام والسلام ، ذلك أن الكلمتين مشتقتان من (جذر لغوى) واحد .. هو الفعل : (سلم) .. الإسلام والسلام إذن **مشتقان من جذر لغوى واحد** . وهذا ما يؤكد الدلالة القوية والعلاقة الواضحة بين الكلمتين . وذلك يدل ــ كما ذكرنا ــ على أن الإسلام دين السلام . والسلام

هو أن تخضع لما يدعو إليه ـ بالحكمة والموعظة الحسنة ـ الإسلام .. رسالة محمد (ﷺ) . الإسلام فى حقيقة الأمر دين السلام والإيمان والخير والطهارة والتعاون كما تدل على ذلك هذه الآية الكريمة :

﴿ ليس الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (١) [البقرة : ١٧٧] .

✿✿✿

(١) البر : كلمة تدل على جميع أعمال الخير ـ ابن السبيل : (كناية) المسافر ـ فى الرقاب : من أجل تحرير رقاب الأسرى أو العبيد ـ الموفون : الأوفياء ـ البأساء : شدة الفقر والحاجة .
الضراء : السقم والمرض والشدة ـ حين البأس : وقت محاربة العدو ـ صدقوا : أخلصوا فى إيمانهم .

الإسلام دين طهارة الروح وتزكية النفس وسمو الأخلاق وسماحة التعامل، وكل ما قرره فيه ـ لكل من آمن به ـ خير وسعادة وفضل وزيادة ، وما نهى عنه فيه إثم للذات وللآخر وضرر يؤدى إلى التهلكة ؛ ومن هنا تتبدى عظمة الإسلام فى هذه الصحوة الروحية التى قام بها الرسول الكريم (ﷺ) ، فقد استطاع أن يجعل من قبائل متفرقة أمة موحدة ، تقود العالم ، وتنشر نور الإيمان فى كل مكان .

الإسلام ـ دين الأخلاق الفاضلة والمثل النبيلة ـ **يقدم أرقى صورة للأديان السماوية كلها ، وهو مهيمن على كل ما سبقه من الرسالات** ، ومع ذلك يطلب من أتباعه ألا يجادلوا أهل الكتب السابقة إلا بالتى هى أحسن ، وأن يدعوهم بغير جبر ، ويرشدوهم دون قهر . فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر . ولا تزر وازرة وزر أخرى .

إن ما جاء به الإسلام الحنيف ـ من قيم روحية ومبادىء مثالية ـ أكبر من طاقة كثير ممن كفروا به وصدوا عن سبيله . إن الغرائز الحيوانية والمطالب المادية والأثرة وحب الذات والوقوع فى أسر التقليد واتباع ما تركه الآباء .. كل ذلك يؤدى إلى الضلال والعمى .. لكن أى عمى ، إنه عمى القلوب ـ لا الأبصار ، كأنما القلوب أغلقت بأقفال صدئة : ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾ [الحج : ٤٦] .

الإسلام دين الروح والطهارة .. والبعد عن المادة والظلم . ولا ريب فى أن العداوة والبغضاء والحروب والفتن والفسق والفساد تنتشر فى ربوع العالم ، وترعى فى أرجائه مثل رعى الأنعام فى غابة لا أمان بها ، لأنه لا إيمان فيها . **وحين تصل رسالة الصادق الأمين (ﷺ) إلى البشر كافة ، فسوف يعم الوئام ، وينتشر السلام . وما ذلك على الله ببعيد ... !!**

❁ ❁ ❁

نختم هذه الفقرة برأى للمفكر الهندى المسلم السيد سليمان الندوى يقول فيه:

« أما الرسالة المحمدية فهى الأولى والأخيرة من رسالات الله التى جعلها الله للناس كافة أحمرهم وأصفرهم وأبيضهم وأسودهم عربا كانوا أو عجما ، من الصين شرقا إلى أقصى الجزائر البريطانية شمالا ، يستوى فيهم التتار والأفرنج ، ذلك لأن إله رسول الله محمد ﷺ هو إله جميع الأمم ، وهو رب العالمين « الحمد لله رب العالمين » . فهو لأجل ذلك مرسل للإنسانية كلها « رحمة للعالمين » . فرسالة الإسلام رسالة تعم جميع البشر « إن هو إلا ذكر للعالمين » « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا الذى له ملك السموات والأرض » .

فمحمد (ﷺ) نذير للدنيا كلها ، ورسالته تعم العالم أجمع ، وحينما ينفذ حكم الله فلتكن شريعة الإسلام قائمة ورسالة محمد نافذة .. وقد ثبت من النصوص أن الإسلام وحده هو الذى أعلن عموم دعوته إلى الإنسانية كلها ، وأنه هو الدين التام الكامل الجامع للمحاسن ، ولن يأتى بعده دين غيره . جاء فى صحيح مسلم أن رسول الله (ﷺ) قال : « بعث الأنبياء قبلى إلى أممهم خاصة ، وبعثت إلى الأمم كلها عامة » . وهذا يؤيد دعواى والتاريخ يشهد لها شهادة لا ترد . وكما أن السيرة المحمدية كاملة تامة وفيها الأسوة لجميع البشر ، كذلك دين الإسلام الذى جاء به محمد (ﷺ) كامل دائم وفيه صلاح العالم ورشاده » [1] .



(١) السيد سليمان الندوى : الرسالة المحمدية ترجمة محمد ناظم الندوى ـ ط دار الفتح ـ دمشق ـ ١٤٠١ = ١٩٥٢ ، ص ٢٠٥ .

مبادىء الإسلام السمحة ـ التى تتلاءم أشد ما تكون الملاءمة مع الفطرة البشرية ـ تنبثق من روح الأديان السماوية التى دعا إليها السابقون من المصطفين الأخيار عليهم السلام . رسالة محمد (ﷺ) ليست جديدة ، وإنما هى ـ فى حقيقتها ـ خطوة أكمل على درب مسيرة الإيمان بالله . ويؤكد استيعاب الإسلام لكل ما سبقه من رسالات أن المسلمين مطالبون بأن يؤمنوا بالرسل والأنبياء السابقين أجمعين :

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة : ٢٨٥] .

الإســلامُ ـ إذن ـ يعلو .. ولا يعلى عليــه باعتباره أكمل الرسالات وخاتم الدعوات والمهيمن على كل ما سبقه ؛ من هنا فإنه دين الفطرة .. ودين الخلق أجمعين. لن يضر الإسلام ألا يدخله إنسان ، لكن المتضرر هو من ظلم نفسه ، وأغمض بصيرته ، وضل عن طريق الله ، فإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور . من يرد خير الدنيا فعليه بالإسلام ، ومن يرد ثواب الآخرة فعليه بالإسلام **﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾** [البقرة : ٢٧٧] .

لله المشرق والمغرب ، بل لله الأمر كله ، لو شاء لهدى الناس جميعا ، لكن الذى يجب أن يعرفه كل البشر ـ بالحكمة والموعظة الحسنة والنصيحة المخلصة ـ أنْ ليس هناك فضل لأى دين فى هذا الكون إلا لدين الله ـ بشرط أن يفىء الضال برغبته ، ويرجع الكافر بنفسه عن ملته . فالقاعدة العادلة التى أرساها رب الأديان ، ومنظم الأكوان ، ومؤسس العمران ، وفاتح أبواب الجنان ، هى أنه :

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم

مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢٥٦ ـ ٢٥٧] (١) .

فالله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم أخبرنا أن الذى يبتغى غير الإسلام دنيا فلن يتقبل منه .. ولو كان معه حمل الأرض ذهبا .

لا إله إلا الله ... لا دين بعد الإسلام .. لا رسول بعد محمد ، فمن قال : رضيت بالله ـ تعالى ـ ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد (ﷺ) نبيا ورسولا ، حرم الله على وجهه النار .. وأدخله الجنة مع الإبرار .

❁❁❁

إسلام واحد .. وشعوب مختلفة

الوعى بالآخر ـ فى حقيقة الأمر ـ وعى بالذات ، وحين تعى الشعوب حجم وجودها وإمكاناتها ، تعرف ـ بالضرورة ـ طبيعة المستقبل الذى ينتظرها ، وتحاول أن تقوم بالواجب المنوط بها . إننا نعيش عصر العلم والتكنولوجيا .كل أمر يمكن أن يحسب حسابه بشكل علمى دقيق ، لذلك ينبغى أن يعلم المسلمون بمنظور واقعى حجم عددهم وإمكاناتهم ، حتى يقدروا على القيام بدورهم ، ويأخذوا العدة لمواجهة أعدائهم . الحياة كلها جد، لا مكان فيها لغافل أو متواكل ﴿ **وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ** ﴾ [التوبة: ١٠٥] .

ندعو الله ـ الخبير العليم ـ أن يهدى المسلمين أجمعين إلى ما فيه صلاح الدنيا والدين ... على ضوء الحقائق التالية :

---

(١) الرشد : الهدى ـ الغى : الضلال ـ الطاغوت ما يعبد ضلالا من أصنام وشياطين .

أولاً : إحصاء بعدد المسلمين

العـــرب	غير العـــرب	المجموع
٢٠٠ مليون	٩٠٠ مليون	١١٠٠ مليون
١٨٪	٨٢٪	١٠٠٪

ثانياً : إحصاء بعدد سكان العالم

المسلمون	ديانات أخرى	المجموع
١١٠٠ مليون	٣٢٠٠ مليون	٤٣٠٠ مليون
٢٣٪	٧٧٪	١٠٠٪

من الإحصائية التقريبية السابقة يتضح ما يلي :

أولاً : نسبة عدد المسلمين العرب إلى غير العرب تكاد **تصل إلى (الخمس)** تقريبا [١ – ٥] . وهذا يضاعف مسئولية المسلمين العرب على المسلمين غير العرب.

ثانياً : نسبة عدد المسلمين إلى غيرهم من سكان العالم ـ أصحاب الديانات الأخرى ـ تكاد تصل إلى **حوالى الربع** [١ ـ ٤] تقريبا .

ثالثاً : عدد المسلمين ليس بالعدد الهين ، لذا ينبغى عليهم أن يتحدوا ويتآزروا ، ويتمسكوا بحبل الله جميعا ولا يتفرقوا ، حتى يحققوا لشعوبهم وحدة أكمل وغداً أفضل بإذن الله .

رابعاً : إذا أضفنا إلى كثرة العدد **قوة الإمكانات الاقتصادية**، ورخص العمالة البشرية ، كما أن العالم الإسلامى يكاد يحتكر بعض ثروات خاصة مثل : البترول .. والغاز الطبيعى .. والحديد .. والفوسفات .. والذهب .. واللؤلؤ الطبيعى .. وبعض معادن أخرى لم تكتشف بعد . بالإضافة إلى المزارات الدينية فى مكة والمدينة والقدس .. والآثار التاريخية فى مصر والشام والعراق واليمن .

خامساً : العالم الإسلامى ـ لو أحسن التخطيط وشكل وحدة حقيقية ـ لاستطاع أن يكون **سلة للحبوب الغذائية** .. **والثروة الحيوانية** [اللحوم ومنتجات الألبان] **والثروة السمكية** . ناهيك عن الإمكانات الطبيعية والتاريخية ، التى تقوم عليها السياحة الدينية والثقافية باعتبارها موردا اقتصاديا ، له أهميته فى عصر تطورت فيه أساليب الاتصالات والمواصلات .

سادساً : القوة البشرية والمادية للعالم الإسلامى ، تجعله كما تنبأ له ـ منذ مايزيد عن نصف قرن ـ المؤرخ الألمانى باول شمتز (١) Paul Schmits «قوة الغد العالمية» . ولا أظن أن ذلك المؤرخ الألمانى كان حريصا على المسلمين بقدر ما هو حريص على تنبيه غير المسلمين إلى قوة المسلمين فى المستقبل ، فانتبهوا ياأولى الألباب لعلكم تفحلون .. !!

ننتهى مما ما سبق إلى أن عدد المسلمين فى العالم يشكل نسبة كبرى لا يستهان بها . المهم ألا يستهين المسلمون بأمر المستقبل ، الزاهر الذى ينتظرهم باعتبارهم مؤهلين لأن يكونوا قوة الغد العالمية ، خاصة وأنه لا تكاد توجد دولة فى العالم المعاصر لا تعيش فيها جالية مسلمة .

إن الإسلام يكسب كل يوم أرضا جديدة ، وعدد المسلمين فى ازدياد مطرد ، سواء بحكم ارتفاع نسبة الخصوبة بين بعض شعوبه [مثل مصر ـ الهند ـ باكستان ـ بنجلاديش ـ أندونسيا ـ تركيا ـ إيران ـ بلاد الشام ـ العراق] أو بدخول أفراد غير مسلمين إلى زمرة الإسلام [الولايات المتحدة فيها حوالى عشرة ملايين مسلم ... وإنجلترا حوالى أربعة .. وفرنسا حوالى ثلاثة.. وألمانيا مليونان..] .

---

(١) نقل الكتاب إلى العربية د. محمد شامة ـ ونشر فى مكتبة وهبة بالقاهرة سنة ١٣٩٤ = ١٩٧٤ وعنوانه : « الإسلام قوة الغد العالمية » ، ويقع فى ٣٢٤ صفحة وقدم له أ .د. محمد البهى .. وزير الأوقاف المصرى السابق .

الإسلام : حضارة وثقافة ، يلقى ـ بفضل الله الذى لا إله إلا هو ـ قبولا حسنا عند كثير من الناس اليوم ، لأن الإنسان المعاصر ـ خاصة فى العالم الغربى وبعض المجتمعات الصناعية مثل اليابان ـ قد وصل إلى أزمة روحية حادة ، وإلى مأزق فكرى مسدود ، لأنه بالغ فى الاعتماد على حضارة الآلة، ومنطق الصناعة والتجارة، والفكر المادى ، والمذهب الجدلى ، والفلسفة الوجودية ، والتحرر من بعض القيم الأخلاقية .

وقد أفضت هذه النزعات المادية إلى سيطرة الفلسفة البراجماتية ومنطق السوق: « يساوى قرشا من معه قرش !! ». فالمرء يقدر ويقدم بقدر ما يملك من أرصدة فى المصارف وبيوت المال .

كل ذلك وغيره .. جعل الإنسان المعاصر ـ خاصة فى بعض البلاد المتقدمة فى مجال التكنولوجيا والصناعة ـ يشعر بقدر كبير من الاستلاب والاغتراب (Alienation) والقلق الاجتماعى والفقر الروحى . وقد قوى من ذلك ظهور بعض الأمراض الفتاكة مثل السرطان ، والإيدز ـ فقد المناعة ، وجنون البقر ، وحمى الوادى المتصدع ، وبعض الأمراض السرية .

كما قوى من الإحساس بالاغتراب أيضا ظهور جماعات ضالة ومضللة مثل : جماعات الهيبز ، وعصابات المافيا ، والجنس الثالث ، وفتيات الجيشا ، وعبدة الشيطان، وتفشى كثير من الأمراض النفسية، والحروب الأهلية، والفتن الطائفية .

أدرك ـ أخيرا ـ كثير من الناس ـ بفطرتهم السليمة ـ أن صمام الأمان فى حياة الانسان، يكون بالعودة إلى النبع الصافى المستمد من روضة الدين وحديقة المثل . الإنسان بلا روح وحش ضار .. والحياة بلا هدف عبث وضلال. الدين هو المنقذ من الضلال .. والهادى إلى الحق والخير والجمال . أكثر من هذا يؤدى إلى الفوز بسعادة الدنيا وثواب الآخرة .

يقول الشاعر الباكستانى المسلم محمد إقبال :

إذا الإيمان ضاع فلا أمانٌ ولا دنيا لمن لم يحي دينا

فى ظل هذا الظمأ الروحى إلى الإيمان يكسبُ الإسلام أرضا جديدة ـ لا فى بلاد لم تكن تدين به فحسب ، بل فى بلاده ذاتها ، حيث أصبح الفكر الدينى

يمثل اتجاها رئيسيا فى كثير من البلاد الإسلامية وغير الإسلامية ، وصار لأصحابه وجود متميز فى الشارع السياسى . هذا هو حال الإسلام اليوم ، يزيد أتباعه ويتضاعفون بفضل من الله وتوفيقه ، الذى وعدنا بقوله :

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ [القصص : ٥ ـ ٦] .

وكم كانت النفس تنشرح والقلب ينفتح حينما أذهب إلى المسجد الحرام ، فأرى المسلمين من كل فج عميق ، يأتون لأداء مناسك العبادة فى أول بيت وضع لذكر الله على الأرض ، وهم رغم اختلاف الجنسيات واللهجات ـ يلبون يهللون يدعون ربهم قائلين :

« لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا شريك لك لبيك .. إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك لبيك . اللهم إن هذا الحرم حرمك ، والبلد بلدك ، والأمن أمنك ، والعبد عبدك . جئتك من بلاد بعيدة، بذنوب كثيرة ، وأعمال سيئة . أسألك مسألة المضطرين إليك ، المشفقين من عذابك : أن تستقبلنى بمحض عفوك، وأن تدخلنى فى فسيح جنة النعيم ، اللهم إن هذا حرمك وحرم رسولك ، فحرم لحمى ودمى وعظمى على النار . اللهم آمنى من عذابك ، يوم تبعث عبادك. أسألك بأنك أنت الله الذى لا إله إلا أنت الرحمن الرحيم ، أن تصلى وتسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا » .

الإسلام ـ إذن ـ بخير والحمد لله ، والمسلمون فى يقظة ونهضة ، والدين يجدد صحوته برجال ، لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، ولا يخافون فى الله لومة لائم .

❁ ❁ ❁

بين مخافتين

لكنى أخشى على الإسلام والمسلمين فى الوقت الحاضر من أمرين مهمين خطرين فى آن واحد ـ رغم اختلاف أسهم العداوة والبغضاء .. وتنوع سيوف الخصومة والخلاف :

الأول : كثرة أعداء المسلمين فى شتى بقاع العالم ، بدرجة يظن معها البعض ــ أحيانا ــ أن الحروب الصليبية قد عادت من جديد ، وإن كثيرا من أعداء الإسلام ــ رغم كونهم من أهل الكتاب ، فإن بعض رجال السياسة عندهم ، لا يزالون يضمرون للإسلام وأهله الشر الكثير . ومعظم المناطق المتوترة فى عالمنا المعاصر بأصناف من الحروب العرقية والمذهبية والسياسية ، هذه المناطق الملتهبة تتحرك على قنابل قابلة للانفجار فى أى وقت . السر فى هذا يكمن فى أنها مناطق يدين أهلها بالإسلام ، وتردد مآذانها نداء : لا إله إلا الله محمد رسول الله.

أين ذهب مسلمو روسيا والصين والفلبين .. ؟! ولماذا قامت الحروب فى البوسنة وأرض الشيشان ، ودولة الألبان ، وجنوب السودان ، وبلاد الأفغان ، وفلسطين ولبنان .. ؟!

ثم لماذا يشجع بعض المتبجحين على الإساءة إلى الإسلام ورسوله وكتابه .. مثلما حدث مع مؤلف كتاب « آيات شيطانية » .. وغيره ؟! .

لا أود أن أسترسل .. وإن كنت أريد أن أنكأ الجراح ، حتى نكتشف الحقيقة المرة ــ ونحن على بداية الألف الثالثة من ميلاد السيد المسيح عليه السلام ــ وندرك أن الإسلام وأهله وأرضه مستهدفون من الأعداء .. وأن كثيرا من دول المسلمين تنتهك حرماتها .. وتسلب ثرواتها .. وتتقطع أوصالها ــ لا لشىء إلا لأنها بلاد إسلامية ، تؤمن برسالة محمد ﷺ ، فاعتبروا يا أولى الألباب، واحذروا الكافرين والمنافقين ، واعلموا أن الحمل المستسلم يغرى ــ أحيانا ــ بالذبح . ﴿ **وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [التوبة : ١٠٥] .

الثانى : هو أن بعض الجماعات الدينية فى عالمنا العربى المعاصر تتسم بقدر لا بأس به من ضيق الأفق ، والحكم على كثير من الناس والأمور بالظاهر ، ويبالغون فى حرفية الفهم وشكلية التقليد. أكثر من هذا أنهم يرمون من يخالفهم الرأي أو المظهر بالمروق والزيغ . تلك لعمرى ثالثة الأثافى، فالرسول (ﷺ) يقول : «**اختلاف أمتى رحمة** » ، وهم يقولون صراحة : « **من ليس معنا فهو علينا** » . أبعد من هذا ــ والعياذ بالله ــ أنهم يكفرون من يخالفهم ، ويقتلون ــ جهارا نهارا ــ

من لا يتفق معهم .

لقد نشر الرسول الكريم (ﷺ) رسالته السمحة بالحكمة والموعظة الحسنة ، وكان يجادل قومه بالتي هي أحسن ، لذلك قال له رب العزة سبحانه وتعالى ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

أكاد أظن أن بعض أعداء الإسلام فى الخارج ، هم الذين يشجعون بعض هذه الجماعات التى تدعى أنها دينية ، والدين منها براء ؛ إذ لا يوجد دين فى الوجود يبرر قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق .كما أن تنفيذ القصاص ـ إن وجب ـ لا يقوم به أى فرد فى المجتمع ، وإنما أجهزة الدولة وسلطة الحكومة . الدنيا ليست غابة .. !!

المسلمون ـ إذن ـ فى حاجة إلى التعاون والتفاهم والتماسك والتسامح .. إننا نتمنى أن يدخل ناس كثيرون فى زمرة الإسلام ، فكيف لمن تسول له نفسه أن يخرج مسلما من حظيرة الإيمان ؟! الله ـ سبحانه وتعالى ـ وحده هو الذى يعلم الظاهر والباطن ، ويعلم ما تخفى الصدور . أما نحن البشر الضعفاء فلنا الظاهر فحسب ، ولله –جل وعلا– الباطن وما تخفى الصدور ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت : ٣٣] .

المسلم من يعتنق الإسلام ، والإسلام دين السلام، والسلام اسم من أسماء الله الحسنى .. والجنة دار السلام . اللهم أنت السلام، ومنك السلام ، فحينا ربنا بالسلام ، وأدخلنا الجنة دار السلام . تباركت ربنا وتعاليت ياذا الجلال والإكرام .

أدعو الله مخلصا له الدين أن يكون ما تشهده بعض المجتمعات العربية والإسلامية ـ من هم وغم ـ سحابة صيف ، وأن تعود لبلاد الإسلام روح السلام .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ② وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون : ١ـ٣] .

❁❁❁

أو مأت منذ قليل إلى أن نسبة المسلمين العرب إلى غير العرب تكاد تصل إلى نسبة (خمس) العدد الإجمالى لعدد المسلمين فى العالم تقريباً . وهذا يوضح أن **نسبة المسلمين غير العرب أكبر بكثير جداً من المسلمين العرب** . فنحن وهم جميعاً مسلمون موحدون بالله .. مؤمنون برسالة محمد (ﷺ) ، ويصفنا المولى عز وجل بقوله : **﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾**(1) [الفتح ـ ٢٩].

ورسولنا الكريم (ﷺ) يوضح لنا أهمية وحدة الصف الإسلامى قائلا :

« مثل المسلمين فى توادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمّى » .

المسلمون جميعا إخوة ... لا فضل لعربى على عجمىّ إلا بالتقوى ، وكان من صحابة النبى (ﷺ) : بلال الحبشى ... وسلمان الفارسى ... وصهيب الرومى . والرسول (ﷺ) حين هاجر إلى يثرب كان أول أمر فعله هو المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار .

إن العصر الذى نعيشه عصر التجمعات الكبرى ... لذلك فإن على المسلمين العرب مسؤلية عظيمة جليلة هى تجميع صفوف المؤمنين ، وتوحيد روابط الشعوب الإسلامية كلها ، وهذا التوحيد ركن من الجهاد المقدس الذى أمرنا به سبحانه وتعالى فى محكم التنزيل : **﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾** (2) [الحج : ٧٨] .

أسمى درجات الجهاد الذى أمرنا به الله ورسوله ـ وصدق الله ورسوله ـ أن

(١) سيماهم : علامتهم ـ مثلهم : صفتهم ـ أخرج شطأه : أظهر ثماره المتفرعة منه ـ آزره : قواه ـ استغلظ : صار غليظا ناميا ـ استوى على سوقه : قام على فروعه وغصونه .

(٢) اجتباكم : اختاركم لدينه وعبادته ـ حرج : ضيق بتكليف يشق عليكم .

نكون أمة واحدة مثل البنيان المرصوص : نتعاون على البر والتقوى ، ونقف كتلة واحدة صامدة ضد أعدائنا . أكثر من هذا ينبغى أن نتجمع فيما بيننا ، ونتدارس أمر ديننا ، ونقرب بين مذاهب فقهنا . أتمنى أن يلتقى جميع فقهاء مذاهب أهل السنة الأربعة : أتباع مذاهب مالك والشافعي وأبى حنيفة وأحمد بن حنبل ، كما أتمنى أن يجتمع الفقهاء العرب ـ خاصة وأن معظمهم ينتمون إلى الفقه السنى ـ مع فقهاء الشيعة ، حتى يقربوا بين مبادئ الفقه الإسلامى . إن المذاهب الإسلامية كلها تعتمد على أهم مصدرين فى التشريع وهما : الكتاب والسنة.

إذن لم الخلف والاختلاف والمصدر واحد ... والدين واحد والهدف واحد؟!.

أذكر أننى حضرت إحدى ليالى التشريق بمنى ، حين كنت أؤدى فريضة الحج فى العام الماضى ، وحين أتى موعد صلاة العشاء قصراً، كنّا نحن المسلمين السُّنة نصلى خلف إمام مسجد الخيف بمنى . لكن الحجاج الإيرانيين كانوا ينتظرون حتى تنتهى الصلاة فى المسجد ، ثم يعلنون قيام الصلاة مرة أخرى ، ويصلون خلف إمام خاص بهم .

كم آلمنى هذا المنظر .. وأدمى قلبى ... وأذهل فكرى .. هل مثل هذا التفرق ـ فى أداء المناسك ـ يمكن أنْ يكون بين المسلمين ؟! وإنْ جاز ـ وهذا مجرد فرض مستحيل ـ فى الأوقات العادية ، فهل يجوز أن يوجد فى أيام مناسك الحج التى هى مظهر جليل من مظاهر توحد الأمة الإسلامية حول وحدانية الله المعبود ، الذى سعى إلى مشاعره المقدسة المسلمون من كل مكان قائلين خاشعين :

لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك ، لا شريك لك لبيك..؟!

إن الله العلى القدير الذى جمع المسلمين فى إطار شريعته المقدسة ورسالته السامية .. هو الذى أمرنا بأن نتمسك بالوحدة ، إذ إن وحدة الصف تقوى وحدة الهدف . ونحن حين ندعو إلى هذه الوحدة الإسلامية الوثقى ، فإنما ندعو ـ فى الحقيقة ـ إلى تنفيذ ما أمرنا به الله ورسوله :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى

الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾
[آل عمران: ١٠٢ ـ ١٠٤] .

❁ ❁ ❁

دعوة إلى الحكام العرب

حتى لا تكون الدعوة إلى الوحدة الإسلامية ـ التى ندعو إليها ونؤمن بها ـ صرخة فى الهواء .. أو مجرد قول ونداء ، **نقدم هذه المقترحات المتواضعة إلى كافة ملوك ورؤساء الدول العربية قاطبة** ـ بحكم المسئولية المنوطة بالمسلمين العرب إزاء إخوانهم غير العرب :

أولاً : إن تجمع المسلمين من خلال المؤتمر الإسلامى تجمع يمثل أضعف الإيمان .. لكن أقوى الإيمان هو: **الدعوة إلى رابطة للشعوب الإسلامية** .. مثل رابطة دول الكومنولث ، أو رابطة الشعوب المتكلمة بالفرنسية .. أو رابطة الشعوب الروسية ، أو منظمة الوحدة الإفريقية . ويكون اجتماع كل دورة برئاسة واحد من حكام المسلمين بالتناوب .

فى تقديرى أن منظمة المؤتمر الإسلامى لا تمثل الوحدة الحقيقية التى ينبغى أن تكون عليها الشعوب الإسلامية : سياسيا واقتصاديا وفكريا .

ثانياً : أن يكون لرابطة الشعوب الإسلامية **مقر دائم فى مكة المكرمة .. أو المدينة المنورة** ، وأن يكون للاجتماع الدورى زمان محدد ، هو الأسبوع الأول من شهر المحرم .. لما له من مكانة خاصة فى تاريخ الإسلام .

ثالثاً : أن يكون مستوى التمثيل الدبلوماسى فى اجتماعات الرابطة على مستوى وزراء الأوقاف والشئون الدينية ، حتى تكون للقرارات هيبة وصدى ، ومن ثم تصبح قابلة للتنفيذ الفورى الكامل .

رابعاً : أن تقوم حكومتا كل من **جمهورية مصر العربية والمملكة العربية السعودية بزيادة عدد الموفدين من الشعوب غير العربية لدراسة الشريعة والفقه الإسلامى واللغة العربية** فى جامعات الأزهر بمصر وأم القرى بمكة المكرمة ، وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض والمدينة المنورة .. وغيرها من المؤسسات التعليمية فى الوطن العربى ـ ذات الطابع الإسلامى .

خامسا : أن تخصص حكومة خادم الحرمين الشريفين **بعثات حج مجانية** كل عام لبعض أبناء الشعوب الفقيرة والمضطهدة والتى يقل عدد المسلمين فيها ، لأن هؤلاء الحجاج سوف يصبحون سفراء للدعوة الإسلامية فى بلادهم .

سادساً : **ترجمة معانى القرآن الكريم وتفسيره إلى كل اللغات التى يتكلم بها مسلمو العالم . وهذا يقتضى إنشاء معهد للترجمة بين الشعوب الإسلامية** ، بحيث يكون له مقر دائم وخطة عمل واضحة وميزانية مدعمة ، ويمكن لهذا المعهد فى مرحلة تالية أن يقوم بدراسة **الأدب الإسلامى المقارن** .. وغير ذلك من المعارف التى تهم المسلمين ، وتقوى الروابط بينهم .

سابعاً : **تقوية العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية والثقافية، وإنشاء شبكة طرق برية وبحرية، وتبادل الخبرات بين الشعوب الإسلامية** . إن وحدة الصف .. والتعاون العملى فى جميع المجالات ، لهما دور كبير وخطير فى إحداث التقارب المنشود بين المسلمين العرب وغير العرب . فهل يمكن أن يكون للمسلمين : سوق اقتصاد إسلامى مشترك ، وجامعة إسلامية تضم النابهين من أبناء المسلمين.. ومؤتمر سياسى موحد ، يضم صفوفهم المبعثرة ، ويوحد آراءهم المشتتة ؟!

ولعل فى بعض هذا ما يجعلهم يقفون أمام أعدائهم وقفة رجل واحد ، يؤمن بالله ورسوله ووحدة أمته ـ التى هى خير أمة .

الذى لا ريب فيه .. هو أن هذه ليست كل القضايا .. وليست كل الشجون .. **لكنها دعو للتأمل والعمل** ، إذ إن الألف ميل تبدأ بخطوة . المهم أن تجد الدعوة صدى .. فأنا متفائل ، لأنى موقن بأن الكلمة الطيبة مثل الشجرة الطيبة ، لابد أن تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها .

﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود : ٨٨] .

إذا كان هذا الكتاب يدور حول سيرة الرسول (ﷺ) فإننا نهيب بأتباعه فى كل مكان أن يتوحدوا ويتمسكوا بالعروة الوثقى التى تربطهم برباط مقدس من كتاب الله وسنة رسوله .. ندعو الله ـ مخلصين له الدين ـ أن يوحد صفوف المسلمين ، ويعلى كلمة الحق والدين ، وأن يوفق حكام الإسلام إلى ما فيه صالح المسلمين أجمعين . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين .

❁ ❁ ❁

خطبة الختام

الحمد لله رب العالمين .. الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، له الكبرياء والعظمة ، والسلطان والقدرة، والصلاة والسلام على أشرف خلقه وخاتم رسله محمد (ﷺ) الصادق الأمين ، نبى المسلمين ، ورسول رب العالمين .

وبعد .. فإن هذا هو الجزء الثاني من كتاب « أولو العزم من الرسل » عليهم الصلاة وأزكى السلام . وقد دار **الجزء الأول** منه حول أربعة من الرسل المكرمين:

- نوح .. أول الرسل والأب الثانى للبشرية .
- إبراهيم .. أبو الأنبياء وبانى بيت الله الحرام .
- موسى .. كليم الله ورسوله إلى بنى إسرائيل .
- عيسى .. كلمة الله ورسول السماحة والمحبة .

أما الجزء الثانى : فقد أفردناه للحديث عن رسولنا العظيم محمد (ﷺ) خاتم هذه السلسلة النورانية من الرسل الكرام أولى العزم ، الذين بلغوا رسالات رب العالمين إلى البشر أجمعين .

ولا ريب فى أن رسالة كل هؤلاء الرسل الكرام واحدة فى جوهرها ، متقاربة من حيث المقاصد والغايات فى مجملها ، وهى الدعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى خلق الخلق ، ودبر الكون ، لكنه ـ سبحانه وتعالى ـ أسبغ عل كل مخلوقاته خيراته ظاهرة وباطنة ، ليحمدوه على نعمه ، ويشكروه على إحسانه وفضله . يقول جل شأنه :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات : ٥٦ ـ ٥٨] .

لكنه جلت قدرته ، وعظمت حكمته ، بعث لكل قوم بشيرا نذيرا ، حتى لا يكون للناس حجة بعد الرسل . وكل واحد من هؤلاء الرسل الكرام لم يبعث ـ بداهة ـ إلا بعد أن تكون الرسالة السابقة عليه، قد تحولت وتبدلت ، لذلك يجدد الله سبحانه وتعالى ـ وهو العليم الخبير ـ الدعوة إلى عبادته وطاعته برسالة جديدة

ورسول آخر ، مطاع ثم أمين . والرسالات التالية تكون أفضل وأكمل مما سبقها ، لأن المجتمعات والحضارات ـ كما قدر رب العزة ـ تتغير وتتطور . وإلى هذا تشير الآية الكريمة :

﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ١٠٦] .

وقد ظلت الحال على هذا المنوال إلى أن جاءت الرسالة الجامعة المهيمنة على كل ما سبقها .. رسالة خاتم الرسل والأنبياء محمد ﷺ ؛ ومن هنا فإن رسالة الإسلام هي الصورة النقية لجوهر كل الرسالات السماوية . ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يتقبل منه . لكن الرب العظيم .. خلق الخلق ، وترك لهم حرية الاختيار ، إذ لا إكراه في الدين من شاء فليؤمن .. ومن شاء فليكفر . لكن شتان بين من اهتدى ، ومن ضل .. بين من آمن واتقى ، ومن ضل وغوى . إن الله سبحانه وتعالى غافر الذنب وقابل التوب .. لكنه في الوقت نفسه منتقم جبار شديد العقاب. إن صفة العدل توجب ـ بالضرورة ـ الثواب أو العقاب ، لذلك يدعو الله عباده ـ عن طريق رسله الكرام ـ ليسارعوا إلى مغفرة من وربهم ورحمة .. على ضوء المبدأ العادل الذي تقرره هذه الآية الكيمة :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧] .

أخيرا .. نسأل الله التوفيق فيما يقرب من رضاه ورحمته ، ونعوذ به من كل ما يؤدي إلى سخطه ومعصيته . ونصلي ونسلم على أولي العزم من الرسل ، الذين تحملوا مالا طاقة لبشر عليه ، حتى ينشروا نور الإيمان على مر العصور والأزمان.

مكة المكرمة
١٤١٨/٢/١٨
١٩٩٧/٦/٢٣

المستعين بالله أبو محمد
طه بن عمران وادي
رضي الله عنه

فهرس ... الرسول والرسالة

❁❁❁

المبحث الثانى : الأعلام .. والصفات

صفات الرسول فى القرآن

❁❁❁

المبحث الثالث : من البعثة إلى الهجرة

❁❁❁

المبحث الرابع : من المدينة إلى العالم

❁❁❁

المبحث الخامس : القرآن .. الرسالة المعجزة

❁❁❁

خاتمة : الإسلام .. دين السلام

❁❁❁

مؤلفـــات د. طـــه وادي

أولاً : فـي مـجـال الـدراسـات الـنـقـديـة

١ ـ **جماليات القصيدة المعاصرة** : دار المعارف ـ الثالثة ـ ١٩٩٤ .

٢ ـ **شعر شوقى الغنائى والمسرحى** : دار المعارف ـ الثالثة ـ ١٩٩٤ .

٣ ـ **شعر ناجى ـ الموقف والأداة** : دار المعارف ـ الثالثة ـ ١٩٩٤ .

٤ ـ **ديوان رفاعة الطهطاوى ـ جمع ودراسة** : دار المعارف ـ الرابعة ـ ١٩٩٥ .

٥ ـ**الشعر والشعراء المجهولون فى القرن التاسع عشر** ، دار المعارف ـ الرابعة ـ ١٩٩٥ .

٦ ـ **صورة المرأة فى الرواية المعاصرة** : دار المعارف ـ الرابعة ـ ١٩٩٤ .

٧ ـ **دراسات فى نقد الرواية** : دار المعارف ـ الثالثة ـ ١٩٩٤ .

٨ ـ **الرواية السياسية** : دار النشر للجامعات ـ الأولى ـ ١٩٩٦ .

٩ ـ **مدخل إلى تاريخ الرواية المصرية** : دار النشر للجامعات ـ الثانية ـ ١٩٩٦ .

١٠ ـ **هيكل .. رائد الرواية ـ السيرة والتراث** : دار النشر للجامعات ـ الثانية ـ ١٩٩٦ .

١١ ـ **شوقى ضيف ـ سيرة وتحية** : دار النشر للجامعات ـ الثانية ـ ١٩٩٧ .

❁ ❁ ❁

ثانياً : فـي مـجـال الإبـداع الأدبـي

١ ـ **الليالى .. سيرة ذاتية (جـ١)** : مكتبة مصر بالفجالة ـ الثانية ـ ١٩٩٢ .

٢ ـ **عمار يا مصر : مجموعة قصصية ـ** مكتبة مصر ـ الثانية ـ ١٩٩٢ .

٣ ـ **الدموع لا تمسح الأحزان : مجموعة قصصية ـ** مكتبة مصر ـ الثانية ـ ١٩٩٢ .

٤ ـ **حكاية الليل والطريق : مجموعة قصصية ـ** مكتبة مصر ـ الثالثة ـ ١٩٩٢ .

٥ ـ **دائرة اللهب : مجموعة قصصية ـ** مكتبة مصر ـ الثانية ـ ١٩٩١ .

٦ ـ **العشق والعطش : مجموعة قصصية ـ** مكتبة مصر ـ الأولى ـ ١٩٩٣ .

٧ ـ **صرخة فى غرفة زرقاء : مجموعة قصصية ـ** مكتبة مصر ـ الثانية ـ ١٩٩٦ .

٨ ـ **الأفق البعيد** : رواية ـ مكتبة مصر ـ الثانية ـ ١٩٩٢ .

٩ ـ **الممكن والمستحيل** : رواية ـ مكتبة مصر ـ الثانية ـ ١٩٩٢ .

١٠ ـ **الكهف السحرى** : رواية ـ مكتبة مصر ـ الأولى ـ ١٩٩٢ .

١١ ـ **فى البدء تكون الأحلام** : خواطر ومقالات أدبية ـ الهيئة المصرية ـ الأولى ـ ١٩٩٥ .

١٢ ـ **الشمس تشرق فى غرناطة** : رواية ـ تحت الطبع .. بإذن الله.

✿✿✿

ثالثاً : فى مجال الدراسات الدينية

أولو العزم من الرسل :

١ ـ نوح ـ إبراهيم ـ موسى ـ عيسى (جـ١) : دار النشر للجامعات ـ الثانية ـ ١٩٩٧ .

١ ـ **الرسول والرسالة** (جـ٢) : دار النشر للجامعات ـ الأولى ـ ١٩٩٧ .

✿✿✿

رابعًا : أعمال مترجمة إلى الإنجليزية

1 - The Distant Horizon : Novel - Translated By:
Dr. Hala Al-Borollosy, Egyption Book Organaization,Cairo - 1997.

2 - Desire and Thirst : Short Stories - Translated By:
Dr. Abdel-Moneim Ali, Egyption Book Organaization,Cairo - 1997.